الجامعة المصرية

مجلة

كلية الآداب

المجلد الاول – الجزء الأول		مايو ١٩٣٣

موضوعات القسم العربى

مقالات		صحيفة

بيان عن بعض المؤلفات الحديثة لأعضاء هيئة التدريس بالكلية

من اين استقى محيي الدين بن العربي

فلسفته التصوفية ؟

لأبي العلا عفيفي

يكاد يستحيل على الباحث فى المذهب الفلسفى التصوفى للشيخ محيى الدين ابن العربى أن يرجعه الى اصل واحد أو أصول معينه فلسفية كانت أو تصوفية أو مزيجا من الفلسفة والتصوف لأن هذا الرجل الغريب الذى يعد بحق أكبر فلاسفة المتصوفة فى الاسلام قد أخذ من كل أصل بطرف فلم يقتصر على مصدر واحد ولم يتبع أحداً بعينه بل غذى مذهبه فى «وحدة الوجود» (Panthéism) [(١)] بأنواع من المادة تشعبت طرقها واختلفت وتناقضت فى ظاهرها كل التناقض فلم يترك خيطا من خيوط التفكير الفلسفى أو الصوفى الا نسجه فى مذهبه الذى بالرغم من تعدد ألوان أجزائه واختلافها لا يزال يضمها جميعها وحدة تمتاز ببساطتها ووضوحها .

قد جمع ابن العربى حول الفكرة البسيطة التى يتألف منها مذهبه هذا عناصر لا يعجز الباحث ارجاعها او ارجاع أصولها الى مذاهب شتى لفلاسفة اليونان ومتقدمى المتصوفين والمتكلمين والفلاسفة فى الاسلام ، فترى فى هذا المزيج الغريب الافكار الفلسفية اليونانيه جنباً الى جنب مع الافكار الاسلامية البحته — وترى عبارات المتكلمين الى جانب اقوال الصوفيين وشطحياتهم على تفاوت طبقاتهم واختلاف نزعاتهم — وترى المؤلف يحشدها كلها حشدا فى

---

(١) وليس مذهب « وحدة الوجود » Panthéism هو مذهب الحلول (Incarnation) لأن الأول يقول بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها فى الظاهر : أما الثانى فيقول بوجود حقيقتين مختلفتين — الألهية والبشرية وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة فالمذهب الأول مذهب واحدى Monistic والثانى اثنينى Dualistic — وسيأتى شرح ذلك فى الكلام عن الفرق بين ابن العربى والحلاج .

صعيد واحد من غير ما تفرقة ولا تمييز يحاول اساغتها جميعا ثم تمثيلها وصوغها فى مذهبه — ولم يأل ابن العربى جهدا فى اختيار اصطلاحاته من هؤلاء ومن غيرهم فان كتبه حافلة بما استعار من الفاظ انباذقليس وافلاطون وارسطو وأفلوطين وفورفوريوس وفيلون — وبما استعار من الفاظ المتصوفين قبله والفاظ المعتزلة والاشاعرة ومن الفاظ القرآن والحديث — بل أنه تعدى هؤلاء الى الفقهاء[1] والنحاة[2] والرياضيين فاخذ من اصطلاحاتهم ما راق فى نظره وقرأ فى هذه الاصطلاحات من المعانى التصوفية أو الفلسفية ما شاء — وليس هذا مقام البحث فى الفاظ أبن العربي وارجاعها الى أصولها فانه مما يصح أن تفرد له مقالة خاصة

أما مقالتنا هذه فنرمى منها الى غرضين : (الاول) أن نبين ان نظرية الاستاذ Asin Palacios المستشرق الاسبانى الكبير[3] فى تأثر مذهب ابن العربى بمذهب محمد بن عبد الله بن مسره ومن أتى بعده من متصوفى الاندلس، دعوى مبالغ فيها وقول لا مبرر له : (ثانيا) أن نوضح بقدر المستطاع المصادر التى نعتقد انها أثرت فى مذهب ابن العربى فى نواحيه المختلفة مع الاشارة فى كل موضع الى رأيه الخاص والأصل الذى أثر فيه ثم نختمها بكلمة عن القرآن الكريم والحديث وكيف استخدمهما أبن العربى فى تعزيز مذهبه.

غير أننا قبل أن نبدأ بالكلام عن نظرية الاستاذ بلاسيوس يجدر بنا أن نقدم لذلك بموجز مختصر عن تاريخ التصوف الفلسفى فى بلاد الاندلس فى خلال القرن الذى تقدم ميلاد ابن العربى مباشرة لانه لم يكن للأندلسيين ولا لأهل المغرب تصوف فلسفى بالمعنى الصحيح قبل هذا القرن — بل كل ما كان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى لا يعدو ضروبا من الزهد والمجاهدة عرفتها طائفة من النساك ليس لهم المام ما بالفلسفة وان كان لبعضهم شيء من الالمام بمذاهب المتكلمين والثقافة الاسلامية العامة .

---

(١) راجع الفتوحات المكية ج ١ ص ٤٣٠ — ٩٦٠ كذلك ج ٢ ص ٢١٩ حيث يشرح ابن العربى « القياس » « والاجماع » وغيرها شرحا تصوفيا .

(٢) راجع الفتوحات ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) كما هو ظاهر من كتابه "Abenmasarra y Su Escuela"

قد عرف المسلمون فى الاندلس منذ نشأتهم بالكراهية الشديدة للفلسفة والتفكير الحر أيا كان نوعه واشتهروا بمحافظتهم وجمودهم : وقد ملىء تاريخهم بمختلف الحوادث التى فيها صادروا الكتب الفلسفية واحرقوها أو مزقوها ومثلوا بالمشتغلين بها وعاقبوهم بالابعاد أو السجن أو القتل ، ولقد بلغ بهم جمودهم الى حد أن صادروا واحرقوا كتب الغزالى ومن على شاكلته وعدوا كل من يعنى بها أو بمثلها زنديقا — فى حين كثر اعجابهم وتقديسهم للبسطاء العاميين من النساك والزهاد الذين احلتهم العامة وكثير من كبار الفقهاء والحكام المنزلة الرفيعة من نفوسهم . ولقد استمر حالهم كذلك الى زمن صاحب كتاب طبقات الأمم صاعد بن أحمد الاندلسى (١) الذى يحدثنا أنه الى عهده لم يظهر فى الاندلس — ولا فى بلاد المغرب — من عنى بالفلسفة الا نفر قليل ولم ينبغ فيها الى عهده أحد بالرغم من نبوغ الكثيرين منهم فى العلوم الاسلامية كالفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة والرياضة — وخاصة الهندسة — والفلك والمنطق والطب .

أما التصوف فقد ظهرت طائفة جديدة فيه نسجوا على منوال المتصوفين الشرقيين حوالى سنة ٥٤٠ هـ فى مدينة المرية التى كانت فى ذلك العهد اعظم مركز للتصوف فى الغرب — ومن المرية يظهر ان هذا النوع الجديد من التصوف قد انتشر فى جميع أنحاء أندلوسيا وخاصة اشبيلية وقرطبه وغرب البرتقال : فقد ظهر فى أشبيلية المتصوف الكبير أبو الحكم بن برجان المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وفى المرية ابو العباس بن العريف الذى كان شيخ الصوفيه هناك وهو صوفى باطنى مات فى السنة التى مات فيها ابن برجان (٢) ودفن بجواره : وكان فى قرطبة الشيخ أبو بكر المايورقى الذى كان اماما فى الحديث والفقه وزاهدا وصوفيا كبيرا .

استمر التصوف أكثر من قرن أى من سنة ٤٥٠ الى سنة ٥٦٠ يمر بدور انتقالى ظهر فى أثنائه ابن برجان وابن العريف الآنفا الذكر والشيخ ابو القاسم ابن قسى رئيس طائفة المريدين وظهر فى تمامه وجنى كل ثماره الشيخ الاكبر

---

(١) توفى فى سنة ٤٦٢ هـ أو ١٠٧٠ م .

(٢) راجع التكملة لابن الابار ترجمة رقم ٦٠٨ .

محيى الدين بن العربى الذى نحن بصدد الكلام عن أصول مذهبه

لم تلبث الفلسفة طويلا بعد منتصف القرن الخامس حتى أقبل عليها الأندلسيون وعنوا بدراستها ولم يمض على هذه الحركة الا جيل واحد حتى انجبت الاندلس — على الرغم من محافظة فقهائها وجمود عامتها وحكامها — أمثال ابن باجه (توفى ٥٣٣ / ١١٣٨) وابن طفيل (توفى ٥٣١ / ١١٣٦) وفيلسوف الأندلس الكبير أبو الوليد بن رشد (توفى ٥٩٥ / ١١٩٨) — الا أن الفلسفة لم تكن بعد قد مزجت بالتصوف — بل درسها هؤلاء وألفوا فيها وشرحوها كما وصلت اليهم من المشرق (وربما استثنى من هذه القاعدة ابن طفيل الذى حاول مزج التصوف بالفلسفة الى حد ما) — والذين حاولوا ادخال عنصر الفلسفة الى التصوف هم الصوفيون من طبقة ابن برجان وابن قسى فقد نحوا منحى الغزالى واتخذوه اماما لهم فى هذا السبيل وعكفوا على قراءة كتبه وتدريسها وشرحها .

وقد غنيت مكتبات الأندلس بعد اجدابها بكتب الفلسفة القديمة التى ادخلها الى هذه البلاد من رحل من الاندلسيين الى المشرق والتى ابتاعها بعض أمرائهم ممن كان لهم ولوع خاص بهذه العلوم (١) وعرفت فلسفة افلاطون وارسطو والافلاطونية الجديدة عن طريق الكتب التى نقلها تراجمة المشرق الى اللغة العربية وعن طريق الكتب التى ألفها بعض فلاسفة الاندلس أنفسهم أمثال ابن باجه وابن طفيل والشروح التى عملها ابن رشد .

وقد شاع فى ذلك العهد أيضا كثير من كتب الفرق والمذاهب الفلسفية والكلامية مثل كتاب الشهرستانى وألف فى هذا الموضوع بعض كتاب

---

(١) وقد بدأت حركة تشجيع العلوم الفلسفية وابتياع كتبها على يد الأمير الحكم (المستنصر بالله) بن عبد الرحمن الناصر « الذى انتدب العلماء واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من بلاد المشرق عيون التآليف والمصنفات » محاكيا فى ذلك الصدر الأول من خلفاء بنى العباس . راجع طبقات الأمم (بيروت سنة ١٩١٢) ص ٦٥ — ٦٦ .

الاندلسيين مثل ابن حزم - وشاع استعمال رسائل اخوان الصفا [١] بنوع خاص وهي كما لا يخفى أكبر الموسوعات التي تمثل أصول الفلسفة اليونانيه كما تركها العرب وكما فهموها : واستمر علم الكلام - الذى عرفه الاندلسيون قبل الفلسفة والتصوف بقرون - وخاصة مذهب المعتزلة - له منزلته وشرفه فى نفوس كثير منهم - وهكذا ظهر فيهم الفلاسفة والمتكلمون والمتصوفون والفقهاء والمحدثون كل قاصر همه على موضوعه لا يتعداه ولا يحاول التوفيق بينه و بين غيره - فلما اتى ابن العربى لم يدع شيئا اسلاميا أو غير اسلامى حتى وفق بينه و بين مذهبه : ومن الغريب أن يقوم بمثل هذا الأمر نفسه — مستقلا عنه — رجل من معاصريه ومواطنيه هو عبد الحق بن سبعين المتوفى سنة ٦٦٨ / ١٢٦٩ .

هذه بالاجمال هى البيئة العقلية التى ولد فيها ابن العربى وهذه حال البلد التى نشأ فيها وقضى فيها ثلاثين سنه من عمره . فهل لنا أن نقول - كما هو الظاهر من كلام بلاسيوس — أن ابن العربى وليد عصره كما هو الحال فى كثير من الفلاسفة والمفكرين — وهل ينتمى ابن العربى حقا الى طائفة المتصوفين الذين اشرنا اليهم ؟ نعم أن ابن العربى قضى الثلاثين سنة الاولى من عمره فى الاندلس وخاصة فى اشبيلية وكانت كما ذكرنا موطن ابن برجان ومركز تعليمه، ولكن يفصل بين الرجلين أكثر من قرن من السنين فهل استمرت تعاليم ابن برجان حتى ورثها ابن العربى أو هل تأثر ابن العربى بكتب ابن برجان ؟ سيأتى ذكر ذلك بالتفصيل . ومن الثابت أيضا أن ابن العربى فى رحلة له الى تونس قابل ابن الشيخ ابى القاسم بن قسى ودرس معه كتاب ابيه المسمى بخلع النعلين الذى يقال أن ابن العربى كتب شرحا عليه [٢] وانه كذلك قابل فى المريه بعض

---

(١) يقول صاعد صاحب كتاب طبقات الأمم « ان أول من أدخل رسائل اخوان الصفا » الى الأندلس هو ابو الحكم بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ سنة ١٠٦٦ م : راجع الطبقات ص ٧١ .

(٢) يذكر ابن العربي هذا الكتاب فى فتوحاته ج ٤ ص ١٤٣٦ س ٦ ويشير الى قراءته مع ابن أبي القاسم بن قسى ولكنه لا يذكر شيئا عن شرح له

اتباع الشيخ ابن العريف مثل أبى عبد الله الغزال وأبى الربيع الكفيف ولكن لا يعدو ذكره لهم مجرد اسمائهم [١].

وهو يشير الى ابن برجان [٢] وابن قسى [٣] وابن العريف [٤] فى مواضع متعددة من كتاب « الفتوحات المكية » « وفصوص الحكم » « ومواقع النجوم » ويقتبس من أقوالهم تارة موافقا لهم وطورا مخالفا : ويظهر من عباراته أنه كان على اطلاع تام بما ألفوه من الكتب وما كان لهم من الآراء ولكنه لا يخبرنا بمقدار أثر هؤلاء الصوفيين فى تصوفه أو نظرياته الفلسفية وان كان يعترف بالفضل لكثير من متصوفى الأندلس الذين كانوا أقل من هؤلاء شأنا كما يعترف لغيرهم من متصوفة المشرق . فان كان لابن برجان وابن قسى وابن العريف أثر فى فلسفة ابن العربى التصوفيه فانما ذلك الأثر قطرة من بحر استقى قطراته من ينابيع أخرى وان هم عدوا اساتذة له فى الطريق فهم قليل من كثير ممن يعد ابن العربى تلميذا لهم

وقد دل البحث على أنه لم يبق من مؤلفات أولئك المتصوفين الاندلسيين الا القليل فى مخطوطات نادرة مشتتة فى مكتبات أوروبيه وفى مكتبة القسطنطنيه ومكتبة القاهره — أما ابن قسى فيوجد لكتابه « خلع النعلين » مخطوطان

— وقد عثرت على مخطوطين منه أحدهما بالمكتبة الملكية المصرية والأخرى (بشرح لابن العربى) في مكتبة القسطنطينية وسأجد في دراستهما .

(١) راجع الفتوحات ج ١ ص ٢٩٧ و ص ٧٢٤ — ٧٢٥ .

(٢) راجع الفتوحات ج ١ ص ٧٥ ، ٣٨٨ ، ج ٢ ص ٧٩ ، ١٣٦ ، ٧٦٢ ، ٨٥٩ ، ج ٣ ص ١٠١ ، ج ٤ ص ٢٨٢ .

(٣) راجع الفتوحات ج ١ص ١٧٦ ، ٣٨٨ ، ٤٠٧ ، ٩٤٣ ، ج٢ ص ٦٨ ، ٧٩ ، ٢١١ ، ٣٤٠ ، ٩٠٧ ، ج ٣ ص ٨ — ٩ ، ٣١ ، ٢١٨ ، ٤٢٨ ، ٤٦٥ ، ج ٤ ص ١٦٤ ، الفصوص ص ١١١ ، ٣٥٥ .

(٤) راجع الفتوحات ج ١ ص ١١٩ ، ١٤٥ ، ٢٢٧ ، ٢٩٧ ، ٣٦٣ ، ج ٢ ص ١٢٨ ، ١٨٩ ، ٣٨٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٩ ، ٨١١ ، ج ٣ ص ٥٢٠ ، ٦٣٧ ، ج ٤ ص ١٠٥ ، ١١٧ ، ٧١٤ .

سبقت الاشارة اليهما، ويوجد لابن العريف كتاب « محاسن المجالس » فى مخطوطين أحدهما فى مكتبة الأسكوريال والآخر بمكتبة الجامعه المصريه [١] ويوجد ثلاثة مخطوطات لثلاثة كتب لابن برجان وهى (ا) شرح أسماء الله الحسنى [٢] (ب) لسان الحق المبثوث فى الأمر والخلق [٣] (ج) تفسير القرآن لم يتممه ويوجد منه الجزء الثانى [٤] . وقد كان لى الحظ أن قرأت كتب ابن برجان جميعها وكتاب ابن قسى فى مخطوطه الموجود بالقاهرة فلم أجد بين هذين الصوفيين وابن العربى وجه مشابهة وخاصة فيما يتعلق بعقيدة « وحدة الوجود » التى تصبغ فلسفته التصوفيه جميعها ولكننى وجدت أن ابن برجان على الخصوص كان أميل فى تصوفه الى النزعة الفلسفية وأن طريقته فى تفسير القرآن طريقة تصوفيه مبتكره ربما كانت المثال الذى نسج ابن العربى على منواله فيما بعد فى تفسيره للقرآن وشرحه للحديث.

أما ما يحدثنا به ابن العربى عن هؤلاء الصوفيين وآرائهم وعقائدهم فقليل ومقتضب لا يتبين منه الانسان مذهبا لهم واضحا، وهو غالبا لا يعدو ذكر رأى لأحدهم فى مسألة من المسائل يدخل هذا الرأى فى مذهبه الخاص بعد تحوير وتبديل يتناسبان مع روح عقيدته كما يفعل بمئات الآراء والنظريات التى لغيرهم من المتصوفين والفلاسفة — وهانذا أذكر لك بعض النقط الهامة التى أشار اليها ابن العربى فى فتوحاته وشرح فيها بعض الآراء لهؤلاء الصوفيين :

(١) رأى ابن العريف فى الفرق بين العلم والمعرفه [٥] وهو فرق يقول به ابن العربى نفسه

---

(١) فى مجموعة طلعت .

(٢) Brit. Mus. M.S. Or. 411

(٣) Paris (Arabe 2642) والظاهر أن هذا المخطوط نسخة أخرى من الكتاب الأول بالرغم من اختلاف العنوان .

(٤) Munich (Cod, 83)

(٥) راجع الفتوحات ج ٢ ص ٤٢١ سطر ١٢ .

(٢) رأى ابن برجان فيما يسميه « الحق المخلوق به » [١] وهو يتلخص فى أن « الحق المخلوق به » انما يراد به الله كما وصف نفسه لنا فى كتابه العزيز وكما نعلمه عن طريق النظر فى خلقه أى أنه هو الله الخالق المصور المدبر للكون وليس هو الله كما هو عليه فى ذاته وحقيقته منزها عن كل علم ومعرفه . « فالحق المخلوق به » أذن هو الله المتجلى لنا فى أسمائه وصفاته وافعاله فى كل ما تظهر فيه آثارها من مظاهر الكون فى هذا العالم وما ستظهر فيه آثارها من مظاهر العالم الآخروى — وان هذه الاسماء والصفات والافعال انما هى القوانين الالهية التى يظهر أثرها فى كل شيء وفى كل زمان ومكان والتى بها تنكشف حقائق الاشياء كما قدرها الله ازلا — وهذه لا شك عقيدة اسلامية لا غبار عليها ؛ والظاهر أن ابن برجان قد استعار هذا الاصطلاح (الحق المخلوق به) الذى كان أول مسلم استعمله — من بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى «وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق » [٢] وقوله تعالى « وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق ذلك الا بالحق » [٣] اما ابن العربى فيستعمل هذا الاصطلاح (الحق المخلوق به) كمرادف « للكلمة » The Logos أو مايسميه ,, بالحقيقة المحمدية،، « أو العقل الأول » الذى له مكانة خاصة فى مذهبه فى « وحدة الوجود » لأنه يقصد به الحق المتجلى لنفسه فى نفسه فى صور أعيان الممكنات قبل ظهورها فى عالم الوجود الخارجى أى أنه العالم المعقول كما هو فى ذات الله العاقلة له ، والعاقل والمعقول والعقل فى مذهبه شيء واحد

(٣) وهو يذكر ابن العريف بمناسبة رأيه فى الفناء [٤] ورأيه فى أن

---

(١) راجع الفتوحات ج ٣ ص ١٠١ سطر ١٢ من الأسفل .

(٢) قرآن س ٤٤ آية ٣٨ .

(٣) قرآن س ١٠ آية ٥ .

(٤) الفتوحات ج ٣ ص ٥٢٠ س ٨ من أسفل .

الله اصل كل شيء. [1] الا أننا لا نتبين من الجملة القصيرة التي اقتبسها ابن العربي من كتاب محاسن المجالس لابن العريف ما قصده ابن العريف بقوله أن الله أصل كل شيء — أما ابن العربي فيؤول هذه العبارة بما يتناسب مع مذهبه العام.

(٤) وهو يذكر ابن قسي بمناسبة رأيه في وحدة الأسماء الألهية [٢]

هذه هي اهم المواضع التي يذكر فيها ابن العربي هؤلاء الصوفيين الثلاثة ويناقش آرائهم مناقشه نظريه فلسفية مصبوغة بصبغة تصوفية يقرأ في كل منها معنى خاصا من معاني « وحدة الوجود » مع أنها ليست من وحدة الوجود في شيء.

ننتقل الآن الى طائفــة أخرى من الصوفيين الاندلسيين الذين ينتمون الى طبقة مختلفة كل الاختلاف عن طبقة سابقيهم فنجد أن ابن العربي يذكرهم في كثير من الأجلال والاعظام ويعترف لهم بكثير من الفضل في حياته التصوفية الأولى من الناحية العملية البحتة وها نحن أولاء نذكر بعض أسمائهم ليكون القارىء على بينة من أمرهم.

(١) — يوسف بن خلف الكومي المتوفى سنة ٥٧٦/١١٨٠ [٣]. كان من تلامذة الشيخ أبي مدين شيخ الصوفية في بجاية وقد قابله ابن العربي في أشبيلية ووصفه بأنه زاهد كبير ملامتي (ولابن العربي رأي خاص في معنى الملامتي) وقال انه مدين له بالشيء الكثير في نشأته التصوفية الأولى لأن الكومي كان أول من عرّفه معنى التصوف وحببه في رسالة القشيري.

(٢) — صالح العدوي وهو زاهد آخر قابله ابن العربي في أشبيليه ووصفه بأنه من أكبر أساتذته الروحانيين ومن أكمل الصوفيين.

(٣) — أبو عمران المرطلي : ويقول ان هذا الصوفي اتبع في تصوفه طريقة

---

(١) الفتوحات ج ٣ ص ١١٧.

(٢) فصوص ص ١١١.

(٣) الفتوحات ج ١ ص ٣٢٧.

الحارث المحاسبي البغدادي، وانه كان كثير المجاهدات كثير الزهد والتقشف .

وذكر غير هؤلاء كثيرين من طبقة الزهاد الذين اشتهروا فى زمانهم بالصلاح والتقوى والمجاهدة النفسية من غير أن يكون لهم آراء فلسفية أو أى أثر فلسفى . الا أن وصف ابن العربى لهم لا يعطينا الا صورة غير كاملة عن حياتهم وسلوكهم وكراماتهم وما الى ذلك ولا يشرح لنا شيئا عن مذاهبهم اذ الظاهر أنه لم يكن لهم مذاهب خاصة بهم .

ابن العربى وابن مسرة — والآن نذكر لك محمد بن عبد الله بن مسرة الذى هو أهم من هؤلاء جميعا لعلاقته المباشرة بموضوع بحثنا لأن الأستاذ اسين بلاسيوس يعتقد كما هو ظاهر من كتابه « Abenmassara y su Escuela » (ابن مسرة ومدرسته) أن هناك علاقة تاريخية بين متصوفى المريه الذين سبق ذكرهم وطائفة صوفية أخرى أقدم منها على رأسها محمد بن عبد الله بن مسرة هذا، ثم هو يستدل من ذلك على ان ابن العربى الذى تأثر (فى نظر الأستاذ بلاسيوس) بافكار الصوفيين من الطبقة الأولى انما هو متأثر فى الواقع بافكار الطبقة الثانية — أو بعبارة أخرى أننا يجب أن نبحث عن الجراثيم الأولى لمذهب ابن العربى فى مذهب ابن مسرة الذى توفى قبله بأكثر من ثلاثة قرون (توفى سنة ٣١٩ ﻫ) لأن متصوفى المرية كانوا حلقة الاتصال بين الرجلين — ولكن هذه دعوى من الأستاذ بلاسيوس لا تبررها حججه ولا يعضدها ما لدينا من المعلومات حتى الآن عن ابن مسرة واتباعه وعن متصوفى المرية وأتباعهم — وأقول أنها دعوى من الأستاذ لا تبررها حججه للاعتبارات الآتية

(١) — أننا لا نعرف علاقة تاريخية أيا كان نوعها بين متصوفى المريه وابن مسرة أو أى واحد من اتباعه ولا بين ابن مسرة وابن العربى .

(٢) — اننا لا نعلم — ولا يعلم الاستاذ بلاسيوس — بأحد من اتباع ابن مسرة له أهمية خاصة فى التصوف أو الفلسفة .

(٣) انه لا يوجد بين أيدينا مؤلفات مخطوطة أو مطبوعة ولا أجزاء من مؤلفات لابن مسرة ولا لأحد من أتباعه .

(٤) ان كل ما نعلمه عن ابن مسرة مستمد من المراجع الآتية :

(ا) من كتاب الفصل لابن حزم (ج ٢ ص ١٢٦ ، ج ٤ ص ٨٠ ، ص ١٩٨ — ٢٠٠) حيث يشرح ابن حزم رأى ابن مسرة فى القدر ويقول : انه كان على مذهب المعتزلة فيه . ثم يذكر بعد ذلك أن ابن مسرة كان يعتقد أن علم الله على نوعين علم بالحقائق الكلية وعلم بالأمور الجزئية .

(ب) كتاب الفتوحات لابن العربى (ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٤ ، ج ٢ ص ٧٦٧ — وكتاب الفصوص له (ص ١٢٥) حيث يشير ابن العربى الى وصف ابن مسرة للعرش .

(ج) كتاب تاريخ الحكماء للقفطى (ص ١٥ — ١٦) وطبقات الأمم لصاعد بن احمد الأندلسى (بيروت ص ٢١) حيث يصفه صاعد بأنه كان كلفا بفلسفة انباذقليس دؤوبا على دراستها .

(د) ترجمات فى مطمح الأنفس لابن خاقان (القسطنطينية ص ٥٨) حيث يوصف بالزهد والالحاد فى آن واحد — وفى تاريخ علماء الأندلس للفرضى (ج ١ ص ٣٣٧) حيث يوصف بالزندقة والتواء العقيدة ، وانه كان يقول بالاستطاعة وانفاذ الوعيد ويحرف التأويل فى كثير من القرآن الخ الخ — وفى بغية الملتمس للضبي (ص ٧٨) . وكل هؤلاء المؤلفين مجمعون على أن ابن مسرة كان متصوفا مبتدعا فى التصوف على غير عادة الاندلسيين وأنه كان حاذق لمذهب المعتزلة ، يقول بكثير من آرائهم ، وأنه كان دقيق العبارة كثير الرموز .

(هـ) أما عن أتباع ابن مسره فهم رجال لانعلم عنهم سوى أسمائهم ، وربما استثنى منهم فى هذا اسماعيل الرعينى ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى (١) .

---

(١) راجع ترجمة البلوطي في نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٢ .

وترجمة الرعيني في فصل ابن حزم ج ٤ ص ٨٠ ، ١٩٨ — ٢٠٠ .

راجع كذلك :

ترجمة الفنى وهو من اتباع ابن مسرة : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٣٢٩ .

وربما كان أقرب اتباع ابن مسرة جميعهم منزعا الى الفلسفة اسماعيل الرعينى الذى يقول فيه ابن حزم أنه كان يقول بالقدر كشيخه ابن مسرة و بقدم العالم — وأنه أنكر بعث الأجسام وقال ان العرش هو المدبر للعالم (قارن ابن العربى حيث يقول ان عرش الرحمن هو العقل الأول المدبر للكون) . ومن الآراء التى اشتهر بها الرعينى أيضا قوله أن الله سبحانه لا يدبر العالم تدبيرا مباشرا بنفسه بل هو يدبره بواسطة العرش وهو قول نسب أيضا الى شيخه ابن مسرة .

هذا كل ما لدينا من المعلومات عن ابن مسرة وأتباعه وهى لا تكفى فى أن نستخلص منها فكرة واضحة عن مذهبهم — اذا كان لهم مذهب خاص عرفوا به — ولكن الأستاذ « بلاسيوس » أبى الا أن ينسب اليهم مذهبا سماه « بمذهب ابن مسرة ومدرسته » مستندا فى هذا الى مصدرين — الأول — ما ذكره ابن العربى عن ابن مسرة فى الفتوحات المكية وفصوص الحكم وهو قليل مقتضب ؛ وبالرغم من هذا فان ابن العربى قد أول كل شىء فيه كما أول كثيرا غيره بما يتلاءم وروح مذهبه — الثانى — فلسفة انباذقليس التى قيل أن ابن مسرة كان كلفا بها دءوبا على دراستها : وعمدتنا فى هذا صاعد بن احمد الأندلسى صاحب طبقات الأمم الذى استقى منه القفطى وابن أبى أصيبعة كل ما عرفاه عن انباذقليس وابن مسرة .

وها هى فلسفة انباذقليس كما فهمها هؤلاء الكتاب وكما فهمها أيضا الشهرستانى والشهرزورى نلخصها فيما يأتى :

أولا — يقولون أن انباذقليس كان أول من ذهب الى الجمع بين معانى صفات الله تعالى وقال انها كلها تؤدى الى شىء واحد — وأنه تعالى ان وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة — بل

وترجمة الدجاج القرطبى وهو من اتباع ابن مسرة : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٤٣٧ .

* وترجمة أبان بن سعيد وهو من اتباع ابن مسرة : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٤ .

هو الواحد بالحقيقة التي لا تتكثر بوجه ما أصلاً[١] وهو رأى للمعتزلة كان من أكبر المدافعين عنه فيهم أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٢٦ هـ .

ثانيا — أن الله خلق العالم ولكنه لم يخلقه من مادة شريكة له فى الأزل — بل خلق « العنصر الأول » أولا ومن العنصر الأول خلق كل شيء[٢] ، وهذا لا شك رأى اغريقى الأصل ولكنه ليس من انباذقليس بشيء بل هو مستمد من الأفلاطونية الجديدة المصبوغة بصبغة اسلامية .

نقول انه ليس من انباذ قليس بشيء ، لأن انباذقليس كان يقول بالتعدد أى كان يعتقد كما اعتقد بارمينيديس بوجود « الفلك » (The sphere) لا كوحدة متجانسة الأجزاء بل كمزيج من أربعة عناصر أو جواهر مستقلة مختلفة كما هو معروف .

ثالثا — ينسب هؤلاء الكتاب الى انباذقليس كذلك أنه قال ان معرفة النفس الانسانية أساس كل معرفة بالأمور المادية والمعنوية (العالم الأسفل والعالم الأعلى) : وأنه قال ان محاولة ادراك العنصر الأول على ما هو عليه عبث محض — وأن ادراكه عن طريق العالم المحسوس عبث ومستحيل : وان النفس الانسانية وحدها هى حلقة الاتصال بين العالمين ، وأن من عرف نفسه فقد عرف ربه[٣] .

يقول انباذقليسهم هذا أن الروح جوهر بسيط جميل غير مادى وأن أولئك الذين ينكرون جمال الروح انما ينظرون اليها من ناحية علاقتها بالبدن : وأن بساطة الروح بساطة معنويه غير مادية — فهى أشبه ببساطة النور منها ببساطة النار — بل هى أشبه ببساطة الضياء منها ببساطة النور[٤] — وان النفس

---

(١) راجع طبقات الأمم ص ٢١ — ٢٢ والقفطى ص ١٥ — ١٦ .

(٢) راجع الشهرستانى ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) راجع الشهرزورى مقتبس من كتاب الأستاذ بلاسيوس « Abenmasara » ص ١٤٦ .

(٤) راجع الشهرزورى مقتبس من كتاب الأستاذ بلاسيوس « Abenmasarra » ص ١٤٧ .

الانسانية ليست سوى مظهر خاص من مظاهر النفس الكلية : وأن منتهى غايتها أن تعود الى أصلها : وأن فى مقدورها أن تصعد الى أرقى درجات الكمال الروحى ولذلك يجدر بنا أن نسعى دائما الى ابلاغها هذه الغاية [١] . وأن أكمل تعينات النفس الكلية نفوس الأنبياء الذين يرسلون فى أدوار وأزمنة مختلفة ليذكروا النفوس الجزئية بما قد نسيته من أنواع المعارف التى هى فى أصل نشأتها[٢].

وهذه الآراء جميعها، التى زعموا أنها لأنباذقليس فى طبيعة النفس، هى برمتها من آراء المذهب الأفلاطونى الحديث Neo-platonism وخاصة كما تفهمه فرقة الاسماعيلية الباطنية من أمثال أخوان الصفا ومن على شاكلتهم — وليس منها رأى واحد لانباذقليس كما سنرى بعد

أما الشهرستانى فقد بلغت به جرأته الى حد أن نسب الى انباذقليس نظرية أرسطو فى النفوس الثلاث : النباتية والحيوانية والناطقة بعد أن مزجها بشىء من الافلاطونية الجديدة حيث قال . . . وأن كل واحدة من هذه النفوس انما هى كالقشرة التى تليها فى السفل كما أن العقل (ويظهر أنه يعنى به العقل الأول الذى يقول به افلوطين) قشرة للعنصر الأول وكما أن النفس (الكلية) قشرة للعقل وكما أن الطبيعة قشرة للنفس وهكذا الى آخر فيوضات افلوطين The plotinian Emanations : فالاعلى (وهو اللب) روح للادنى (وهو القشرة) والادنى يعكس صورة الأعلى ويظهر كماله [٣] وهذه افلاطونية جديدة بحته تكاد توجد حرفيا فى رسائل اخوان الصفا

والظاهر أن هؤلاء الكتاب لم يعرفوا من فلسفة انباذقليس الحقيقية سوى أمرين

أولهما . رأيه فى الحب والكراهية [٤]

---

(١) راجع الشهرستانى جـ ٢ ص ٢٦٥ . c,f. Enneads of Plotinus IV 3, 1.

(٢) « « جـ ٢ ص ٢٦٣ .

(٣) « « جـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) « « جـ ٢ ص ٢٦١ .

ثانيهما نظريته فى الأركان الأربعة أو العناصر والفلك (sphere) وهذا أيضا نراه فى رسائل اخوان الصفا ممزوجا الى حد ما بفيوضات الأفلاطونية الجديدة .

أما النقطة الأولى فيشيرون اليها من آن لآخر ولكنها ليس لها كبير أهمية فى فلسفتهم ولا فلسفة ابن العربى ـ لأن فكرة وجود مبدأين مستقلين مختلفين هما أصل كل ما هو موجود كما يقول انباذقليس ليس لها وجود فى مذهب ابن العربى .

هذا بالأجمال ما فهمه كتاب الاسلام الى أواخر القرن السابع الهجرى من فلسفة انباذقليس ؛ ومنها نتبين كيف خلط هؤلاء الكتاب وكيف تخبطوا ولم يفرقوا بين ما هو لانباذقليس وما هو لغير انباذقليس كما خلطوا وتخبطوا فى فهم الفلسفة الهلينية (Hellenistic) فى كثير من مسائلها فنسبوا مذاهب برمتها أو بعض مذاهب لفلاسفة فرق بينهم و بين القائلين بها قرون من الزمن؛ ومنها يظهر أيضا كيف مزجوا الى حد كبير أصول تلك الفلسفة بعقائدهم الدينية وكيف حاولوا التوفيق بين الاثنين .

والآن يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان ابن مسره من اتباع فلسفة انباذقليس حقا ومن المغرمين بها والمدافعين عنها ـ وعما اذا كان ابن العربى ـ على افتراض أننا نجد فى غضون مذهبه بعض الافكار التى يعزوها أولئك الكتاب لانباذقليس ـ قد استقى أفكاره هذه من ابن مسره أو أحد من أتباعه ولم يستمدها من مصدر آخر ؟ أما عن السؤال الأول فلا أرى سبيلا للاجابة وأما عن الثانى فأكبر اليقين عندى أن ابن العربى قد عرف ما عرفه من فلسفته الأفلاطونية الجديدة — المنسوبة خطأ الى انباذقليس — من رسائل اخوان الصفا كما سنرى بعد — لا من ابن مسره . لا ، بل أننى أذهب الى أبعد من هذا فأقول :

أولا أن ذلك النوع من الفلسفة الذى عزاه صاعد بن احمد الأندلسى ومن اخذوا عنه الى انباذقليس خطأ وقالوا ان ابن مسره كان من الكلفين به

ليس الا مجموعة مهوشة من أفكار الأفلاطونية الجديدة وانه ملخص لما عرفه صاعد وأتباعه وما فهموه من فلسفة انباذقليس لا ما عرفه أو فهمه ابن مسرة منها.

ثانيا أن صاعدا نفسه قد أخذ ما أخذ مما سماه فلسفة انباذقليس من رسائل اخوان الصفا لسببين جوهريين.

(١) انه يوجد تشابه عظيم بين ما يسميه صاعد واتباعه بفلسفة انباذقليس وما نجده فى رسائل اخوان الصفا (وليس منسوبا الى انباذقليس) حرفا بحرف ولا سيما فيما يتعلق بمسألة النفس.

(٢) ان من المحقق أن صاعدا والقفطى وابن أبى اصيبعه لم يكن لهم علم بفلسفة انباذقليس فى أصلها الأغريقى لأننا لا نعرف لهذا الفيلسوف مؤلفات مطلقا.

ثالثا ان هذا الجزء من الفلسفة الانباذقلية الموهومة شديد الارتباط بأجزاء أخرى من الفلسفة الافلاطونية الجديدة التى نجدها منتشرة فى انحاء شتى من مذهب ابن العربى ومن فلسفة اخوان الصفا الذين يكادون ينصون عليها حرفيا فى رسائلهم.

وربما جاز لنا بعد تقديم هذه المقدمات أن نصل الى النتائج الآتية:

أولا اننا لا نزال نجهل كل الجهل الفلسفة التصوفية لابن مسرة — هذا على افتراض انه كان له فلسفة تصوفية خاصة.

ثانيا — ان الحجج التى يدلى بها الأستاذ بلاسيوس للبرهنة على أن ابن العربى كان فى فلسفته التصوفية تحت تأثير ابن مسرة واتباعه حجج واهية وغير كافية لأثبات دعواه.

ثالثا — أن كل ما يدين به ابن العربى لابن ميسرة هو انه استعار منه « وصفه للعرش » وأن كان قد أول هذا الوصف تأويلا خاصا يتفق وروح مذهبه كما أسلفنا.

رابعا — ان دعوى الأستاذ بلاسيوس أنه وجدت بالفعل علاقة بين المدرسة الصوفية بالمرية ومدرسة ابن مسرة دعوى افتراضية بحته لم يعززها بأدلة تاريخية.

خامسا — أننا حتى لو سلمنا بأن ابن العربي كان متأثرا الى حد ما بالروح الفلسفية التي أوجدها متصوفو المرية في تصوفهم فان هذا ليس معناه أننا نسلم أن ابن العربي كان متأثرا بفلسفة ابن مسرة واتباعه الا ان يثبت وجود علاقة تاريخية بين الطائفتين وهو لم يقم عليه دليل بعد .

الشطر الثاني من المقالة

وهو المصادر التي اعتقد ان لها تأثيرا في مذهب ابن العربي

يستحيل علينا في مقالة كهذه أن نستقصى كل المصادر التي كان لها أثر في الفلسفة التصوفية لابن العربي وأن نقرر بالتفصيل العلاقة — حيثما وجدت — بين كل رأى من آرائه وما يشابهه من نظريات الفلاسفة أو أقوال المتصوفين — فان ذلك يستدعى شرح مذهبه ومذاهب غيره ويخرجنا عن موضوع بحثنا — ولكنا سنجمل القول إجمالا فنقسم هذه المصادر الى قسمين كبيرين .

القسم الأول — مصادر اسلامية ويدخل تحتها .

(ا) القرآن الكريم ومجموعة من الأحاديث اعتاد الصوفيون نسبتها الى النبي عليه السلام .

(ب) بعض متقدمى الصوفيين ممن تشير عباراتهم الى « وحدة الوجود » وان لم يكن لهم مذهب فلسفي خاص فيها ، وذلك مثل أبي يزيد البسطامي والجنيد والحسين بن منصور الحلاج .

(ج) بعض متصوفى الاسلام ممن ليس لهم مذهب فلسفي خاص ولا في عباراتهم ما يشعر بوحدة الوجود مثل من ذكرنا من متصوفة الأندلس، ومثل أبي طالب المكى وأبي بكر الشبلي وأبي سعيد الخراز وغيرهم من متصوفى المشرق .

(د) المتكلمون الأشاعرة منهم والمعتزلة .

(هـ) القرامطة والاسماعيلية الباطنية وخاصة اخوان الصفا .

(و) الفلاسفة الاسلاميون ممن انتحلوا مذهب ارسطوطاليس ممزوجا بالافلاطونية الجديدة لاسيما الفارابي وابن سينا .

(ز) الاشراقيون ،

القسم الثانى — مصادر غير اسلامية — وهى الفلسفة الهلينية (Hellenistic Philosophy) وخاصة . (ا) الافلاطونية الجديدة (Neo-Platonism)

(ب) فلسفة فيلون (Philo Judaeus) والرواقيين (The Stoics) فيما يتعلق بنظرية ابن العربى فى الكلمة (The Logos) وسنتناول بالبحث الاجمالى بعض هذه المصادر لأهميتها فنقول .

ان مذهب ابن العربى يمكن أن ينظر اليه من ناحيتين ناحيته الفلسفية البحتة وناحيته التصوفية : أما فى الناحية الفلسفية فهو لاشك من اتباع المذهب الافلاطونى الجديد الذى عرفه لافى أصله بل عن طريق اخوان الصفا — وأما فى الناحية التصوفية فهو يشارك الحلاج فى أسلوبه ومنهجه ويختلف عنه فى عاطفته لان ابن العربى يغلب عليه النظر والتفكير العميق ، وتعوزه العاطفة القوية العنيفة ، التى كانت من أهم ميزات الحلاج ، وهو فوق هذا متأثر فى الناحية المنطقية الشكلية بأساليب المتكلمين ومناهجهم .

اخوان الصفا ومن نحا نحوهم من فلاسفة المسلمين

من أتباع الأفلاطونية الجديدة (Neo-Platonism)

لا حرج علينا اذن أن نقرر أن ابن العربى ومن على شاكلته من متصوفى الاسلام الذين صبغوا تصوفهم صبغة فلسفية — أو بالحرى صبغوا فلسفتهم صبغة تصوفية — قد استمد الشيء الكثير من مادة مذهبه من رسائل اخوان الصفا — لاسيما الأجزاء التى أصلها من الافلاطونية الجديدة والتى أدخل عليها « الاخوان » عناصر غريبة من مذاهب أخرى اغريقية أو مسيحية أو فارسية الأصل — فاننا نجد من هذه الرسائل طائفة كبيرة من المذاهب الفلسفية المختلفة الأصل والنزعة يؤلف اخوان الصفا بينها أو يحاولون التأليف والوصول منها الى مذهب عام واحد — فنجد فيها مذاهب الأغريق على اختلاف طبقاتهم يتخللها عناصر مستمدة من المذهب المانوى أو الزرادشتى ممزوجة بشيء من التصوف الاسلامى وآراء

المتكلمين مضافا اليها قليل أو كثير من آى القرآن أو الحديث بحسب ما تتطلبه الحاجة — والناظر فى مؤلفات ابن العربى لا يعجزه أن يرى صورة مصغرة لكل ذلك — الا أنه لم يقف عند حد النقل عن اخوان الصفا بل أوّل ما نقل عنهم — كما أول غيره — وحور فيه وبدل وقرأ فيه من معانى مذهبه فى وحدة الوجود ما قرأ . وقد كانت رسائل اخوان الصفا الى عهد ابن العربى اكبر الموسوعات الفلسفية عند المسلمين واكبر مصدر رجعوا اليه ليستمدوا منه العون فى أى موضوع فلسفى كان — ولم يكن ابن العربى أول ولا آخر من تأثر بفلسفتهم ، فهناك كثيرون من فلاسفة الاسلام ومتصوفيه مثل شهاب الدين السهروردى الحلبى المقتول وعبد الحق بن سبعين الاندلسى وغيرهما تنطق فلسفتهم التصوفية بما «لاخوان الصفا» من أثر بين فيها — ولا غرابة اذن فى أن تتفق فلسفة السهروردى وابن سبعين فى الروح والمنحى مع فلسفة ابن العربى ، فان العلل المتشابهة أو المتحدة تنتج المعلولات المتشابهة أو المتحدة. نعم ان ابن العربى يظهر أنه كان يعلم من الفلسفة الأغريقية ما كان يعلمه اخوان الصفا وفوق ما علموه؛ فاننا نجده متأثرا فى نظريته فى «الكلمة» (the Logos) بفلسفة فيلون اليهودى الاسكندرى وفلسفة الرواقيين — ولا نعلم حتى اليوم كيف تسنى لابن العربى الوصول الى هذا الجزء من فلسفته — غير أننا يجب الا ننسى أنه قضى الجزء الاكبر من حياته فى الشرق حيث الفلسفة الهلينية — ولا سيما المذاهب الاسكندرية بما فيها فلسفة فليون — تكاد تمتزج بالهواء الذى كان يتنفس فيه — وحيث الرهبان والفلاسفة المسيحيون يتناقلون هذه الفلسفة مشافهة جيلا عن جيل فيعرفها عن طريقهم فلاسفة الاسلام ومتصوفوه الذين كانو يعيشون فى ديارهم و بين ظهرانيهم .

و يظهر أيضا أن ابن العربى قد تعلم كثيرا من فلاسفة الاسلام مثل الفارابى وابن سينا — وعن الأول أخذ طريقته فى استعمال الالفاظ القرآنية مثل القلم واللوح المحفوظ والعرش ونحوها كمرادفات للاصطلاحات الافلوطينية مثل العقل الأول والنفس الكلية والجسم الكلى وهكذا .

ومن المحقق أيضا ان ابن العربى لم يكن فى يوم من أيام حياته اسماعيلى المذهب

(واخوان الصفا من الاسماعيلية) فنقول أنه تلقى علمه وطريقته عنهم رأسا — الا أن هذا لم يمنعه من قراءة كتبهم والتأثر بما فيها — وهو كأبى حامد الغزالى ينقم على الاسماعيلية و ينقدهم نقدا مرا ثم ينسى أو يتناسى فضلهم وما هو مدين لهم به من مادة ومنهج فان طريقة ابن العربى فى شرح مذهبه — أعنى البدء بأصل اسلامى بحت كآية قرآنية أو حديث ثم تأويل هذا الأصل بطريقة تدريجية تأويلا فلسفيا يخرجه عن معناه و يدخل فيه أى معنى آخر يريده من معانى الفلسفة أو التصوف، هى بعينها طريقة الاسماعيلية وخاصة ״ اخوان الصفا ״ الذين ينتمون الى فرقتهم. نعم ربما كان الباعثان فى الحالين مختلفين ولكن النتيجة التى أدت اليها تلك الطريقة واحدة — أما تأويل ״ اخوان الصفا ״ لآيات القرآن وللحديث ولا سيما ما يتعلق منها بأمور الآخرة من جنة ونار و بعث وحشر الخ فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق مآربهم وهو قلب الاسلام وهدم عقائده ومبادئه من أساسها — وهذا النوع من التأويل نسمع صداه فيما نقرؤه من تفسير ابن العربى لكثير من آيات القرآن والحديث — ألا ان غايته من هذا التفسير لاشك غير غايتهم؛ اذ غايته تدعيم مذهب فلسفى له وتشييده على أصول ظاهرها اسلامى و باطنها « وحدة الوجود » خالصة لا شائبة فيها.

والآن أوضح لك مواضع التشابه بين فلسفة ابن العربى وفلسفة ״ اخوان الصفا ״ مرتبة بحسب ورودها فى مذهب الأول ليتبين لك شدة الاتصال بين الاثنين.

(١) فى الناحية الميتافيزيقية.

لم يكن اخوان الصفا ممن يعتنقون مذهب « وحدة الوجود » Pantheism كما كان ابن العربى ولكن كانت لهم آراء أخذوها عن فلسفة الأغويق وحوروا فيها وأخذها ابن العربى عنهم ليغذى بها مذهبه نذكر منها ما يأتى:

أولا — فيوضات افلوطين (Emanations of Plotinus) ومراتب الوجود — ولو أن اخوان الصفا كانوا فى هذه المسألة أقرب الى المذهب الافلوطينى من بن العربى لأنه لم يعتقد — كما اعتقدوا — أن الفيوضات تكوّن سلسلة من

الوجودات كل منها يصدر عن الفيض المتقدم عليه و يظهر كمالاته — بل يقول ان هذه الفيوضات ان هى الا أسماء لجهات مختلفة من الوحدة المطلقة — أى الذات الالهية الواحدة التى لا تقبل التكثر بحال. فالواحد (The One) ليس سوى هذه الذات فى اطلاقها وتجردها — والعقل الأول (The First Intellect) ليس سوى هذه الذات ظاهرة بصورة القوة الناطقة المنبثة فى جميع الأشياء : والنفس الكلية (The Universal Soul) ليست سوى هذه الذات ظاهرة بصورة القوة المدبرة لسائر الكون، والجسم الكلى (The Universal Body) ليس سوى هذه الذات ظاهرة بصورة العالم المادى وهكذا ـ بعبارة أخرى ـ يدخل ابن العربى فكرة الفيوضات الى مذهبه فى وحدة الوجود — آخذا هذه الفكرة عن „ اخوان الصفا „ — و يحلها من هذا المذهب محلا خاصا مع أنها فى أصلها ليست من وحدة الوجود فى شىء.

ثانيا — فى تعريفهم للحق (الله) بأنه أصل الوجود وقولهم بأن هذا الأصل فى نفسه ليس له صفات أو أسماء، وأن طبيعته لا تقبل التناقض الخ مما ينطبق تمام الانطباق على الذات الالهية المتقدمة الذكر فى مذهب ابن العربى. نعم ان الفرق جوهرى بين مذهبه ومذهبهم لأنه يعتبر الذات أو العين الواحدة جهة خاصة من جهات « الحق » كما يعتبر العالم المحسوس الذى تظهر فيه الذات فى أعيان الممكنات جهة أخرى فى حين أن الحق والعالم فى رأى „ اخوان الصفا „ منفصلان (١).

و يتلخص مذهبهم فى أنهم ينظرون الى الحق (الله) نظرة أفلوطين الى „ الواحد „ أى يعتبرونه العلة فى كل شىء لا انه « عين الوجود » الذى منه نشأ الوجود وليس هو خارجا عنه (٢).

و يقولون ان الله ليس بجسم كما يقوله بعضهم وليس بصورة روحانية أو بنور عام فى جميع الأشياء كما يقول البعض الآخر بل هوية و حدانية ذو قوة واحدة وأفعال كثيرة وصنائع عجيبة لايعلم أحد من خلقه ما هو وأين هو وكيف هو

(١) راجع رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٣٧ ، ج ٤ ص ٨١ .

(٢) « الفتوحات » ج ١ ص ٥١٩

وهو الفائض منه وجود الممكنات وهو المظهر صور الكائنات فى الهيولى المبدع جميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان بل قال كن فكان[١] فالله فى نظرهم هو هو الخالق المبدع للعالم لا كإبداع البناء الدار. بل ان الموجودات تفيض منه أو تصدر عنه فيضان أو صدور الأعداد عن الواحد : والعالم ليس هو الله ولا جزءا منه ولا صورة له — بل هو فيض منه خالقه بفضله وعنايته[٢] وكل هذه أفكار من الأفلاطونية الجديدة حور فيها ,, اخوان الصفا ،، الى حد قليل وأخذها عنهم ابن العربى برمتها وأفسح لها مكانا فى مذهبه معتبرا الفيوضات بما فيها العالم أمورا اعتبارية محضة فى ذاتها : ليس لها وجود الا كمظاهر للذات الواحدة التى هى أصل كل شىء كما أسلفنا .

رابعا — فيما يتعلق بالزمان وقولهم أن الزمان لاحقيقة له الا فى العالم المحسوس : وفى هذا يتفق معهم ابن العربى مرة أخرى . فالحق (الله) فى نظرهم متقدم عن العالم تقدما عقليا (أو منطقيا — أى بالمرتبة) لا تقدما زمانيا — أما تقدم الأفلاك على العناصر مثلا فتقدم زمانى حقيقى — فالبارى متقدم الوجود على الكل كتقدم الواحد على جميع الأعداد[٣] .

خامسا — وقد بنوا نظريتهم فى الفيوضات (Emanations) على ما كان يخيل اليهم (والى فلاسفة الاسلام جميعا) أنه بديهية فلسفية وهو « أنه لا يصدر عن الواحد الا الواحد » (قول عزوه لارسطوطاليس) وعبارة نقلها ابن العربى عنهم وناقشها فى فتوحاته[٤] ذاكرا الفيوضات الأفلوطينية كما ذكرها اخوان الصفا وواصفا لها بما وصفوها به[٥] : فهم مثلا يطلقون على العقل الأول (الافلوطينى)

---

(١) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٨١ .

(٢) راجع « « « ج ٣ ص ١٠٩ — قارن كذلك رسائل ج ٣ ص ١١٩ .

(٣) راجع رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ١٢٠ .

(٤) راجع الفتوحات ج ١ ص ٥٢ .

(٥) راجع رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، ج ٣ ص ١٢٢

اسم « المخلوق الابداعى » وأداة الخالق و « الفيض الأول » و « صورة الحق » وغير ذلك وهى كلها اصطلاحات نجد ابن العربى يستعملها فى وصف ما يسميه « بالحقيقة المحمدية » و « بالـكلمة » (Logos)[١] .

سادسا — وأنك لتـجد وجه الشبه ظاهرا كذلك بين اخوان الصفا وابن العربى فى شرح العلاقة بين النفس الـكلية والنفوس الجزئية التى هى تعينات خاصة للنفس الـكلية[٢] .

سابعا — يدخل اخوان الصفا — ويتبعهم فى هذا ابن العربى — « الفلك المحيط » والأركان الأربعة الأنباذقلية فى عداد الفيوضات الأفلوطينية — ولكنهم لا يعنون بالفلك المحيط أو الـكل (الذى يسميه انباذ قليس σφαίρος) مايعنيه انباذقليس وانما يقصدون به فلك الـكواكب الذى مركزه الشمس — وفوقها المريخ والمشترى وزحل — وأسفلها الزهرة وعطارد والقمر — ذاكرين الأركان الأربعة الأنباذقلية بعد القمر فى الترتيب[٣] — وهذا الخلط بين فيوضات أفلوطين وفلك بطليموس وأركان انباذ قليس نجده كذلك فى فلسفة ابن العربى .

٢ — فيما يتعلق بالنفس والمعرفة — والانسان والعالم (The Microcosm and the Macrocosm) وهنا نجد العلاقة بين اخوان الصفا وابن العربى أقوى وأخذه عنهم أظهر وتحويره فيما أخذ أقل وسنذكر التشابه بينهما فى نظريات النفس والمعرفة بضرب من الاجمال كما فعلنا فى الموضوع السابق .

أولا — فى تعريفهم للنفس الانسانية بأنها جوهر حى بسيط طبيعتها الفعل

---

(١) راجع رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ١٢٢ ، ج ١ ص ٣٧ وراجع فيما يتعلق بوصفهم للفيوضات الاخرى رسائل ج ٣ ص ٤ ، ٧ ، ١٨ ، ج ٤ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ج ٣ ص ٦ .

(٢) راجع رسائل ج ٣ ص ٩ ، ٤٣ — ٤٤ : قارن السهروردى فى مذهبه

(٣) راجع رسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٧٨ ، ج ٣ ص ٢٣ اما عن آثار الأفلاك فراجع ج ٤ ص ٢٤٣ — ٢٤٧ .

والمعرفة [١] — وقولهم

ثانيا — ان ما يراد « بأنا » و « أنت » انما هو كل ما نعنيه بالنفس وأنه لا دليل على وجودها سوى المعرفة بديهية كانت أو نظرية [٢] وقولهم

ثالثا — ان النفس الانسانية هى تعين خاص للنفس الكلية [٣] .

رابعا — ورأيهم فى أن أرقى درجات الحياة الروحية وأقصى غاية للنفس الانسانية انما هو فى رجوعها (ويظهر أنهم يريدون رجوعا حقيقيا) الى النفس الكلية — وأن هذا هو الطريق الى تحريرها تماما من جميع ادران العلائق البدنية [٤] — وهم وابن العربى متفقون على أن حياة النفس الانسانية (بعد الموت) فى النفس الكلية هى كل ما يقصد بالحياة الأخروية [٥] وأن الجنة والنار ليسا سوى ماتشعر به النفس من سعادة أو شقاء فى الحياة الأخروية (بالمعنى الذى يفهمونها به) .

ألا أنهم يختلفون عن ابن العربى فى أنهم يبالغون فى تحقير العالم المادى والدعوة الى الزهد فيه وفى كل ما يتعلق به كوسيلة لتحقيق معنى السعادة النفسية [٦] — أما ابن العربى فيقول أن الطريق الى السعادة النفسية هى المعرفة الحقة وهو أميل فى رأيه الى المذهب الافلاطونى كما ان اخوان الصفا أقرب فى رأيهم الى وجهة النظر المسيحية .

خامسا — رأيهم فى خلود الروح والعالم الروحى [٧] وفى هذا يتفق ابن العربى معهم .

---

(١) راجع رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٧٨ — قارن ج ١ ص ١٧

(٢) » » » » ج ٤ ص ٢٢٦

(٣) » » » » ج ٣ ص ٤٣ — ٤٤

(٤) » » » » ج ٣ ص ١٢٠

(٥) » » » » ج ٣ ص ٧٢ — ٧٣ ، ج ٤ ص ١٨٩

(٦) » » » » ج ٤ ص ١٩٠ ، ٢٢١ — ٢٢٢

(٧) » » » » ج ٤ ص ١٠٧ — ١١٧ ، ١٢٠

سادسا - رأيهم فى أن أعلى مرتبة انسانية تصل اليها النفس هى مرتبة الوحى وهى مرتبة الأنبياء والورثة [١] وهو الأسس الذى بنوا عليه مذهبهم المعروف فى الامامة والامام المعصوم، ويظهر بكل وضوح فى نظرية ابن العربى فى « الانسان الكامل » التى كان له فضل السبق فى وضعها .

ورأيهم فى « الانسان المطلق »، وهو الأصل الذى استمد منه ابن العربى فكرته عن الانسان الكامل وكذلك رأيهم فى سرية العلم الباطنى الذى هو من خصائص الامام المعصوم وورثته وهو كلام يردده ابن العربى فيما يقوله عن الولاية وخاتم الأولياء الذى يعنى به نفسه .

أضف الى ذلك ما يذكره ،، اخوان الصفا ،، من المقارنة بين الانسان والعالم « The Microcosm and the Macrocosm » مما انتفع به ابن العربى فى وصفه للانسان الكامل بأنه ،، صورة مصغرة جمعت فيها حقائق العالم أعلاه وأسفله ،، وغير ذلك مثل وصفهم الانسان بأنه ،، خليفة الله ،، أو ،، الخليفة ،، أو ،، الصورة ،، وهكذا .

سابعا — فى كل ما يقولونه فى علم النفس — فى الحواس والقوى العقلية ووظيفة كل وأنواع المعرفة الذوقى منها والتجريبى والنظرى وغير ذلك مما نجده بنصه وفصه فى كتب ابن العربى [٢] .

ابن العربي والحلاج :

والآن ننتقل الى الناحية التصوفية لمذهب ابن العربى فنناقش المصادر التى أثرت فيها كما فعلنا بالناحية الفلسفية التى ذكرنا اجمالا أنها هلينية الأصل عليها مسحة اسلامية خاصة طبعها بها ،، اخوان الصفا ،، . أما من الناحية التصوفية فأكبر متصوفى الاسلام تأثيرا فى مذهبه هو الحسين بن منصور الحلاج الذى استشهد

---

(١) راجع رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠

(٢) قارن مثلا فتوحات ابن العربى ج ٣ ص ٣١٣ — ٣١٥ برسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ١٢ وما يليها

ببغداد سنة ٣٥٩ لقرب الرجلين فى النزعة مع تفاوت بينهما فى العاطفة كما أسلفنا .

لم يكن الحلاج فيلسوفا بأى معنى من معانى الكلمة ولم تكن شطحياته المأثورة عنه صادرة عن عقيدة فلسفية فى وحدة الوجود Pantheism بل كانت تعبيرا عن وجدان عميق عنيف وصورا لمعان نفسية خاصة به لا بغيره، شعر بها حينما تغلغل فى نفسه حب من يهواه فصاح كالمجنون الذى أفقده حبه صوابه وأصبح لا يدرى الفرق بين المحبّ والمحبوب ونطق بتلك العبارة التى من أجلها لقى حتفه — « أنا الحق » — ولم يكن الحلاج ليستطيع أن يدلى ببرهان أو حجة على ما كان يقول من هذه الشطحيات ولا أن نزيد عليها بأكثر من أنه شعر بمعانيها فى نفسه — ولكن هذه العبارات البسيطة الساذجة الصادرة عن مجرد العاطفة قد وقعت من نفس خلفه فيلسوف متصوفى الاسلام محيى الدين ابن العربى موقعا خاصا فأولها كما شاءت عقيدته الفلسفية أن يؤولها وقرأ فيها من معانى ,, وحدة الوجود،، ما قرأ ولم يعان كبير مشقة فى هذا الصدد لما يشعره ظاهر عبارات الحلاج من ,, وحدة الوجود،، .

والظاهر من كلام ابن العربى عن الحلاج ومن اشاراته العديدة اليه فى الفتوحات [١] أنه كان على علم كبير بسيرته وأقواله وأنه عنى به عناية خاصة من بين متصوفى المشرق فألف كتابا يفسر فيه رموز الحلاج واصطلاحاته سماه ,, السراج الوهاج فى شرح كلام الحلاج [٢] ،، .

ولا يتسع المقام هنا لأكثر من سرد اجمالى للنقط التى يظهر فيها تشابه وعلاقة واضحة بين الحلاج وابن العربى — بل أننى سأقتصر على ذكر المسائل الهامة التى هى فى صلب مذهب ابن العربى والتى لا شك عندى أنه أخذ جراثيمها الأولى عن الحلاج وهى :

---

(١) راجع الفتوحات ج ١ ص ٢١٩ وج ٢ ص ١٥ و ١٦٥ و ٤٤٥ و ٤٧٨ و ٧٢٠ وج ٣ ص ٢٢ و ٥١ و ١٥٥ وج ٤ ص ١٠٥ و ٣٠٩

(٢) Massignon's Passion del Hallaj

أولا — مسألة « الواحد والكثرة » أو « الحق والخلق » التي تأثرت في ناحية من نواحيها بما يقوله الحلاج عن « اللاهوت والناسوت » أو ما يسميه أحيانا „ بالطول والعرض „ [(١)] وهذه المسألة هي المحور الذي تدور حوله فلسفة ابن العربي جميعا ولا يكاد يخلو من التأثر بها جزء من أجزاء مذهبه — إلا أننا يجدر بنا أن نوضح الفرق الجوهري بين وجهتي نظر هذين الصوفيين بالرغم من تقاربهما. فاننا بينما نرى الحلاج ينظر الى اللاهوت والناسوت (أو الطول والعرض) أو الله والعالم كشيئين مختلفين ذاتا وطبيعة ويعتقد أن اللاهوت يمكنه أن يحل في الناسوت اذا بلغ الناسوت درجة خاصة من الصفاء الروحي — نرى ابن العربي يقول أن اللاهوت والناسوت أمران اعتباريان يقرر العقل وجودهما لعجزه عن ادراك وحدتهما. نعم قد يسترسل ابن العربي في ذكر الفرق بين الواحد والكثير أو بين الحق والخلق أو اللاهوت والناسوت على أساس منطقي أو ديني فيصف الواحد بأنه واجب الوجود قائم بذاته وأنه „ رب „ ويصف الكثرة بأنها ممكنة الوجود متوقفة في وجودها على وجود غيرها وبأنها „ عبد „ الخ ولكنه يقول ان هذه فروق يقضي بها العقل البشري القاصر ولا تقرها الحقيقة والواقع اذ الواحد في الواقع هو الكثرة والحق هو الخلق. يقول ابن العربي „ والعين واحدة من المجموع في المجموع „ [(٢)].

ويقول:

يا خالق الأشياء في نفسه   أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه   فيك فأنت الضيق الواسع [(٣)]

ويقول:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا   وليس خلقا بهذا الوجه فادكروا...

---

(١) راجع الفتوحات ج ١ ص ٢١٩ وقارنه بطواسين الحلاج ص ١٤١
(٢) فصوص ص ١٠١
(٣) فصوص ص ١٣٩

جمع وفرق فان العين واحدة وهى الكثيرة لا تبقى ولا تذر (١) وهكذا :

فالحلاج اثنيني المذهب وابن العربى واحديه؛ وأنه بالرغم من أن ابن العربى يستعمل لفظتى الصورة والذات أو الخلق والحق كمرادفين لكلمتى الحلاج الناسوت واللاهوت — وأحيانا يستعمل كلمتى الحلاج نفسهما (٢) فان الفرق بين وجهتى نظرهما لا يزال جوهريا . نعم ان الحلاج كان له الفضل فى تمهيد الطريق لابن العربى فى هذا الموضوع فانه عن طريق الحلاج دخلت النظرية الهلينية القائلة بإثنينية العالم (وهما العنصران اللذان سماهما الحلاج باللاهوت والناسوت أو الطول والعرض أى الروحى والمادى) الى مذهب ابن العربى وان كان لم يبقها كما كانت بل حورها الى نظرية فى وحدة الوجود كما رأينا — وما هذه الأسماء الكثيرة التى يستعملها ابن العربى مثل عالم الأمر وعالم الغيب وعالم الأرواح وعالم المعانى وغيرها ألا مرادفات لكلمتى الطول واللاهوت اللتين يستعملها الحلاج — وما عالم الخلق وعالم الطبيعة وعالم الأجساد الخ سوى مرادفات لما يسميه الحلاج بالعرض أو الناسوت .

ثانيا — فى نظرية ابن العربى فى " الانسان الكامل ". التى استمد عناصرها مما يقوله الحلاج عما يسميه " هو هو "، فان الحلاج كان أول من علّم ابن العربى المعنى الفلسفى للأثر اليهودى المعروف وهو " خلق الله آدم على صورته "، فآدم هنا هو الذى يعنيه ابن العربى " بالانسان الكامل"، الذى هو أرقى مجلى تظهر فيه الكمالات الالهية وهو الذى يسميه الحلاج " هو هو "؛ ويكفى لايضاح مقدار تأثر ابن العربى فى هذه الناحية بنظرية الحلاج أن نقارن ما قاله فى مطلع الفص الأول من كتابه فصوص الحكم وهو " لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماؤه التى لا يبلغها الاحصاء أن يرى أعيانها، وان شئت قلت أن يرى

---

(١) فصوص ص ١١١

عينه فى كون جامع يحصر الأمر كله (وهو الانسان الكامل) لكونه متصفا بالوجود ،و يظهر به سره اليه، فان رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هى مثل رؤيته نفسه فى أمر آخر يكون له كالمرآة . . . . . . وقد كان الحق أوجد العالم كله وجود شبح مسوًّى لا روح فيه وكان كمرآة غير مجلوة . . . . . . فكان آدم (الانسان الكامل) عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة . . . . . فسمى هذا المذكور انسانا وخليفة فاما انسانيته فلعموم نشأته وحصره الحقائق كلها وهو للحق بمنزلة انسان العين للعين . . . فهو الانسان الحادث الأزلى والنشء الدائم الأبدى والكلمة الفاصلة الجامعة » . . . (١) . . . .

بما يقوله الحلاج من أن الله تعالى قبل الخلق وقبل علمه بالخلق تجلى لنفسه فى نفسه فى ذاته المطلقة عن كل تعين المنزهة عن كل وصف فأحب أن يظهر عظمته وجلاله فى شيء خارج عنه فخلق صورة أودع فيها كل صفاته (كمالاته) وهذه الصورة هى آدم . . . . . وقد لخص الحلاج نظريته هذه فى أبيات له مشهورة وهى :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لا هوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب (٢)

ومن قرأ طاسين السراج للحلاج لا يعجزه أن يرى الجراثيم الأولى التى استمد منها ابن العربى كثيرا من مادته فيما يقوله عن أزلية محمد (روح محمد) أو ,, الحقيقة المحمدية ،، التى هى اسم آخر لما يسميه « بالانسان الكامل » .

ثالثا — فى طبيعة العلم الباطن وأنه منبعث من نور محمد الذى من مشكاته أخذ الأنبياء والورثة (الأولياء) علومهم (٣) .

---

(١) فصوص ص ١٢ — ٢٠
(٢) طواسين ص ١٣٠
(٣) راجع الطواسين (طاسين السراج) والفصوص (الفص الشيثى)

رابعا — في الفرق بين الذات الالهيـة على ما هى عليه والذات كما ندركها ونصفها — فابن العربى مثلا يفرق بين نوعين من التنزيه — التنزيه الذى للحق فى ذاته وهذا لا سبيل للعقل الى ادراكه — والتنزيه الذى نصف به الحق لنفرق بينه و بين الممكنات وهـذا النوع من التنزيه فى نظره عين التشـبيه لأنه تقييد والتقييد تشبيه . يقول ابن العربى فى فصوصه « اعلم أن التنزيه عند أهل الحقائق فى الجناب الالهى عين التحـديد والتقييـد » [١] لأنه يقتضى على الأقل وجود شخص منزّه وهذا تحديد للحق الذى المنزه صورة له ؛ هذا من جهة ومن جهـة أخرى فان اطلاق أى صفة على موصوف (حتى ولو كانت الصفة هى التنزيه) تقييد للشىء الموصوف [٢] وهو بمثل هذا يفرق بين الوحدة التى عليها الحق فى ذاته والتوحيد الذى يصف الانسان به الحق متبعا فى ذلك رأى الحلاج الذى يقول ,, التوحيد صفة الموحّد لا صفة الموحَّد ،، [٣] ويقصد بالتوحيد هنا التوحيد الذى يحمله العقل على الحق لا التوحيد الذاتى للحق — وابن العربى يستعمل التنزيه ويريد به التوحيد هذا — فالله منزه تنزيها حقيقيا على هذا الاعتبار أى ان له ذاتا واحدة مطلقة هى بطبيعتها وحـدة غير متـكثرة — أما التنزيه الذى يقول به الفلاسفة كصفة يصفون بهـا الحق فهو عين التقييد والتحـديد وشر من التقييد والتحديد وهـذا هو الذى يعنيه الحلاج بقوله أنه صفة للموحّد لا الموحَّد أى انه لا يشرح ماهية الموحَّد وانما يظهر لنا عقلية الموحـّد .

خامسا — فى العالم المحسوس (بما فيه الانسان) وأنه عين الحجاب على نفسه وهى مسألة يظهر ان ابن العربى أخذها عن الحلاج برمتها . يقول الحلاج ,, سبحان من حجبهم بالاسم والرسم والوسم . . . . الخ [٤] ويقول .

(١) فصوص ص ٧٠

(٢) فصوص ص ١٩٣

(٣) طواسين ص ٥٨

(٤) طواسين ٧٣

بيني وبينك اني ينازعني فارفع بفضلك انى من البين [1]

وهو يعنى بالان هنا الوجود الظاهرى الذى يعده عقبة بينه وبين ربه لأن الشعور به معناه اثبات وجودين وجوده ووجود الحق وهو لا يريد أن يشعر الا بوجود واحد هو وجود الحق — لذلك كان الانّ حجابا يطلب من الله رفعه وازالته — وهذه حالة يمكن تحليلها تحليلا نفسيا ولا دخل لعقيدة وحدة الوجود فيها — فالحلاج محب يغالبه الشعور بنفسه وشخصيته وهو يريد أن تفنى شخصيته عند مناجاته لمحبوبه بحيث لا يصبح له شعور الا بهذا المحبوب — فهو يغار على محبوبه حتى من نفسه .

أما ابن العربى فيأخذ هذا المعنى ويصبغه بصبغة وحدة الوجود كعادته لأنه لا يتألم من وجود الشعور بالانّ ويعده حائلا بينه وبين الشعور بالحق كما فعل الحلاج بل يقول ان الانّ عين الحجاب لأنه يخفى الذات التى الانّ (الصورة الظاهرة) مظهر لها — فلا يجب أن ننظر الى الخلق ونلهو به عن الحق أو الى الحق ونلهو به عن الخلق اذ الحق والخلق — الذات والانّ — شيء واحد والانّ يخفى الذات كما تخفى الصورةُ الهيولى.

سادسا — فى نظريتهما فى الحب الالهى الذى هو أصل كل حب — وهو الحب القديم المشار اليه فى الأثر الذى أجمع متصوفوا الاسلام على عده حديثا نبويا وهو قوله تعالى ,, كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبه عرفونى ،، : ألا ان الفرق كبير بين وجهتى نظر الحلاج وابن العربى : اذ الحلاج حلولى متأثر الى حد بعيد بالفلسفة المسيحية يعتقد باثنينية المحب والمحبوب — الناسوت واللاهوت — ولكنه يعتقد أيضا أن اللاهوت يمكن حلوله (من غير امتزاج) فى الناسوت تحت ظروف خاصة ويشير الى ذلك فى أبياته المأثورة عنه .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا .

(1) Quatre Textes Relatif à Al Hallaj. ed. Massignon P. 80.

فاذا أبصرتنى أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا [١]

وهذه هى حالة ,, الفناء ،، التى فيها ينخلع عن العبد صفات العبودية و يحل محلها صفات الربوبية من غير مزج . يقول الحلاج « من ظن أن الالهية تمتزج بالبشرية والبشرية بالالهية فقد كفر فان الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ولا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه » [٢]. و يقول فى موضع آخر « مع أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيتك غير ممازجة ،، [٣].

أما ابن العربى فيعتقد بوحدة المحب والمحب و يتفق مع الحلوليين فى أساليبهم ولكنه يختلف عنهم فى تأويل ظاهرة الاتحاد — فليس فى نظره فرق بين اللاهوت والناسوت الا بالاعتبار لأنه لا ينظر اليهما كوعاءين يصب أحدهما فى الآخر من غير مزج بل كحقيقة واحدة اذا نظرت اليها من وجه سميتها لاهوتا وربا ومحبوبا ، ومن وجه آخر سميتها ناسوتا وعبدا ومحبا — وهو يشير فى كثير من المواضع فى فتوحاته الى نظرية الحلاج و يقتبس من اشعاره [٤] ولكنه يؤولها بما يتفق مع روح مذهبه كما أسلفنا : فهو اذن متأثر بالحلاج فى أسلوبه ونزعته لافى عقيدته وهو أشبه باسبنوزا الذى يقول فى هذا المعنى ,, اننا نحب الله حبا أزليا لأن حبنا لله انما هو حبه لنفسه فى صورتنا ؛ كما أن معرفتنا بالله أزلية لأن ادراكنا له انما هو ادراكه لنفسه فى صورتنا ،، [٥].

سابعا — فى الفرق بين المشيئة والارادة .

يفرق ابن العربى بين المشيئة الالهية والارادة الالهية — فالمشيئة عنده شىء أشبه ,, بالعقل ،، الموجود فى جميع الأشياء أو القوة الالهية التى يقضى الله بها على

---

(١) طواسين ص ١٣٤

(٢) Quatre Textes Relatif A. Hallaj P. 69

(٣) Quatre Textes Relatif A. Hallaj P. 51

(٤) راجع مثلا الفتوحات ج ٢ ص ٤٤٥ و ح ٣ ص ١٥٥

(٥) Joachim's Study in Spinoza's Ethics P. 305

الأشياء أن تكون على ما هى عليه - فهى بلغة التوحيد "القدر"، وربما وصفها بعض العلماء الحديثين بأنها مجموعة القوانين الكامنة فى طبيعة الأشياء والتى يصدر عنها جميع الظواهر فى العالم الخارجى. فالمشيئة عنده ليست ضربا من الارادة أو اسما آخر لها - بل هى الذات الالهية نفسها لأنه يطلق عليها اسم "الوجود"[١] ويوافق أبا طالب المكى على تسميتها "عرش الذات"[٢].

أما الارادة فهى القوة الالهية التى هى اداة الخلق - ومعنى الخلق عنده خروج أعيان الممكنات من عالم الثبوت الى عالم الظهور: أو من القوة الى الفعل - فكون الشىء له وجود (بالقوة أو الفعل) من عمل المشيئة - ولكن كونه موجودا فى العالم الخارجى أو غير موجود من عمل الارادة - أى ان ظهور بعض الأشياء والأفعال فى العالم الخارجى وعدم ظهور البعض الآخر يتوقف على أن الله يريد هذا الظهور أو لا يريده وهذا هو المشار اليه «بالزيادة» «والنقص» فى قول ابن العربى:

يريد زيادة ويريد نقصا   وليس مشاؤه الا المشاء[٣]

وقد أخذ ابن العربى هذه التفرقة بين الارادة والمشيئة من الحلاج ولو أن تصور الحلاج للمشيئة يختلف بعض الاختلاف عن تصور ابن العربى لها لأنها عنده أشبه بالعقل الأول فى مذهب أفلوطين.

وهو متأثر بالحلاج أيضا فى شرحه للعلاقة التى بين الارادة (بهذا المعنى) والأمر الالهى (الأمر التكليفى) لأنه يعتقد أن الأشياء توجد والأفعال (الانسانية وغير الانسانية) تصدر عن الارادة الالهية بالرغم من أن بعضها - وهى أفعال الشر - يخالف الأمر الالهى - وهذا نص عبارته فى الفصوص: «فيجرى الأمر من العبد بحسب ما تقتضيه ارادة الحق وتتعلق ارادة الحق به

---

(١) فتوحات ج ٤ ص ٥٥ س ٦ من أسفل

(٢) فتوحات ج ٢ ص ٥١ س ٣ من أسفل؛ قارن فتوحات ج ٣ ص ٦٢ وج ٤ ص ٥٥

بحسب مايقتضى به علم الحق ويتعلق علم الحق به على حسب ماأعطاه المعلوم من ذاته فما ظهر — أى المعلوم — الا بصورته . . . . . . فينظر فى أمره تعالى (الأمر التكليفى) وينظر فى ارادته تعالى فيراه قد أمره بما يخالف ارادته ولا يكون ألا ما يريد . . . . فأراد الأمر فوقع وما أراد وقوع ما أمر به بالمأمور فلا يقع من المأمور فسمى مخالفة ومعصية » (١) أى ان المعصية واقعة بحسب « الأمر التكوينى » (وهو الارادة الالهية) وان خالفت « الأمر التكليفى » الذى يأتى به الشرع ولا مناص من وقوعها وكذلك الامور التى تواضع الناس على تسميتها شرا — ولذلك يعتقد كل من ابن العربى والحلاج ان معصية ابليس وفرعون (اللذين يقول الحلاج فيهما أنهما كانا من أهل الفتوه) كانت بمقتضى الارادة الالهية بالرغم من مخالفتها الأمر الالهى — وأن دعوى فرعون فى قوله ,, أنا ربكم الأعلى ،، (٢) أتت مطابقة لارادة الله كدعوى الحلاج فى قوله ,, أنا الحق ،، .

يقول الحلاج تناظرت مع ابليس وفرعون فى الفتوة فقال ابليس ,, أن سجدت سقط عنى اسم الفتوة ،، وقال فرعون ,, ان آمنت برسوله سقطت من منزلة الفتوة ،، وقلت أنا (الحلاج) ان رجعت عن دعواى وقولى (وهو أنا الحق) سقطت من بساط الفتوة ،، (٣) .

ثامنا — فى استحالة معرفة الحق على ما هو عليه — مع فرق بينهما فى ماهية الحق (٤) .

تاسعا — فى أن للقرآن ظاهرا و باطنا وهو رأى يقول به كل الباطنية ألا ان الذى يلفت نظرنا هنا اتفاق ابن العربى والحلاج فى تفسير معظم الآيات القرآنية واستعمالهما اصطلاحات خاصة لا أعرفها لغيرهما : مثلا .

---

(١) فصوص ص ١٦٤
(٢) قرآن كريم سورة ٧٩ آية ٢٤
(٣) طواسين ص ٥٠
(٤) راجع طواسين ص ٧٠ — ٧٢

(ا) الآية ,, فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ،، [١] يقول الحلاج معنى قتل النفس هنا الفناء عنها وعن كل ما عدا الحق حتى يرجع المعدوم (الانسان) الى عدمه و يبقى الحق وحده [٢] .

وهذه الآية نفسها يؤولها ابن العربى بمثل هذا المعنى غير انه يشرح الفناء شرحا يتمشى مع مذهبه فى وحدة الوجود .

(ب) الآية ,, الله لا اله الا هو الحى القيوم الخ ،، [٣] فانهما يتفقان فى شرح كلمة قيوم .

(ج) الآية ,, انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال الخ ،، [٤] فان الحلاج يفسر الأمانة هنا بالناحية الالهية من الانسان [٥] و يفسرها ابن العربى بالصفات الالهية التى تتجلى فى الأنسان الكامل والتى من أجلها سمى الانسان الكامل بخليقة الله .

(د) الآية ,, ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ،، [٦] . يقول الحلاج هذه اشارة الى مقام الجمع [٧] وهو بعينه ما يعنيه ابن العربى بقوله ,, ان الحقيقة المحمدية من مقام الجمع ،، الخ الخ .

و يكفى هذا القدر فى ايضاح العلاقة الروحية بين ابن العربى والحلاج ومقدار تأثره به . نعم ليس هناك من شك فى أن الحلاج ينتمى الى طبقة من الصوفية غير تلك التى ينتمى اليها ابن العربى ولكنه وجد فى كثير من عبارات الحلاج تربةخصبة صالحة استنبت فيها بذور مذهبه فى وحدة الوجود — فهو يغير و يحور

---

(١) قرآن كريم سورة ٢ آية ٥١

(٢) Hallajian Texts ed. Massignon in his Lexique de la Mystique P. 24.

(٣) قرآن كريم س ٢ آية ٢٥٦

(٤) » » » ٢٣ آية ٧٢

(٥) Hallajian Texts, op. cit. P. 55-6.

(٦) قرآن كريم س ٤٨ آية ١٠

(٧) Hallajian Texts, op. cit. P. 61.

من عبارات الحلاج - التى لا تكلفه كبير عناء فى التغيير والتحوير - حتى تظهر له فى صورة خاصة فيأخذها ويحكيها فى مذهبه كأنه أول قائل بها .

ولا أعنى بهذا أن ابن العربى كان من اتباع الحلاج ولا على طريقته أو مذهبه الفلسفى - ان كان للحلاج مذهب فلسفى - ولكنى أقول ان الحلاج كان من أكبر المصادر التى انتفع بها ابن العربى فى تغذية مذهبه

وهناك طائفة أخرى من متصوفى الاسلام غير الحلاج كان لهم بعض الأثر فى تصوف ابن العربى وفلسفته - ألا انهم لبعد نزعتهم من نزعته لم يكن بينه وبينهم ذلك الاتصال الروحى الذى كان بينه وبين الحلاج - لذلك هو يكتفى بذكر أسمائهم أو الاشارة الى بعض أقوالهم اشارة قصيرة غير شافية ولا موضحة لآرائهم وغالبا لا يعدو ذكره لهم شرح بعض الفاظهم ومن هؤلاء أبو يزيد البسطامى الذى يذكره ابن العربى فى أكثر من مائة موضع فى الفتوحات المكية والجنيد البغدادى والشبلى والتسترى وعبد القادر الجيلانى وتلميذه أبو السعود بن الشبل ومحمد بن عبد الجبار النفرى وأبو حامد الغزالى وغيرهم .

تأثير المتكلمين فى مذهب ابن العربى :

سبق ان ذكرنا ان مذهب ابن العربى متأثر فى ناحيته الشكلية (المنطقية) بأسلوب المتكلمين كما انه متأثر فى ناحيته الصوفية بعبارات الحلاج وفى ناحيته الفلسفية بالأفلاطونية الجديدة (Neo-platoniom) التى عرفها عن طريق اخوان الصفا وقد شرحنا علاقة هذا الفيلسوف المتصوف بالمصدرين الأخيرين ونشرع الآن فى شرح علاقته بالمصدر الأول : ويظهر انه كان على علم تام بمذاهب المتكلمين وأساليبهم وطرق جدلهم كما هو واضح من مناقشته لآرائهم [1]

---

(١) راجع الفتوحات جـ ١ ص ٤٩ و ٥٠ - ٥٨ و ١٠٠ و ١٥٥ - ١٥٦ و ٢٠٧ و ٢٤٦ و ٢٦٠ و ٢٦٦ و ٣٤١ و ٣٧١ و ٣٩٠ و ٤٤٥ و ٦٧٥ و ٧٤٧ و ٧٤٩ جـ ٢ ص ٥ و ١٠ و ١٣ و ٢٤٣ و ٣٠٦ و ٣٢٣ و ٥٢٧ و ٥٧٠ و ٦٢٩ و ٦٧٦ و ٦٨٩ و ٧٠٣ و ٨١٨ و ٨٤٥ و ٨٤٩ و ٨٥٣ و ٨٨١ و ٨٨٦

الا انه لا يتبع فرقة خاصة من فرقهم بل يأخذ برأى الأشاعرة فى مسألة ويرى رأى المعتزلة فى مسألة أخرى وأحيانا يأخذ بطرف من الاثنين محاولا التوفيق بينهما وهكذا. وربما كان تأثره بأساليب المتكلمين وطريقتهم فى عرض المسائل أعظم من تأثره بمذاهبهم وآرائهم — الا انه لا يستعمل هذه الأساليب وهذه الطرق الجدلية كما يستعملها المتكلمون بل يمزجها الى حد كبير بشىء من التصوف كعادته ويدخل عليها عناصر خيالية غريبة تعطيها لونا خاصا.

واننا لو نظرنا الى رأيه فى الوحدة والكثرة الذى هو لب مذهبه فى « وحدة الوحدة » لالفيناه فى ناحية من نواحيه صورة أخرى لمذهب الأشاعرة فى الجوهر والاعراض — فان الأشاعرة كانوا يقولون أن العالم كله واحد بالجوهر كثير بالأعراض وأنه مؤلف من جواهر بسيطة أو أجزاء لا تتجزأ (وهو رأى قال به من قدماء اليونان ديموقريطس آخر الفلاسفة الطبيعيين) ويقولون أن الجواهر لا وجود لها الا بالأعراض (كما أن الأعراض لا قوام لها بدون الجواهر) وهى فى حالة تغير وتبدل مستمرين بحيث اذا عدمت عدم بعدمها الجواهر — وليس للجواهر والأعراض وجود الا فى لحظات متجددة. فأصل جميع ظواهر الكون (سواء أكانت مادية أو عقلية) فى نظرهم هو هذه الجواهر الفردة التى هى أشبه شىء بما يسميه ليبنتز « Monads »

ويجب أن نتذكر دائما أن نظرية الأشاعرة هذه انما هى نظرية لهم فى العالم — أو فى الأجسام وأنها لم تدفع بهم الى انكار خالق للعالم مخالف له فى ذاته وصفاته.

أما ابن العربى فيتفق معهم فى جميع تفصيلات مذهبهم تقريبا الا أنه يخالفهم فى ناحية جوهرية هى بيت القصيد وذلك أنه يسمى الجوهر العام الذى تتألف

جـ ٣ ص ٢٢ و ٦١ و ١٠٨ و ٢٨٠ و ٣٦٤ و ٥٢٧ و ٦١١ و ٦٤٢ و ٧٠١
جـ ٤ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ الخ الخ
راجع أيضا الفصوص ٢٢٧ — ٢٣٠

منه سائر الجواهر والذى هو أصل جميع المظاهر الكونية بالذات الألهية ويطلق على المظاهر الكونية التى هى الممكنات الوجودية اسم الأعراض ويسمى التغير الدائم المستمر الذى ينتاب الجوهر لاختلاف الأعراض عليه باسم الخلق الجديد فهو أخذ من الأشاعرة صورة لمذهبهم الأغريقى الأصل وملأ تلك الصورة بمادة من عنده تلائم روح مذهبه هو [1].

ثانيا — ومن آراء المتكلمين التى تأثر بها ابن العربى قول المعتزلة فى الصفات وأنها عين الذات وهو قول أخذ تفاصيله عن ابن قسِى صاحب كتاب خلع النعلين فهو لا يوافق الأشاعرة على قولهم ان الصفات الألهية ليست بالذات ولا غيرها.

ثالثا — وهو يميل فى مسألة القدر الى رأى الأشاعرة الذين يقولون ان الانسان فى استطاعته أن يفعل الفعل ولكنه لا يفعله لأن الله هو الخالق للانسان وجميع أفعاله — وقد شرحنا معنى الخلق والخالق فى نظر ابن العربى فلا داعى لاعادته — أما الاستطاعة التى يتكلم عنها فهى استطاعة معطلة أذ ليس للانسان ولا لله نفسه فى نظره أن يغير مما عليه الأشياء.

والآن نختتم هذا الموضوع بذكر عنصرى القرآن والحديث اللذين أدخلهما ابن العربى الى مذهبه تتمة لصورته وشكله وانّ كان مذهبه فى الحقيقة فى غنى عنهما.

عنصرا القرآن والحديث فى مذهب ابن العربى :

لا يكاد الانسان يقرأ لابن العربى موضوعا من الموضوعات من غير أن يجد فيه استنادا الى آية من آيات القرآن أو حديث من الأحاديث سواء أكان لهما علاقة بموضوعه أم لم يكن ولم أجد من بين فلاسفة الاسلام ولا متصوفيهم من وهب موهبته فى التحايل على فهم نصوص القرآن والحديث وقلب معانيها

---

(١) راجع مناقشته لمذهب الأشاعرة والحسبانية (السوفسطائيين) فى الفصوص ص ٢٢٧ — ٢٣٠.

وتوجيهها أى جهة يريدها — فهو يذكرنا بفيلون (Philo) فى محاولته تفسير نصوص التوراة تفسيرا فلسفيا لا تحتمله ألفاظها.

ومن الغريب أن ابن العربى ينكر التأويل ولا يقول به ولكن انكاره هذا نظرى محض لأنه بالفعل يؤول كغيره الا أن طريقته فى تأويل القرآن وفهم آياته شر على القرآن من أى نوع من التأويل نعهده — اللهم الا تأويل ابن حزم الظاهرى الذى يعد بحق أستاذ ابن العربى فى هذه الطريقة — فانه لا يألوا جهدا فى فهم القرآن كما يريد وكما توحى اليه عقيدته فى وحدة الوجود ولو كلفه ذلك شططا وخروجا على أبسط القواعد اللغوية وأظهر العقائد الدينية — واننا غالبا ما نجد نصوص القرآن الكريم قد تحولت أمام أعيننا الى نصوص فى الفلسفة الارسطاطاليسية أو الأفلاطونية الجديدة أو نصوص فى المذاهب الكلامية أو غيرها ولا نكاد نجد فيها شيئا من القرآن كما نعلمه ونفهمه . والحق أن ابن العربى كان يستطيع الوصول الى النتيجة التى وصل اليها لو كان شرح التوراة أو الانجيل أو أى كتاب آخر سماوى أو غير سماوى واستعمل هذه الطريقة التى بها شرح نصوص القرآن — ولكنه لجأ الى القرآن والحديث ففسرهما بهذه الطريقة ولم يجهر بعقائده عارية مجردة عن أى استناد اليهما ليقنّع مذهبه بقناع اسلامى ظاهرى يتقى به لعنات الذين كانوا يتهمونه بالكفر والزندقة ولئلا يلقى حتفه على أيديهم ويصير أمره الى ماصار اليه أمر الحلاج والسهروردى وغيرهم . يحاول ابن العربى أن يجد مبررا لما يقول فى القرآن أو الحديث ليؤيد به مذهبه فى وحدة الوجود — فان أسعفه ظاهر اللفظ أخذ به والا أوله بطريقته الخاصة — ولا شك أن القرآن يجمع بين دفتيه نوعين من الآيات — الأولى ما يشعر ظاهرها بالتشبيه أو التجسيم لو أخذت على ظاهرها كما هى والثانية ما تدل على التنزيه — لأن القرآن بينا تراه يصف الله تعالى بأنه مخالف للحوادث منزه عن صفاتها — ليس كمثله شىء الخ — تراه يصفه بأنه السميع البصير وبأن له يدا ووجها وبأنه فى السموات وفى الأرض وفى كل مكان وبأنه معنا أينما كنا وأنه

أقرب الينا من حبل الوريد وأنه الخالق لنا ولأفعالنا وأنه العلة فى كل ما كان أو هو كائن أو سيكون .

أما آيات التنزيه فيعتبرها ابن العربى وصفا لله من حيث هو فى ذاته الواحدة المطلقة التى لا تدركها الأفهام - أو بعبارة أخرى هى وصف للعين الواحدة التى هى أصل لجميع المظاهر الكونية فى العالم الخارجى .

وأما الآيات المشعرة بالتشبيه فيعتبرها وصفا لله لا من حيث ما هو عليه فى ذاته بل من حيث ظهوره فى صور الممكنات المتعددة الكثيرة - فهو سميع و بصير وهو له وجه ويدان ورجلان الخ لا بمعنى أن له سمعا و بصرا و وجها ويدين ورجلين مثل ما لنا كما قال المجسمون - ولا بمعنى أن له هذه كلها « بلا كيف » كما قال بعض المتكلمين ولكن بمعنى أنه الظاهر بصورة كل ما يسمع ويبصر و بصورة كل ما له وجه ويدان ورجلان الخ - أى أن التشبيه والتنزيه فى نظره صفتان تعبران عن جهتى حقيقة واحدة اذا نظرت اليها من وجه قلت بالتشبيه ومن وجه آخر قلت بالتنزيه .

والآن نذكر على سبيل الايضاح بعض الآيات القرآنية التى يستشهد بها ابن العربى فى تأييد آرائه والطريقة التى بها يؤول هذه الآيات فيخرجها عن معانيها الأصلية .

(١) الآية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » [١] فهو يفهم من الحق هنا الله أى حتى يظهر لهم أن مافى الآفاق وما فى أنفسهم من الآيات انما هى مظاهر وصور للحق (الله) [٢] .

(٢) الآية « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة » الخ [٣] يفسر النور هنا بالذات وكذلك يفسر الوجه بالذات فى قوله تعالى « كل شىء

«١» قرآن س ٤١ آية ٥٣

«٢» فتوحات ج ٤ ص ١١٧

«٣» قرآن س ٢٤ آية ٣٥

هالك الا وجهه » [١] — وليس الهلاك الفناء والعدم بل تحول الصور وتغيرها على الذات (المشار اليها بالوجه) الباقية الدائمة .

(٣) الآية « وعلم آدم الأسماء كلها » [٢] يقول المراد بآدم هو الانسان الكامل وعلم الله آدم الأسماء كلها أى أظهر فيه الصفات والكمالات الالهية التى من أجلها صحت له الخلافة .

(٤) الآية « اهدنا الصراط المستقيم ،، [٣] . يقول المراد بالصراط المستقيم هنا صراط الذات الذى الكل فيه سواء — ولما كانت الذات الالهية هى الأصل الذى جميع المعبودات مظاهر له قال ابن العربى بوحدة الأديان جميعها لا فرق فيها بين وثنية وغير وثنية لأنه يقر الوثنى على عبادته على شريطة أن يعتقد أن معبوده من حجر أو شجر الخ انما هو مجلى أو مظهر للحق لا على أنه هو الحق وأن لا حق غيره — لذلك يعنى بالصراط المستقيم صراط الدين العام الذى هو أصل جميع الأديان — وهو فى الواقع دين ،، وحدة الوجود ،، .

(٥) الآية ،، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ،، [٤] . يقول المراد بجنتى هنا سترى أى ناسوتى فهى مشتقة فى نظره من جن بمعنى ستر أى ان الله يخاطب النفس الانسانية التى هى صورة من صور الذات الالهيــة أن تظهر فى صورة الانسان لتظهر كمالاته .

ومن هذا النوع من التعسف فى التفسير قوله أن جهنم معناها البعد أى بعد العبد من ربه باعتقاده ان هنــاك فرقا بين الذات والصورة أو بين الحق والخلق — هذا هو معنى جهنم — وقوله معنى الريح الراحة والعذاب العذوبة — ويوم الحسرة أى يوم الكشف من حسر بمعنى كشف أى اليوم الذى فيه تظهر

«١» قرآن س٢٨ آية ٨٨

«٢» قرآن س ٢ آية ٢٩

«٣» قرآن س ١ آية ٦

«٤» قرآن س ٨٩ آية ٣٠

الذات الالهية وتتجلى فى عموميتها وفيه تتبين كل صورة مكانها من هذه الذات وتفسيره الحشر بمعنى جمع الصور فى الذات الواحـدة والمتقين بمعنى الواقين أى الذين يعدون الله وقاية لهم لأنه عين ذاتهم والذات وقاية للصورة وهكذا :

المراجع

(١) كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين بن العربى ج ١، ٢، ٣، ٤ طبعة القاهرة سنة ١٢٩٣ هـ

(٢) كتاب الفصوص له شرح القاشانى القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ

(٣) شرح أسماء الله الحسنى لابى الحكم بن برجان
M.S. Brit. Mus. Or 411

(٤) لسان الحق المبثوث فى الأمر والخلق لابن برجان
M.S. Paris (Arabe 2642)
ويظهر أن هذا الكتاب هو بعينه شرح أسماء الله الحسنى المتقدم الذكر وان كان بروكلمان يذكرها ككتابين مستقلين[1].

(٥) تفسير للقرآن — لابن برجان الموجود منه الجزء الثانى
M.S. Munich Cod. 83

(٦) رسالة لابن سبعين كتبها للامبراطور فردريك الثانى.
(Jour. Asiatique Series VII Vol. 14, year 1879).

(٧) رسائل اخوان الصفاج ١ و ٢ و ٣ و ٤ طبعة بومباى سنة ١٣٠٥ هـ.

(٨) روضة الافراح للشهرزورى
(Extracts pub. by A. Palacios in his "Abenmasarra". Append IV P. 146.

(٩) حكمة الاشراق للسهروردى طبعة الهند سنة ١٣١٥ هـ.

---

(1) Brock. Vol I. p. 434

(١٠) بغية الملتمس للضبى
(١١) التكملة لابن الأبار — ed Codera
(١٢) الصلة لابن بشكوال
(١٣) تاريخ علماء الأندلس للفرضى

(١٤) الفصل لابن حزم ج ١ و ٢ و ٣ و ٤ .

(١٥) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ و ٢ — ed Cureton

(١٦) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعه .

(١٧) تاريخ الحكماء للقفطى .

(١٨) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(١٩) مطمح الانفس لابن خاقان : القسطنطينية سنة ١٣٠٢ ه .

(٢٠) قلائد العقيان " "

(٢١) نفح الطيب للمقرى ج ١ .

(٢٢) Almoravides en Espana
(٢٣) Tawasin by Hallaj ed. Massignon
(٢٤) Passion del Hallaj by Massignon
(٢٥) Lexique de la Mystique by Massignon
(٢٦) Quatre Textes Relatif A. Hallaj ed. Massignon
(٢٧) Studies in Islamic Mysticism by R.A. Nichalson.
(٢٨) Abenmasarra y su Escuela by Palacios
(٢٩) Translations into Spanish of autobiographical notes from Ibnul Arabi's رسالة القدس
(٣٠) Burnet's Early Greek Philosophy
(٣١) Christian Platonists of Alexandria by C. Bigg.
(٣٢) The Philosophy of Plotinus by Dean Inge vol. I v II
(٣٣) Ethical Treatises translated from Plotinus' Emeads vol. I to IV by S. Mackenna
(٣٤) The Works of Philo Judaeus vol. I to IV translated by C.D. Yonge.

عكاظ والمربد

لأحمد أمين

من أبعد الأماكن أثرا فى الحيـاة العربية عكاظ والمربد ، وقد كان أثرهما كبيرا من نواح متعددة : من الناحية الاقتصـادية ومن الناحية الاجتماعية ومن الناحية الأدبية ، ودراستهما تضىء لنا أشياء كثيرة فى تاريخ العرب .

ولـكن يظهر لى أنه لم يعن بهما العناية اللائقة ، فلا نرى فيما بين أيدينا — الا كلمات قليلة منثورة فى الـكتب يصعب على الباحث أن يصور منها صورة تامة أو شبهها ، ومع هذا فسنبدأ فى هـذه الـكلمة بشىء من المحاولة فى توضيح أثرهما وخاصة من الناحية الأدبية .

عكاظ

فى الجنوب الشرقى من مكة،وعلى بعد نحو عشرة أميال من الطائف ، ونحو ثلاثين ميلا من مكة ؛مكان منبسط فى واد فسيح به نخل و به ماء و به صخور ، يسمى هذا المـكان «عكاظ» ، و كانت تقام به سوق سنوية تسمى سوق عكاظ ، وقد اختلف اللغويون فى اشتقاق الـكلمة ، فقال بعضهم : اشتقت من ,, تعكظ القوم ،، اذا تحبسوا لينظروا فى أمورهم ، وقال غيرهم : سميت عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعـكظ بعضهم بعضا بالمفاخرة أى يعر كه و يقهره ، كما اختلفت القبائل فى صرفها وعدم صرفها ؛ فالحجازيون يصرفونها وتميم لا تصرفهـا ، وعلى اللغتين و رد الشعر :

قال دريد بن الصمة ,, تغيبت عن يومى عكاظ كليهما ،،

وقال أبو ذؤيب :

اذا بنى القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف

* * *

و كان للعرب أسواق كثيرة محليـة كسوق صنعاء ، وسوق حضرموت ،

وسوق صحار، وسوق الشحر، انما يجتمع فيها ـ غالبا ـ أهلها وأقرب الناس اليها.

و بجانب هذه الأسواق الخاصة أسواق عامة لقبائل العرب جميعا، أهمها: سوق عكاظ. وسبب عمومها وأهميتها على ما يظهر:

(١) أن موعد انعقادها كان قبيل الحج، وهى قريبة من مكة و بها الكعبة، فمن أراد الحج من جميع قبائل العرب سهل عليه أن يجمع بين الغرض التجارى والاجتماعى بغشيانه عكاظ قبل الحج، و بين الغرض الدينى بالحج.

(٢) ان موسم السوق كان فى شهر من الأشهر الحرم — على قول اكثر المؤرخين [١] ,, والعرب كانت (فى الشهر الحرام) لا تقرع الأسنة، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يهيجه تعظيما له، وتسمى مضر الشهر الحرام الأصم لسكون أصوات السلاح وقعقعته فيه [٢] ''، وفى انعقاد السوق فى الشهر الحرام مزية واضحة، وهى أن يأمن التجار فيه على أرواحهم، وان كانوا أحيانا قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام فاقتتلوا كالذى روى فى الأخبار عن حروب الفجار كما سيجىء، ولكن على العموم كان القتل فى هذا الشهر مستهجنا، قال ابن هشام: «أتى آت قريشا فقال: ان البراض قد قتل عروة وهم فى الشهر الحرام بعكاظ، الخ [٣] وقد قال ذلك استعظاما لقتله.

« فكان يأتى عكاظ قريش وهوازن وغطفان والأحابيش وطوائف من أفناء العرب » [٤] وكانت كل قبيلة تنزل فى مكان خاص من السوق، ففى الخبر أن رسول الله ذهب مع عمه العباس الى عكاظ ليريه العباس منازل الأحياء فيها [٥]

---

(١) الأشهر الحرم هى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

(٢) تفسير الطبرى ٢: ٢٠١ ولشدة تعظيمها له قيل له رجب مضر ولم يكن يستحله الاحيان خثعم وطيء — الازمنة والأمكنة ١: ٩٠.

(٣) سيرة ابن هشام طبع اوربا ١١٨.

(٤) الأزمنة والأمكنة طبع الهند للمرزوقى ٢: ١٦٥.

(٥) دلائل النبوة لأبى نعيم طبع الهند ص ١٠٥.

ويروى كذلك أن رسول الله جاء كندة فى منازلهم بعكاظ (١).

بل كان يشترك فى سوق عكاظ اليمنيون والحيريون ، يقول المرزوقى « كان فى عكاظ أشياء ليست فى أسواق العرب ؛ كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيد والحلة الحسنة والمركوب الفارة فيقف بها وينادى عليه ليأخذه أعز العرب ، يراد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته (٢) ». ويروى ابن الأثير عن أبى عبيدة « ان النعمان بن المنذر لما ملكه كسرى أبرويز على الحيرة كان النعمان يجهز كل عام لطيمة — وهى التجارة — لتباع بعكاظ ».

فترى من هذا أن بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها كانت تشترك فى سوق عكاظ .

واختلفت الأقوال فى موعد انعقادها ، وأكثرها على أنه فى ذى القعدة من أوله الى عشرين منه ، أو من نصفه الى آخره ، قال الأزرقى فى تاريخ مكة « فاذا كان الحج .... خرج الناس الى مواسمهم فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم بعكاظ والناس على مداعيهم وراياتهم منحازين فى المنازل تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ويجتمعون فى بطن السوق فاذا مضت العشرون انصرفوا الى مجنة فأقاموا بها عشرا ، أسواقهم قائمة فاذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز ثم الى عرفة وكانت قريش وغيرهما من العرب تقول لا تحضروا سوق عكاظ والمجنة وذى المجاز الا محرمين بالحج ، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يعدوا بعضهم على بعض فى الأشهر الحرم وفى الحرم (٣) .

* * *

---

(١) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ (٢) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٦٥ .
(٣) أخبار مكة للازرقى ص ١٣٢ .

وظيفته : — كان سوق عكاظ يقوم بوظائف شتى فهو — أول كل شيء — متجر تعرض فيه السلع على اختلاف أنواعها، يعرض فيه الأدم والحرير والوكاء والحذاء والبرود من العصب والوشي والمسير والعدنى [١] ويباع به الرقيق [٢] ويعرض فيه كل سلعة عزيزة وغير عزيزة ، فما يهديه الملوك يباع بسوق عكاظ [٣] ويتقاتل ابن الخمس مع الحارث بن ظالم فيقتله ابن الخمس ويأخذ سيف الحارث يعرضه للبيع فى عكاظ [٤] وعبلة بنت عبيد ابن خالد يبعثها زوجها بانحاء سمن تبيعها له بعكاظ [٥] .

ونسبوا الى عكاظ فقالوا أديم عكاظى أى مما يباع فى عكاظ [٦] .

ولم تكن العروض التى تعرض فى سوق عكاظ قاصرة على منتجات جزيرة العرب ، فالنعمان يبعث الى سوق عكاظ بمتجر من حاصلات الحيرة وفارس لتباع به ويشترى بثمنها حاصلات أخرى [٧] بل كان يباع فى عكاظ سلع من مصر والشام والعراق ، فيروى المرزوقى أنه قبل المبعث بخمس سنين حضر السوق من نزار واليمن مالم يروا أنه حضر مثله فى سائر السنين فباع الناس ما كان معهم من ابل و بقر ونقد وابتاعوا أمتعة مصر والشام والعراق [٨] .

وكان السوق يقوم بأعمال مختلفة اجتماعية ، فمن كانت له خصومة عظيمة انتظر موسم عكاظ « كانوا اذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى

---

(١) الاغانى ١٩ : ٧٣ ـ ٨٢

(٢) تاريخ الطبرى جزء ٣ ص ٢٢٩٨

(٣) الاغانى ١٠ : ٩

(٤) الاغانى ١٠ ص ٢٩

(٥) الاغانى ٢ : ٨٤

(٦) ما يعول عليه في المضاف والمضاف اليه نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٧٨ أدب

(٧) الاغاني ١٩ ص ٧٣ ـ ٨٢

(٨) الازمنة والأمكنة ٢ :١٦٨

يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول : الا أن فلان ابن فلان غدر فاعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا ، فان أعتب والا جعل له مثل مثاله فى رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم ، وهو قول الشماخ .

ذعرت به القطا ونفيت عنه ‏ ‏ ‏ مقام الذئب كالرجل اللعين

ومن كان له دين على آخر أنظره الى عكاظ [١] .

ومن كان له حاجة استصرخ القبائل بعكاظ كالذى حكى الأصفهانى أن رجلا من هوازن أسر فاستغاث أخوه بقوم فلم يغيثوه فركب الى موسم عكاظ وأتى منازل مذحج يستصرخهم [٢] .

وكثيرا ما يتخذ السوق وسيلة للخطبة والزواج فيروى الأغانى انه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ وقدم أمية بن الأسكر السكنانى وتبعته ابنة له من أجمل أهل زمانها فخطبها يزيد وعامر فتردد أبو هاشم ففخر كل منهما بقومه وعدد فعالها فى قصائد ذكرها [٣] .

ومن كان صعلوكا فاجرا خلعته قبيلته — ان شاءت — بسوق عكاظ وتبرأت منه ومن فعاله ، كالذى فعلت خزاعة ، خلعت قيس بن منقذ بسوق عكاظ ، واشهدت على نفسها بخلعها اياه ، وانها لا تحتمل له جريرة ، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه [٤] .

وقد يتفاخر الرجل من قبيلتين فيفخر كل بقبيلته ومكارمها فيتحا كما الى حكم عكاظ ، كما فعل رجل من قضاعة نافر رجلا من اليمن فتحا كما الى حكم عكاظ [٥] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١ : ٢٤٦

(٢) الأغانى ١٠ / ١٤٨ وما بعدها

(٣) انظر الحكاية بطولها فى الأغانى ١٠ / ١٤٥

(٤) الأغانى ١٣ ص ٢ وما بعدها .

(٥) أ[illegible]

ومن كان داعيا الى اصلاح اجتماعى أو داعيا دينيا كان يرى أن خير فرصة له سوق عكاظ ، والقبائل من أنحاء الجزيرة مجتمعة ، فمن قبل الدعوة كان من السهل أن يكون داعيا فى قومه اذا عاد اليهم ؛ فنرى قس بن ساعدة يقف بسوق عكاظ يدعو دعوته ويخطب فيها خطبته المشهورة على جمل له أو رق فيرغب ويرهب ويحذر وينذر .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتجه الى دعوة الناس بعكاظ لأنها مجمع القبائل ، روى الواقدى أن رسول الله أقام ثلاث سنين من نبوته مستخفيا ثم أعلن فى الرابعة فدعا عشر سنين ، يوافى الموسم ، يتبع الحاج فى منازلهم بعكاظ والمجنة وذى المجاز ، يدعوهم الى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحدا ينصره حتى انه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، حتى انتهى الى بنى عامر بن صعصعة فلم يلق من أحد من الأذى ما لقى منهم (١) وفى خبر آخر أنه أتى كندة فى منازلهم بعكاظ فلم يأت حيا من العرب كان ألين منهم (٢) وعن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج فى الموسم فيدعو القبائل فما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتى القبائل بمجنة وعكاظ ومنى حتى يستقبل القبائل ، يعود اليهم سنة بعد سنة ، حتى ان القبائل منهم من قال ما آن لك أن تيأس منا ، من طول ما يعرض نفسه عليهم ، حتى استجاب هذا الحى من الأنصار (٣) .

وروى اليعقوبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بسوق عكاظ عليه جبة حمراء فقال : يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا وتنجحوا ويتبعه رجل يكذبه وهو أبو لهب بن عبد المطلب (٤) .

---

(١) دلائل النبوة ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) ص ١٠٣ .
(٣) ص ١٠٥ .
(٤) اليعقوبى ١ ص ٢٣ و ٢٤ .

كذلك كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبى فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته اليها ويأتى التجار من مصر والشام والعراق [1] فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل وتقارب اللهجات واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه اليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شىء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية. وفوق هذا كانت عكاظ معرضا للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر « كانت بعكاظ منابر فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام الى عام فيما أخذت العرب أيامها وفخرها ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء توارثوا ... دمشق بملك كابرا بعد كابر
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا ... ملوكا بأرض الشام فوق المنابر [2]

فيقف اشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم . . فبدر بن معشر الغفارى . . . كان رجلا منيعا مستطيلا بمنعته على من ورد عكاظ فاتخذ مجلسا بسوق عكاظ وقعد فيه وجعل يبرح على الناس ويقول :

نحن بنو مدركة بن خندف ... من يطعنوا فى عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يغطرف ... كأنهم لجة بحر مسدف

فيقوم رجل من هوازن فيقول :

أنا ابن همدان ذو التغطرف ... بحر بحور زاخر لم ينزف
نحن ضربنا ركبة المخندف ... اذ مدها فى أشهر المعرف [3]

---

(١) يروون أن عبد الله بن جدعان أتى مصر فباع ما معه وعاد الى سوق عكاظ : انظر الاكليل للهمدانى جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .

(٢) الأزمنة والأمكنة ٢ : ١٧٠

(٣) الأغانى ١٩ ص ٧٤

وعمرو بن كلثوم يقوم خطيبا بسوق عكاظ وينشد قصيدته المشهورة :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا (١)

والاعشى يوافى سوق عكاظ كل سنة ، ويأتى مرة فاذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها فينشدهم الاعشى فى مدح المحلق (٢) والنابغة الذبيانى تضرب له قبة أدم بسوق عكاظ يجتمع اليه فيها الشعراء فيدخل اليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعا ويفاضل بينهم وينقد قول حسان ؛ .

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى

فيقول لحسان قللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر . وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقا (٣) .

ودريد بن الصمة يمدح عبد الله بن جدعان بعد أن هجاه فيقول :

اليك ابن جدعان أعملتها محففة للسرى والنصب (٤) الخ

وقس بن ساعدة يخطب الناس فيذكرهم بالله والموت خطبته المشهورة ورسول الله يسمع له (٥) والخنساء تسوم هودجها براية وتشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية وتنشد فى ذلك القصائد ، فلما وقعت وقعة بدر وقتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة أقبلت هند بنت عتبة الى عكاظ ، وفعلت كما فعلت الخنساء ، وقالت اقرنوا جملى بجمل الخنساء ففعلوا ، فعاظمت هند الخنساء فى مصيبتها وتناشدتا الأشعار تقول احداهما قصيدة فى عظم مصيبتها وترد الأخرى عليها (٦) . وعلى الجملة

---

(١) الأغانى ٩ ص ١٨٢

(٢) الأغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠

(٣) أغانى ٨ ص ١٩٤ ، ١٩٥

(٤) أغاني ٩ ص ١٠

(٥) أغانى ١٤ ص ٤١ و ٤٢

(٦) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

فكانوا فى عكاظ يتبايعون و يتعاكظون و يتفاخرون و يتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم وفى ذلك يقول حسان :

سأنشر ما حييت لهم كلاما　　ينشر فى المجامع من عكاظ

فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزا لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق كما كانت مركزا لحركة اجتماعية واقتصادية .

نظام سوق عكاظ :

كانت القبائل — كما أسلفنا — تنزل كل قبيلة منها فى مكان خاص بها ، ثم تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو فى الحلقات المختلفة . كالذى حكينا أن الأعشى رأى الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ، أو فى قباب من أدم تقام هنا وهناك ، و يختلط الرجال بالنساء فى المجامع ، وقد يكون ذلك سببا فى خطبة أو زواج أو تنادر [1] وكانت تحضر الأسواق — وخاصة سوق عكاظ — أشراف القبائل « وكان اشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل ان الملوك كانت ترضخ للأشراف لكل شريف بسهم من الأرباح فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، الا عكاظ فانهم كانوا يتوافون بها من كل أوب » [2] .

والظاهر أن المراد بالملوك هم الأمراء و رؤساء القبائل الذين يرسلون بضائعهم لبيعها فى أسواق العرب كملك الحيرة والغساسنة وأمراء اليمن ونحوهم — وكانت القبائل تؤتى لرؤسائها اتاوة فى نظير اقامتهم بالسوق ؛ فقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه أخبار أسواق كثيرة كان يعشرها أشرافها — أى يأخذون العشر [3] وفى عكاظ كانت القبائل تدفع لأشرافها هذه الاتاوة « فهوازن كانت تؤتى زهير بن جذيمة

«١» أنظر الأغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها و ج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها

«٢» الازمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٦

«٣» اليعقوبى جزء ٢ ص ٣١٣ وما بعدها

الاتاوة كل سنة بعكاظ ، وهو يسـومها الخسف وفى أنفسها منه غيظ وحقد »[١] وكانت الاتاوة سمنا وأقطا وغنما [٢] » وكان عبد الله بن جعدة سيدا مطاعا وكانت له اتاوة بعكاظ يؤتى بها ، ويأتى بها هذا الحى من الازد وغيرهم ، ومن هذه الاتاوة ثياب [٣] .

وكانت الاشراف تمشى فى هذه الأسـواق ملثمة » ولا يوافيها (عكاظ) شريف الا وعلى وجهـه برقع مخافة أن يؤسر يوما فيكبر فداؤه ، فـكان أول من كشف طريف العنبرى ، لما رآهم يطلعون فى وجهه و يتفرسون فى شمائله ،قال قبح من وطن نفسه الا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهم يتوسم
فتوسمونى اننى أنا ذلـكم شاكى السلاح وفى الحوادث معلم فى أبيات [٤]

وكان على سـوق عكاظ كلها رئيس اليـه أمر الموسم واليه القضاء بين المتخاصمين ،قال أبو المنذر وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان فى بنى تميم . . . . وكان من اجتمع له ذلك منهم بعد عامر بن الظرب العدوانى سعد بن زيد بن مناة من تميم وقد فخر المخبل بذلك فى شعره :

ليالى سعد فى عكاظ يسوقها له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الاسلام فـكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع [٥]

تاريخ عكاظ : —

من العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد فى ذلك خبرا يصح التعويل عليه ، يقول الألوسى فى بلوغ الأرب « انها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة

«١» الـكامل لابن الأثير ١ ص ٢٢٩
«٢» أغاني ١٠ ص ١٢
«٣» أغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها
«٤» الازمنة والأمكنة ٢ ص ١٦٦
«٥» أنظر تعداد من ولى عكاظ فى الأزمنة والأمـكنة ٢ ص ١٦٧

سنة » ولكن اذا بحثنا فى الأحداث التى رويت فى عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح فهم يروون — كما قدمنا — أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته فى عكاظ وعمرو بن كلثوم كان على وجه التقريب حول سنة ٥٠٠ م .

كذلك اذا عدنا الى ما رواه المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة عن رؤساء عكاظ وجدنا أنه عدهم قبل الاسلام عشرة أولهم عامر بن الظرب العدوانى . وهذا — من غير شك — يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسى بزمان طويل ، كذلك يروى الأغانى أن عبلة زوجة عبد شمس بن عبد مناف باعت أنحاء سمن بعكاظ [١] .

وظل سوق عكاظ يقوم كل سنة ، وكانت فيه قبيل الاسلام حروب الفجار ، وهى حروب أربع ، وكان سبب الأولى على ما يروى : المفاخرة فى سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ . وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع اذلاله فى سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر الى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض فى الطريق [٢] .

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبى وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى [٣] .

واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات . وقد كانت هناك نزعتان عند أشراف العرب نزعة قوم يقصدون الى السلب والنهب وسفك الدماء لا يصدهم صاد ، ولا يرعون حتى ولا الأشهر الحرم ، ويتحرشون بالناس ، فيمد أحدهم رجله فى سوق عكاظ ويتحدى الأشراف مثله أن يضربوها فتثور من ذلك الثائرة [٤] .

«١» أغانى ١ ص ٨٤ .

«٢» انظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى .

«٣» النهاية لابن الأثير مادة نجر .

«٤» الأغانى ٤ ص ١٣٦ .

وفريق يميل الى السلم ودرء أسباب الحروب ونجح التجارة والأسواق بتأمين السالكين وعدم التعرض لهم بأذى ، جاء فى تريخ اليعقوبى « أنه كان فى العرب قوم يستحلون المظالم اذا حضروا هذه الأسواق فسموا « المحلون » وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر فيسمون الذادة « المحرمون » فأما المحلون فكانوا قبائل من أسد وطيء وبنى بكر بن عبد مناة وقوم من بنى عامر بن صعصعة — وأما الذادة المحرمون فكانوا من بنى عمرو بن تميم وبنى حنظلة بن زيد مناة وقوم من هذيل وقوم من بنى شيبان ... فكان هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس[١] — .

وكان من أشهر الداعين للسلم عبد الله بن جدعان ، فقد كان اذا اجتمعت العرب فى سوق عكاظ دفعت أسلحتها الى ابن جدعان ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا وكان سيدا حكيما مثريا[٢] .

ويظهر أن أصحاب هذه النزعة الثانية وهم الذادة هم الذين سموا هذه الحروب حرب الفجار ، لما ارتكب فيها من الفجور وسفك الدماء ، وهم الذين تغلبوا فيما بعد ونجحوا فى وقف هذه الحروب «ودعوا الناس أن يعدوا القتلى فيدوا من فضل ، وأن يتعاقدوا على الصلح فلا يعرض بعضهم لبعض » وربما كان من أثر ذلك حلف الفضول ، وقد عقد فى بيت عبد الله بن جدعان هذا .

واستمرت عكاظ فى الاسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضيا لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم فى الجاهلية وصار ذلك ميراثا لهم[٣] .

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح ، فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقا للعرب خير من سوق عكاظ ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة

«١» اليعقوبى ٢ : ٣١٣ وما بعدها .

«٢» انظر الأغانى ١٩ ص ٧٣ وما بعدها .

«٣» الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها .

لقضاء أغراضهم فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ . ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية قال الكلبي « وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذى المجاز قائمة فى الاسلام حتى كان حديثا من الدهر ، فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف الأزدى الأباضى فى سنة تسع وعشرين ومائة ، خاف الناس أن ينهبوا وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن ، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى و بعرفة . . . . وآخر سوق خربت سوق حباشة خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخربها وتركت الى اليوم [١] .

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلى الذى كان فيه ما وصل الينا من شعر وأدب، وجرت فيها أحداث تتصل بحياة النبى صلى الله عليه وسلم قبيل مبعثه ، ومهدت السبيل قبيل الاسلام لتوحيد اللغة والأدب ، وعملت على ازالة الفوارق بين عقليات القبائل ، وقصدها النبى صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته ، وعاصرت الاسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموى ولكن كانت حياتها فى الاسلام أضعف من حياتها قبله ، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة أو بين المؤمنين والمشركين ، فلما فتحت الفتوح رأى العرب فى أسواق المدن المتحضرة فى فارس والشام والعراق ومصر عوضا عنها ، ثم كانت ثورة أبى حمزة الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى .

«١» أخبار مكة للأزرقي ص ١٣١ و ١٢٣ .

المربد

أما المربد — على وزن منبر — فضاحية من ضواحى البصرة ، فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقا للابل قال الأصمعى « المربد كل شىء حبست به الابل والغنم . . . . وبه سميت مربد البصرة ، وانما كان موضع سوق الابل[١] » وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج من البصرة اليها . ويظهر أنه نشأ سوقا للابل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه .

وقد كان العرب فى بادية العراق قبل الفتح الاسلامى ، ونزلت فيه قبائل من بكر وربيعة ، وكونوا فيه امارة المناذرة فى الحيرة ، فكان هذا الاقليم معروفا لهم قبل الاسلام ، وكانت الرحلات من البادية الى العراق ومن العراق الى البادية فى حركة مستمرة — ومعلوم أن البصرة انما خططت فى الاسلام فى عهد عمر ابن الخطاب ونزل بها العرب على منازلهم من يمنية ومضرية — ولكن يظهر أن المربد كان قبل أن تخطط البصرة ، وكان قبل الاسلام وربما فهم ذلك من قول الطبرى « بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان فقال له انطلق أنت ومن معك حتى اذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا . فأقبلوا حتى اذا كان بالمربد وجدوا هذا الكذان قالوا ما هذه البصرة »[٢] .

وقال فى اللسان — فى مادة ب ص ر — وقال ابن شميل البصرة أرض كأنها جبل من جص وهى التى بنيت بالمربد وانما سميت البصرة بصرة بها » .

ولكن أخباره فى الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدل على قلة أهميته اذ ذاك ، انما كانت له الأهمية بعد ان فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد ان كان مربدا للابل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين

«١» لسان العرب فى ر ب د ومعجم ياقوت فى مربد

«٢» تاريخ الطبرى ١ : ٢٥٦٦

البصرة [1] حتى قالوا فيه « العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة ودارين عين المربد» [2].

وقد كان المربد فى الاسلام صورة معدلة لعكاظ، كان سوقا للتجارة، وكان سوقا للدعوات السياسية، وكان سوقا للأدب—جاء فى كتاب ،، ما يعول عليه ،، المربد كل موضع حبست فيه الابل . . . ومنه سمى مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه — كان مجتمع العرب من الأقطار، يتناشدون فيه الأشعار، ويبيعون ويشترون وهو ،، كسوق عكاظ ،، وقال العينى ،، مربدالبصرة . . . . محلة عظيمة فيها (فى البصرة) من جهة البرية كان يجتمع العرب من الأقطار، ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون ،، [3].

وليس يهمنا هنا أثره التجارى وانما يهمنا الشئون السياسية والأدبية وهما مرتبطان بعضهما ببعض أشد الارتباط، فلا داعى للتفريق بينهما، فقد كانت الأحزاب السياسية تنتج أدبا من خطب وشعر وكانت الخطب والشعر تقوى الأحزاب السياسية وتساعد فى تكوينها والحروب بينهما.

المربد فى عصر الخلفاء الراشدين —

كانت أهم أخبار المربد فى ذلك العصر ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين الى البصرة، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل الى أهلها تدعوهم بدعوتها، وهى المطالبة بدم عثمان، و بعبارة أخرى الخروج على على، وكان معها طلحة والزبير ثم سارت الى المربد معهما وخرج اليها من قبل دعوتها، وخرج الى المربد كذلك عامل على على البصرة، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى من الحجاز ومن خرج من البصرة حتى ضاق المربد بمن فيه، ورأينا المربد مجالا للخطباء ممن

---

(١) معجم ياقوت فى مادة مربد .

(٢) عيون الأخبار ٢ . ٢٢٢

(٣) عقد الجمان مخطوط بدار الكتب جزء ٤ / ٩٣

يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا . وعامله . أصحاب عائشة فى ميمنة المربد وأصحاب على فى ميسرته ،ويخطب فى المربد طلحة ويمدح عثمان بن عفان ، ويعظم ما جنى عليه ويدعو الى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجهورى ويؤيدهم من فى ميمنة المربد ، ويقولون صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة فى أهل الميسرة فينحاز بعضهم اليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك يبينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما فى الخروج عليه ،ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلى وأمثاله (١) .

وهكذا ينتقل المربد الى مجمع حافل فيه الدعوات السياسية مؤيدة بالحجج والبراهين وفيه معرض البلاغة من خطب طويلة وجمل قصيرة متينة ، وفيه الجدل والمناظرة وبحث أهم الاحداث فى ذلك العصر ، وهو مقتل عثمان بن عفان، وتحديد المسئولية فى قتله — ولم تقد هذه الحرب اللسانية فانتقلت الى حرب بالسلاح وأصبح المربد ساحة للقتال .

المربد فى عهد بنى أمية —

كان العصر الأموى ازهى عصور المربد؛ ذلك لأن العرب كانوا قد هدءوا من الفتح واستقرت الممالك فى أيديهم ، وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة جاء فى الطبرى « ان عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجية وكان رسولا الى عمر من العراق فقال له عمر كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس فى البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة الى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ،ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة

---

(١) انظر القصة بطولها فى الطبرى جزء ١ ص ٣١٥٢ طبع أوروبا وفيه بعض ما قيل من الخطب فى المربد فى ذلك اليوم

تشبه حياة الجاهلية من مفاخرة بالأنساب وتعاظم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من احن ، فالفرزدق يقف فى المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية « حكى فى النقائض أن زياد بن أبى سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه ابلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد غليه مطرف خز كان عليه ، فقال قائل لشد ما عقدت على دراهمك هذه أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل فحلها ثم أنهبها وقال من أخذ شيئا فهو له و بلغ ذلك زيادا فبالغ فى طلبه فهرب .... فلم يزل فى هربه يطوف فى القبائل والبلاد حتى مات زياد [١] .

وكان الأمويون على وجه العموم — يعيشون عيشة عربية ويحتفظون بعربيتهم ، ان أخذوا شيئا من الحضارة صبغوه بصبغتهم وحولوه الى ذوقهم وكذلك فعل عرب البصرة ؛ أرادوا أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم من سوق عكاظ فى الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصبية الجاهلية، وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على احيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسيا ، فرأينا ظل ذلك فى الأدب والشعر ورأينا المربد فى العصر الأموى يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسى ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف لنا المربد أجل شعر أموى من هذا النوع — فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثرا من أثار المربد قيلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغانى أن جريرا والفرزدق اجتمعا فى المربد فتنافروا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل فى خبر طويل [٢] .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباسا خاصا ويخرج الى المربد ويقول

«١» النقائض ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

«٢» الأغانى ٤/ ١٣٢ .

قصائده فى الفخر والهجاء ، والرواة يحملون الى كليهما ما قاله الآخر فيرد عليه ، قال أبو عبيدة « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحا تاما وركب فرسا أعاره اياه أبو جهضم عباد بن حصين ، فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسوارا وقام فى مقبرة بنى حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما باشعارهما فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لراعى الضأن فى حطمية ... وفى الدرع عبد قد أصيبت مقاتله

ولما بلغ جريرا أن الفرزدق فى ثياب وشى قال :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة ... عليه وشاحا كرج وجلاجله [١]

وما زالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :

فما فى كتاب الله تهديم دارنا ... بتهديم ماخور خبيث مداخله [٢]

وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس يسمعون منه ، جاء فى الأغانى " وكان لراعى الابل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة " [٣] .

وكان الناس يخرجون كل يوم الى المربد يعرف كل فريق مكانه فيجلس فيه ينتظر شاعره ، فقد روى الأغانى أيضا أن جريرا بات يشرب باطية من نبيذ ويهمهم بالشعر فى هجاء الفرزدق والراعى فما زال كذلك حتى كان السحر وقد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير فلما ختمها بقوله .

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ثم أصبح حتى اذا عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد —

---

(١) النقائض ٦٢٤

(٢) النقائض ٦٨٣

(٣) أغانى ٧ / ٤٩

وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا فادهن وكف رأسه ودعا غلامه فأسرج له حصانا وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعى الابل(١)

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أعنى جريرا والفرزدق والأخطل طائفة أخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم ، فالعجاج الراجز يخرج الى المربد عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها ويقف بالمربد على الناس مجتمعين ، ويقول رجزه المشهور :

« قد جبر الدين الاله فجبر »

ويهجو ربيعة فيأتى رجل من بكر بن وائل الى أبى النجم ويستحثه على الرد عليه فيخرج أبو النجم الى المربد ويقول رجزه :

« تذكر القلب وجهلا ما ذكر »

ورؤبة الرجاز ينشد رجزه :

« وقاتم الأعماق خاوى المخترق »

ويجتمع حوله فتيان من تميم فيرد عليه أبو النجم فى رجزه

« إذا اصطبحت أربعا عرفتنى » (٢)

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وينشد ودموعه تجرى على لحيته :

« ما بال عينك منها الماء ينسكب » (٣)

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقدا شديدا ويسخف بعض تشبيهاته فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب الى المربد حتى يموت الخياط (٤) .

والأمراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء ، وقد يهيجون بعضهم على بعض خدمة لأغراض حزبية أو سياسية فعبد الملك بن مروان يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق . وعباد بن حصين — وكان على أحداث البصرة — يعين جريرا على الفرزدق ويعير جريرا الدرع والفرس والسلاح (٥)

---

(١) أغانى ٧ / ٥٠ .

(٢) انظر الأغانى ٩ ص ٧٨ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٦ / ١٢٣ .

(٤) أغانى ١٦ / ١١٣ .

(٥) انظر الكامل للمبرد .

وهكذا كان المربد فى العهد الأموي معهـدا كبيرا أنتج أدبا غزيرا من جنس خاص ، وكاد هذا الشعر يكون امتدادا للشعر الجاهلى ، لاتحاد الأسباب والبواعث فأما الشعر الغزلى كشعر عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فليس له كبير أثر فى المربد لأنه فوق النزال والمهاجاة والمفاخرة ، فليس مجاله حياة المربد التى وصفناها :

المربد فى العصر العباسى :

بقى المربد فى العصر العباسى ، ولـكنه كان يؤدى غرضا آخر غير الذى كان يؤديه فى العهد الأموى ، ذلك أن العصبية القبلية ضعفت فى العصر العباسى بمهاجمة الفرس للعرب ، وأحس العرب بما هم فيه جميعا من خطر من حيث هم أمة لا فرق بين عدنانيهم وقحطانيهم ، فقوى نفوذ الفرس وغلبوا العرب على أمرهم ، وبدأ الناس فى المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هى أقرب الى حياة الفرس من حياة العرب، وانصرف الخلفاء والأمراء عن مثل النزاع الذى كان يتنـازعه جرير والفرزدق والأخطل وظهرت العلوم تزاحم الأدب والشعر ، وفشا اللحن بين الموالى الذين دخلوا فى الاسلام ، وأفسدوا حتى على العرب الخالصة لغتهم ، فتحول المربد يؤدى غرضا يتفق وهذه الحياة الجديدة .

أصبح المربد غرضا يقصده الشعراء لا ليتهاجوا ، ولـكن ليأخذوا عن أعراب المربد الملكة الشعرية ، يحتذونهم ويسيرون على منوالهم ، فيخرج الى المربد بشار وأبو نواس وأمثالهما ، ويخرج الى المربد اللغويون يأخذون اللغة عن أهله ويدونون ما يسـمعون ، روى القالى فى الأمالى عن الأصمعى قال : « جئت الى أبي عمرو ابن العلاء فقال لى من أين أقبلت يا أصمعي قال جئت من المربد ، قال هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت فى ألواحى ، فمرت به ستة أحرف لم يعرفها ، فخرج يعدو فى الدرجة وقال « شمرت فى الغريب » أى غلبتنى » (١) .

والنحويون يخرجون الى المربد يسـمعون من أهله ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم ، فقد اشتد الخلف بين مدرسة البصرة ومدرسة الـكوفة فى النحو وتعصب كل لمذهبه ، وكان أهم مدد لمدرسة البصرة هو المربد ، وفي تراجم النحاة نجد كثيرا منهم من كان يذهب الى المربد يأخذ عن أهله . ويخرج الأدباء إلى المربد يأخذون الأدب ، من جمل بليغة وشعر بليغ وأمثال وحكم ، مما خلفه عرب البادية وتوارثوه

---

(١) الامالى ٣ ص ١٨٢ .

عن آبائهم ، كما فعل الجاحظ ، يقول ياقوت : إن الجاحظ أخذ النحو عن الأخفش وأخذ الكلام عن النظام وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد (١) .

وبذلك كان المربد مدرسة من نوع آخر تغير برنامجها في العصر العباسي عن برنامجها في العهد الأموي وأدت رسالة في هذا العصر تخالف رسالتها في العصر السابق

آخر الأخبار عن المربد :

في ثورة الزنج التي ظهرت في فرات البصرة والتي بدأت سنة ٢٥٥ هـ حدث قتال بالمربد بين الزنج وجيش الخليفة ، فاحترق المربد ، روى الطبري قال : يقول ابن سمعان : فاني يومئذ لفي المسجد الجامع اذ ارتفعت نيران ثلاث من ثلاثة أوجه : زهران والمربد وبني حمان في وقت واحد ، كأن موقديها كانوا على ميعاد ، وجل الخطب وأيقن أهل البصرة بالهلاك (٢) .

وتوالت فيه الحرائق وعوتب شاعر البصرة أبو الحصين بن المثنى على أنه لم يقل شيئا في حريق المربد ، مع أن المربد من أجل شوارعها ، وسوقه من أجل أسواقها فقال ارتجالا في آخر حريق لها .

أتتكم شهود الهوى تشهد ... فما تستطيعون أن تجحدوا
فيامربديون ناشدتكم ... على أنني منكم مجهد
جرى نفسي صاعدا نحوكم ... فمن أجله احترق المربد
وهاجت رياح حنيني لكم ... وظلت به ناركم توقد
ولولا دموعي جرت لم يكن ... حريقكم أبدا يخمد (٣)

ويذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٩ أن سيف الدولة صدقة بن مزيد تقاتل مع اسماعيل فنهبت البصرة وغنم من معه من عرب البر . . . . ولم يسلم منهم الا المحلة المجاورة لقبر طلحة والمربد ، فان العباسيين دخلوا المدرسة النظامية وامتنعوا بها وحموا المربد وعمت المصيبة بأهل البلد سوى من ذكرنا (٤) .

---

(١) معجم الأدباء ٦ ص ٥٦ .

(٢) الطبري ٣ ص ٢٥٧ وما بعدها طبعة أوربا .

(٣) معجم البلدان .

(٤) الكامل لابن الأثير جزء / ١٠ ص ١٥١ طبع بولاق .

ويقول ياقوت « إن المربد كان سوقا للابل ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وهو الآن (عاش يا قوت حتى سنة ٦٢٦ ﻫ) — بائن عن البصرة ، بينهما نحو ثلاثة أميال ، وكان ما بين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب ، فصار المربد كالبلدة المفردة في وسط البرية » .

ثم عفا أثر المربد ، ولم نعد نجد له ذكرا ذا قيمة ، وأخنى عليه الذى أخنى على عكاظ ، ومات بموته معهدان أدبيان اتصلت حياة الثانى منهما بحياة الأول فقاما نحو ستة قرون يخرجان شعرا وأدبا ونقدا كان من خير تراث العرب .

بحث في نشأة النثر العربى

لابراهيم مصطفى

متى نشأ النثر فى اللغة العربية ؟ أكان فنا جاهليا عرفه العرب قبل الاسلام ومارسوه وخلفوا منه آثارا ؟ أم هو أدب أسلامى أحدثه الاسلام فيما أفاد العرب من أدب وحضارة ؟ . مسألة تناولتها أقلام الكتاب والناقدين في هذه الأيام وطال بحثهم واحتدم جدالهم ثم لم ينتهوا الى رأى ولم يتقاربوا فى حكم .

فأما علماء العربية المتقدمون فلا ننتظر أن نجد لهم فى هذه المسألة رأيا بينا أو بحثا وافيا لأنهم لم ينهجوا هذا السبيل من البحث التاريخى ولا قصدوا اليه . ولقد تتبعوا اللغـة ودونوا معاجمها واستقروا القواعد وحرروا مسائلها وبالغوا فى ذلك وأفاضوا من غير أن يلتفتوا الى الوجهة التاريخية أو يعنوا بها — على أنا لا نعدم فى كلامهم اشارات دالة قيمة الدلالة .

قالوا أن علوم الأدب ستة اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبـديع والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها الا بكلام العرب أما الثلاثة الأخيرة فيستشهد فيها بكلام العرب وغيرهم من المولدين أذ هى راجعة الى المعانى . وهو عمل عقلى لا فرق فيه بين العرب وغيرهم (١) .

ولما أرادوا بيان كلام العرب الذى يستشهد به فى الثلاثة الأولى جعلوا القرآن نوعا ثم الشعر والرجز ثم الحكمة والسجع والمثل . (٢) فلم يعدوا فيما يستشهد به من النثر المروى عن العرب الا هـذه الأنواع القصيرة من حكمة أو سجع أو مثل ولم يروا لغيرها من الثقة والثبات ما يجعلها موضع الاحتجاج ولم يثبتوا للجاهليين نثرا طويلا فى معناه حظ من التتابع والارتباط كما رووا من الشعر والرجز . فقـد يصح لنا أن نفهم مما نقلنا أن المتقدمين من علماء العربيـة لا يعرفون للعرب قبل الاسلام نثرا الا المثل وما جرى مجراه .

أما الآن فقد بدىء منذ نصف قرن تقريبا بتدوين تاريخ الأدب العربي وفنونه وكان على الأدباء أن يذكروا تاريخ كل نوع كيف نشأ وما لقى من التطور الى أن انتهى الينا فتعرضوا اذا لتاريخ النثر وكانوا يقررون فى ذلك رأيا قريبا بسيطا . فيثبتون أن

(١) مقدمة خزانة الأدب للبغدادى (٢) ديوان الادب للفارابى مخطوط بالمكتبة الملكية .

النثر أدب جاهلى لا يتميز كثيرا عن النثر الاسلامى وقد يكون أقوى منه — وأمثلته ما ورد فى تاريخ الأدب من كلام الوفود ومن وصف الاعراب بواديهم وما يعتريها من جدب أو سحاب أو غيث ومن التندر بوصف الرجال أو النساء . ويقيسون ذلك كله الى النثر الاسلامى فلا يكادون يثبتون فرقا فيتقدمون بتاريخ النثر الى زمن الجاهلية ويضعونه فى صف الشعر أو هو أسبق وجوداً وأساس هذا الرأى قبول كل ما روى عن العرب من نثر والثقة به .

ثم جاء الاستاذ الدكتور طه حسين وتناول نشأة النثر العربى فى باب واسع ختم به كتابه (فى الادب الجاهلى) فرأى أن هذا المروى من النثر الجاهلى لا يستحق الثقة ولا يلبث أمام النقد أن يزيف وأشار الي ارتياب السابقين فيه — ثم قايس بين اللغة العربية وغيرها ليهتدى بتلك المقايسة فى نشأة النثر فقرر أن النثر يتأخر عن الشعر فى الظهور وأن العربية ليست بدعا من اللغات فى هذا ثم استظهر أن الاسلام قد ظهر ولدى العرب نوعان من النثر ، أما أولهما ففيه شيء من الصناعة والقصد الى الزينة اللفظية وهو هذا القول المسجوع الذى يجرى على ألسنة الكهان والنوع الثانى نثر عادى يستعمله العرب فيما يحتاجون من تجارة أو عمل . ثم يقول ولو قد وصلت الينا طائفة مكتوبة من هذا النثر لامكن وضع تاريخ النثر العربى على أساس متين

وجاء بعد ذلك الدكتور زكى مبارك وبحث نشأة النثر وبين رأيه فى رسالة كتبها بالفرنسية لينال بها شهادة العالمية ولم يذعها ولكنه نشر ملخصها وهو يقرر أن النثر كان فنا جاهليا عرفه العرب قبل الاسلام بثلاثة قرون على الأقل فمارسوه طويلا واهتموا به وعرفوا له أيضا ما لزمه من نحو وصرف وعروض وبلاغة . ويستشهد القرآن الكريم على ذلك ولكن لا يبين وجه تلك الشهادة ثم يقول : ومفهوم أن من المستحيل فى الوقت الحاضر الوصول الى نماذج أدبية تمثل ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام . ولكن هذا محض افتراض الى أن توجد نصوص كافية موثوق بها

هذه جملة الآراء فى نشأة النثر ومابينها من خلاف وبعد . فما هو الصواب ؟وما السبيل إلى تعرفه؟ . أينبغى أن ننتظر الكشف عن النصوص الكافية الموثوق بها؟

أما أنا فأرى أن وضع البحث فى نشأة النثر على منهج علمي أمر قريب سهل .

وأن درس قواعد اللغة وخصائصها هو سبيل هـذا البحث. ووجه ذلك أن أنواع الأدب تتميز بخصائص لغوية تظهر فى بناء اللفظ وفى تأليف الجملة ثم يسرى بعضها إلى اللغة ويقوم شاهدا على حياة هذا النوع ومقدار انتشاره فيها وغلبته عليها . فاذا درسنا خصائص نوع ثم تتبعنا وجودها فى لغة ما استطعنا أن نعرف صلة هذا النوع بتلك اللغة ومقدار تلك الصلة ولا أريد الاطالة بالتدليل على صحة هذا النظر وعلى أن فى اللغة حياة وأنها تحمل تاريخها وأنها قد تورخ ما حولها فاولى أن توحى بتاريخها. بل أرى خير مقنع لى ولك أن نحاول فتح هذا الباب فى بحث اللغة العربية والنثر العربى وننظر ما يهدى اليه من نتيجة .

ولا بد لنا من تحـديد أنواع الـكلام وبحث خصائص كل نوع ثم تتبع تلك الخصائص فى اللغة العربية لنعرف الغالب والنادر فنعرف أنواع الأدب التى مارستها العربية.

أقسام الكلام

ونقسم الـكلام الى لغة حديث أو خطابة ، ولغة نثر أو كتابة ، ولغة شعر .

وللشعر طبيعة موسيقية تستدعى حظا من الانسجام والاتزان والتقفية ان كانت . ولا بد لهذه الطبيعة من الظهور حتى يكون الشعر شعرا وفي سبيل ظهورها تتأثر الألفاظ والجملة فقد يزاد فى الـكلمة حرف أو ينقص وقد يحرك ساكن أو يسكن متحرك ،ويتغير لهذا بناء اللفظ .وقد تتقدم كلمة عن موضعها أو تتأخر فيتأثر بهذا تأليف الجملة ونظامها ، ثم لا يلبث بعض ذلك أن يصير قاعـدة لغوية مقررة فى الشعر . بل لا يلبث أيضا أن يسرى إلى اللغة كلها بحكم الملكة اللغوية التى تستقر بين الأذن واللسان والتى تتأثر حتما ومن غير ارادة بما تسمع من الأذن ثم تمليه على اللسان .

أما لغة الحديث فان الأصل فيها أن يعتمد المتكلم على حضور السامع وقصده بالحـديث وحضور ما يتـكلم عنه أحيانا ويتـكون من ذلك كله قرائن تساعد المتكلم على أفهام غرضه والاقتصاد فى شرح معناه .

ولغة الـكتابة تفارق لغة الحديث بل تضادها فى طبيعتها هـذه ، فان المتكلم يعتمد على اللفظ وحـده فى اداء المعنى فيحمله كل ما يريد من غرض لانه يقصد بكلامه إلى القارىء البعيد ويرسله على الزمن النائي فلا يستطيع أن يعتمد على شهود

سامع أو حضور قرائن .

ولهذين الأصلين المتفارقين المتباينين بين لغة الحديث ولغة الكتابة يتكون لكل نوع خصائص لغوية تباين خصائص النوع الآخر وتضادها .

فالحدث يعتمد على دلالة القرينة فيوجز ويكثر الحذف استغناء عن المحذوف حين فهم ، واستجابة لقانون الاقتصاد البعيد الأثر ، القوى الحكم فى تكوين اللغة — فاستمع إلى كلة الماء من صديان يستسق، أو من خائف بللا أو غرقا أو من مستصرخ من النار . فانها كلة واحدة دلت على معانى مختلفة فصارت جملا متعددة . لكل معنى جملة يكملها لفظ تقوله الحال وتوحى به القرينة . بل ربما صار هذا الحذف واجبا ولزمت الجملة هذا الايجاز كما يقرر النحاة فى نحو الأسد الأسد . ولعمرى ، وفى ذمتى ، فتجىء جمل الحديث قصيرة موجزة ولا كذلك جملة الكتابة لما ينبغى لها من حيطة فى حمل اللفظ وحده كل المعنى ومن اغفال للقرائن — ولقد يكون من حق الكاتب أن يلتفت إلى القرائن لا ليعتمد عليها ولكن ليحذرها أن تخيل اليه شيئا من المعنى واضحا مفهوما حتى اذا ما غابت وقرأ القارىء بعيداً عن الحال التى شهدها الكاتب ولابسته خفى جزء من المعنى بفقد شىء من الدلالة .

وكذلك يكثر فى لغة الحديث أنواع الخطاب وصيغ الأمر وأدوات النداء والفاظ الأشارة لأن طبيعة الحديث تقتضيه وتلائم استعماله بينما يقل فى لغة الكتابة وذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج الى بيان ، بل أنه ليدل على خصائص أخرى نظائر له مما يفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة فقد كشفنا عن خصائص كل نوع من الأنواع الثلاثة وأن لم نستقصها. وعلينا الآن أن نتتبعها فى اللغة العربية . وسندرس خصائص الشعر وحدها، ثم خصائص لغة الحديث ولغة الكتابة معا إذ كانتا متقابلتين وكانت دراسة أحداهما درسا للأخرى .

خصائص الشعر فى العربيه

(١) أنشدوا الشعر وتغنوا به ، فمدوا أصواتهم وزادوا فى آخره حرفا يمكنهم من الغناء والترنم .

قال سيبويه فى باب وجوه انشاد الشعر : أما إذا ترنموا فانهم* يلحقون الألف والواو والياء ماينون ومالا ينون ، لانهم يريدون مد الصوت وذلك قوله .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلى

هذا ما ينون وما لا ينون

أقلى اللوم عاذل والعتابا

متى كان الخيام بذى طلوح سعيت الغيث أيتها الخيامو

أيها منازلنا بذات سويقة كانت مباركة من الأيامى

وإنما الحقوا هذه المدة فى حرف الروى لأن الشعر وضع للغناء والترنم، فالحقوا كل حرف الذى حركته منه اه فهذا فى الشعر وقد روينا من القراءات السبع لمن قرأ (قوارير قواريرا من فضة قدروها تقديرا) فحذف التنوين من قوارير الثانية حين وصل لمنع الصرف فاذا وقف مد وأثبت فيها الألف كما زيدت فيما لاينون آخر البيت. فهذه من خصائص الشعر سرت إلى الكلام فان أردت أن تعدها من خصائص النثر كما أنها من خصائص الشعر، منعك من ذلك طبيعة الترنم ومنعك كثرتها فى الشعر وأنها معدودة فى غيره.

(٢) وأجيز فى الشعر تنوين الممنوع من الصرف وذلك معروف مشهور حتى قيل: ويصرف الشاعر مالا ينصرف، وقد سرى ذلك إلى النثر أيضا وسرى فى التنزيل قرىء بتنوين « سلاسلا » فى الآية الكريمة « إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا » — كما نون يغوثا ويعوقا فى قوله تعالى « ولا تذرن ودا ولا سواعا ولايغوثا ويعوقا ونسرا » — فقال النحاة فى الآيتين: « سلاسل » نونت لمناسبة « اغلالا » « ويغوث ويعوق » لمناسبة الكلمات المنونة حولها — وتنوين ما منع صرفه اسلوب شعرى والتناسب من روح الشعر أيضا

وقد أحس النحويون المتقدمون أن تنوين الممنوع من الصرف سرى الى النثر من الشعر. ونقل السيوطى فى جمع الجوامع « انه قد أجاز قوم صرف كل ممنوع لماروا الكسائى من الكوفيين والاخفش من البصريين وقال كأنها لغة الشعراء اضطروا إليها فى الشعر فجرت على السنتهم فى الكلام »

(٣) ومما يستدعيه الشعر أو يلجىء إليه استبدال صيغة باخرى. فقد يوضع اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر كل موضع الآخر فى الشعر. وسبيل الكلام والاصل فيه ان تستعمل كل صيغة فيما بنيت له. ولكن الشاعر إذا أمن اللبس لم يبال أى صيغة استعمل متى بان المعنى واستقام له الوزن. وقد سرى ذلك الى النثر

أيضا وعد منه فى القرآن الكريم آيات « لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » أى لامعصوم « فى عيشة راضية » أى مرضية « وجعلنا آية النهار مبصرة » أى مبصرا فيها « كان وعده مأتيا » أى آتيا « حجابا مستورا » أى ساترا « فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون » أى الفتنة .

وتأول بعض النحاة ليجعلوا كل صيغة مستعملة فى معناها وتكلفوا فى ذلك .

وعد بعضهم لهذا العدول دقائق بيانية ولا خلاف فى أنه اسلوب عربى مستقيم — والذى هون هذا التبديل وأحله تلك المنزلة من القبول والالف هو وروده فى الشعر كما قال الاخفش فى التنوين . وعلى قياس هذا تفهم سر استعمالهم فعيل مرة بمعنى فاعل واخرى بمعنى مفعول فى الشعر والنثر على حد سواء .

(٤) نرى التصرف فى الاشتقاق والتحكم فى الصيغ ظاهرا فى كلامهم حين ينحون به نحو الشعر من الأزدواج والمماثلة وفى درة الغواص للحريرى « وقد نطقت العرب بعدة الفاظ غيرت مبانيها لأجل الازدواج وإعادتها الى أصولها عند الانفراد فقالوا الغدايا والعشايا اذا قرنوا بينهما فاذا أفردوا الغدايا ردوها الى أصلها فقالوا الغدوات ، وقالوا هنأنى الشىء ومرأنى فاذا أفردوا قالوا أمرأنى ، وقالوا فعلت به ما ساءه وناءه فاذا أفردوا قالوا أساءه ، وقالوا أيضا هو رجس نجس فاذا أفردوا قالوا نجس كما قال تعالى انما المشركون نجس ، وكذلك قالوا للشجاع الذى لا يزايل مكانه اهيس اليس والاصل فى الاهيس الاهوس لانه من هاس يهوس فعدلوا به إلى الياء ليوافق اليس .

وقد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم الفاظ راعى فيها حكم الموازنة وتعديل المقارنة فروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال للنساء المتبرزات فى العيد : ارجعن مأزورات غير مأجورات . وقال فى عوذته للحسن والحسين كرم الله وجههما : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة والاصل فى مأزورات موزورات لاشتقاقها من الوزن كما أن الأصل فى لامة ملمة لأنها فاعل من ألم الا أنه صلى الله عليه وسلم قصد أن يعادل بلفظ مأزورات لفظ مأجورات وأن يوازن لفظ لامه لفظتى تامة وهامة اه كلام أبى القاسم ولو تتبع ما ورد من هذا النوع فى القرآن لكان كثيرا . وقد تكلف بعض متأخرى النحاة — كدأبهم — تأويل ما ورد من هذا ليجعلوه جاريا على قياسهم . ولكنه على كل حال اسلوب عربى فصيح يجمل القول ويزيده فى النفوس حلاوة وقبولا وقد ورد فى أفصح القول .

فلا خفاء فى أن طبيعة الشعر وما فيه من تماثل ووزن استلزمت تغييرا فى بناء بعض الألفاظ وتصريفها وأن ذلك قد سرى الى غيره من القول وغلب عليه أيضا

٥ — ومن الكثير في الشعر أن يحتاج الشاعر الى تقديم كلمة عن موضعها أو التأخر بها وقد تعرض لذلك سيبويه فى باب ما يحتمل الشعر فى أول الكتاب قال «ويحتملون قبح الكلام حين يضعونه فى غير موضعه لانه ليس فيه نقص فمن ذلك قول عمر بن أبى ربيعة

صددت فاطولت الصدود وطالما وصال على طول الصدود يدوم

وانما الكلام وقلما يدوم وصال» اه .

يريد أنهم قد يحتملون من أجل الشعر ما يستقبحون فى الكلام ويضعون اللفظ فى غير موضعه لأنه لا يفضى إلى نقص فى المعني فالتقديم والتأخير ووضع اللفظ فى غير موضعه من حاجات الشاعر ووسائله الى إقامة وزنه واتمام بنيته ويكون بعض ذلك قبيحا فيحتمل ما لم يتحيف المعنى وبعضه سائغا مقبولا فيكثر فى الشعر ويسرى إلى النثر — وأثر ذلك ظاهر جدا فى الجملة العربية وحرية الكلمة فيها فقلما تتقيد كلمة بترتيب في الجملة إذا خالفته ضاع المعنى وفسد النظم فالمبتدأ مقدم ولك تأخيره والفاعل مؤخر ويجوز تقديمه وما إيجاب أكثر النحاة لتأخير الفاعل الا نوع من الصناعة النحوية لتصحيح القاعدة وطردها لا لتبيين الأسلوب العربي وتحديده . وكذلك الصفة تؤخر عن الموصوف وقد تسبقه فلا تأبى العربية ولكن النحو يعد الكلام قد خرج من باب النعت إلى باب البدل .

فالجملة العربية حرة طائعة تمكن للشاعر أن يقيم وزنه ويهيىء قافيته وتلك الحرية من آثار الشعر وخصائصه ولكنها شملت القول كله .

٦ — إذا اكتفينا بهذا من خصائص الشعر التى سرت إلى غيره وغلبت عليه وكونت فى اللغة قواعد عامة فانا نكون قد اكتفينا من الكثير بالقليل ولكنه قليل يفى ببيان أن خصائص الشعر قد وجدت فى اللغة وغلبت عليها . فلو أنا لم نرو من الشعر الجاهلى شيئا لوجب بهذا السبيل العلمى وحده أن نعتقد أن للعرب فى جاهليتهم شعرا ناضجا قويا عظيم الأثر فى تكوين اللغة وتقدير بلاغتها .

لغة الحديث ولغة الكتابة

ونعرض لدرس النوعين معا لأنا أسلفنا أنهما نوعان يتقابلان وتتبابن خصائصها وأن درس إحداهما درس للأخرى .

(١) فأول ذلك أن لغة الحديث يكثر فيها الحذف والاستغناء ببعض القرائن عن شيء من اللفظ وقد أشار صاحب الكتاب إلى بعض هذا فى قوله (وهم يقولون سير ليل يريدون ليل طويل وذلك أنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم مايقوم مقام قوله طويل وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته فى مدح انسان والثناء عليه تقول كان والله رجلا فتزيد فى اللفظ وتعتمد على ما يدل من لفظ وحال فان عريت الدلالة فان حذفه لا يجوز) اه .

وتوسع فى بحث ذلك الامام ابن جني في الخصائص فى باب سماه بحق « شجاعة العربية » وبين أن العربى يهجم فى القول على مايريد من معنى فيدع فى سبيله الفضول والزوائد ولا يبالى اللفظ متى صور المعنى ومثله .

وتجد فى مغنى اللبيب لابن هشام بحثا واسعا لما يحذف فى العربية من مبتدأ وخبر وفعل وفاعل وظرف وحال الخ . والجمل أيضا قد تحذف كما فى الشرط والقسم وبعض مايحذف من مبتدأ وخبر وفعل واجب الحذف فى مواضع معدودة فى كتب النحاة .

ولم أرد أن أطيل بذكر أمثلة الحذف فى كلام العرب لأنها من الكثرة بحيث لايحاط بها ومن الوضوح بحيث لاتحتاج إلى مثل وبحيث تجدها فى كل ما تقرأ لهم وروح العربية روح ايجاز وحذف واعتماد على القرائن وعلى قرائح السامعين وقد رأى بعض النقاد المتقدمين أن مثل هذا الحذف وإن كان مقبولا من أهله بليغا فى موضعه لاينبغى للكتاب محاكاته ولايجوز لهم اتباعه .

قال ابن المدبر فى الرسالة العذراء التى حررها فى أصول الكتابة .

(١) واعلم أنه لايجوز فى الرسائل ما أتى فى آى القرآن الكريم من الأيصال والحذف ومن مخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص لأن الله سبحانه وتعالى انما خاطب بالقرآن قوما فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه أمره ونهيه ومراده والرسائل انما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لاعلم لهم بلسان العرب وكذلك ينبغى للكاتب

---

(١) نشرها بمصر الاستاذ كرد على والدكتور زكى مبارك .

أن يتجنب اللفظ المشترك والمعنى الملتبس فأنه أن ذهب إلى قوله تعالى « واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى اقبلنا فيها » وقوله تعالى : « بل مكر الليل والنهار » احتجنا أن نبين أن معناه اسأل أهل القرية وأهل العير وبل مكركم بالليل ومثله فى القرآن كثير !! اه

فخصائص لغة الحديث من حذف وايجاز واعتماد على القرائن فاشية فى اللغة العربية غالبة عليها ، أما الاحتياط والتكميل وعدم الاعتداد بالقرائن والاطناب والارداف حذرا من اللبس فذلك روح الكتابة جلبه الكتاب وتواصوا به وتجلى فى كتبهم جلاء الايجاز فى اقوال العرب .

— ٢ — الاشارة

والاشارة أيضا أولى بلغة الحديث واوفق لطبيعتها وما يحتاج هذا الى بيان أو تدليل ، فأقرب طريق لتعيين الشىء والدلالة عليه إذا كان حاضرا أن تشير إليه أما الكتابة فلا تكاد تستعمل فيها اداة الاشارة حتى يبين مايشار إليه بلفظ أو جملة أو جمل احيانا . وما ندعى أن اسم الاشارة يستغنى عنه في الكتابة كما ليس لأحد ان يزعم أن حاجة المحدث والكاتب إليه واحدة وان استعماله فى الحالين سواء

واسماء الاشارة فى اللغة العربية كثيرة متنوعة مفصلة أتم تفصيل فللواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجمع ، والزمان ، والمكان ، لكل واحد منها اسم اشارة خاص بل ربما كان له اسماء متعددة — وللقريب والبعيد والمتوسط . لكل صيغة خاصة — وربما قرن الخطاب إلى الاشارة فتقول « أولئك » مشيرا لجمع مخاطبا واحدا « وذاكم » مشيرا لواحد مخاطبا جمعا والخطاب نوع من الأشارة ورعاية حال المشار إليه وحال المخاطب أمر من الدقة والعسر بحيث لايتيسر الا لمحدث يرى المشار إليه ويتوجه إلى المخاطب وتتميز عنده صورة كل منهما واضحة فيحتاج إلى التعبير عنهما وفى الكتابة تقل تلك الحاجة وتعسر رعايتها

أولا يسترعى نظارك تلك الوفرة الظاهرة فى اسماء الاشارة وهذا التنوع فى استعمالها ؟ ولم نطل ببيانها فانك تراها فى كتب النحو فوق الستين صورة

أولا ترانا أمام لغة حديث دقيقة محكمة وافرة الوسائل لحاجات الحديث . على انه يجب أن نلاحظ ان شيئا من التعديل طرأ على اسم الأشارة واستعماله فى اللغة — :

ا — فقل استعمال بعض كلماته حتى ماتت تقريبا ، ومن اسماء الاشارة مما دون فى كتب النحو واللغة — ما لو قرأته الآن فى كتاب لاستغربته وانكرته وذلك مثل تى وتا وذات.

ب — وأخذ فى اهمال درجات الأشارة حتى عدها بعض متأخرى النحاة (كابن مالك) درجتين لاثلاثا . وأساس الخلاف بعد هؤلاء عن مشافهة العرب وقرب مثبتيها

حـ — وأخذ كذلك فى أهمال رعاية المخاطب فلزمت الكاف حالة الافراد فى مخاطبة غير المفرد من مثنى وجمع وروعي التذكير والتأنيث ثم أهمل هذا أيضا وجمدت الكاف كأنها ملحق للاشارة أو هى — كما يقال — حرف أثرى .

هـ — وعرى اسم الاشارة أحيانا عن المعنى وبقى ملفوظا به في الجملة شاهدا على ما كان من كثرة استعماله . مثل « منذا الذى » « وماذا الذى » فلابد أن يكون جلبه الى الجملة حاجة الى اداء المعنى ثم ذهبت تلك الحاجة وابقاه فى اللفظ الألف وكثرة الاستعمال

وفى هذا كفاية لمنصف ليقرر معنا أن الاشارة كانت فاشية فى اللغة العربية غالبة عليها لحين تدوين القواعد وأنها أخذت بعد فى القلة . ولدينا أيضا ما يدل على تحوير فى اسم الاشارة وتحديد في استعماله ليلائم لغة الكتابة لا نأخذ فى شرحه لدقته ولأنا نتجنب مواضع النزاع معك حتى نقر أصل النظرية من استعمال قواعد اللغة شاهدا لما غلب عليها من أدب. وانما نذكر من هذا مثلا تستطيع أن تجد له شواهد فى القرآن الكريم اذا تتبعت أسماء الاشارة فيه ودققت النظر فى مواضع استعمالها — وهو أن كلمة « هذا » أخذت تختص بالاشارة للمحسوس أو الماثل فى الذهن الذى هو بمنزلة المحسوس . وأن « ذلك » أخذت تختص بالاشارة للمعنوى المفهوم من جملة كلام سابق وهو الذى يعبر عنه النحاة « بما ذكر » فقد أخذت تنسخ من الاشارة شريعة الحديث والخطاب وهى التميز بين الاشخاص ودرجات البعد ورعاية المخاطبين وتحل محلها شريعة لم تستكمل وهى التفريق بين المحسوس والمعقول وهى سنة لغة الكتابة . فان لم ترد أن ترى معى هذه التفرقة الاخيرة بين المعقول والمحسوس لم الزمك بأثباتها لدقتها ولأن قانونها بدىء الاخذ به ولم يتم له سلطانه إذ كان فى تاريخ اللغة العربية بعد الاسلام ما يمنعها بعض التدرج فى سبيلها الطبيعى . وحسبي أن أقرر ما لا محيد عن تقريره من أن الاشارة

تنوعت وكثرت جدا فى اللغة الى حين تدوين القواعد ثم أخذت تتحدد وتقل

ومن أدوات الاشارة « الـ » وبينها وبين أسماء الاشارة فرق دقيق فى الاستعمال — فرق يرجع الى عموم ما للاسم والحرف من الدلالة وأن الاول يدل على المعنى والذات والثانى يدل على المعنى فقط كما نجد بين من وهل فى الاستفهام وفرق يرجع الى ما يشار اليه وهو أن الاصل فى اسم الاشارة أن يشار به الى حاضر في الخارج وقد يشار به الى الحاضر فى الذهن قليلا وبسبيل الحمل أو التنزيل كما يعبرون أما الـ فعلى عكس هذا . يعدها النحاة للجنس وللحقيقة وللعهد الذهنى وللعهد الذكرى وهو نوع من العهد الذهنى ثم للعهد الحضورى وهو قليل .

فهذه اداة اشارة أولى بلغة الكتابة ولكن حظها في العربية قليل واستعمالها غير دقيق . فهى اداة واحدة تستعمل في كل حالة بصورة واحدة لم تنل من التنوع والتغيير ما نال اسم الاشارة كما رأيت من قبل — مع أن فطرة العربية الميل الى التحديد وتمييز الفروق فكلا نوعى الاشارة شاهد بغلبة لغة الحديث وظهور خواصها وضعف ما للغة الكتابة من خواص .

واستطرد هنا الى ذكر ملاحظتين .

الأولى — أن من الكتاب المعاصرين من أحب أن يحى بعض أسماء الاشارة المماتة تظرفا واغرابا مثل « تيك » فلم يقبل ذلك منه ولم يتبع (١)

الثانية — أن بعض معلمى العربية يصوغون عبارات فيها اشارة وخطاب ويكلفون المتعلمين تحويلها بأن يشيروا الى أنواع ويخاطبون غيرها فتكون رياضة عسرة شاقة منفرة من اللغة (٢)

ونري فى الامرين معا مناهضة لروح لغتنا الادبية الحالية وهى لغة الكتابة ومحاولة لما لا يكون

٣ـ الضمائر — وفى الضمير نوع من الاشارة واليقه بلغة الخطاب ضمير الخطاب وهو كثير مفصل فى العربية للواحد والمثنى والجمع وللمذكر والمؤنث — ولحالة الرفع ضمير ولغيرها آخر وقد يجتمع ضمير الخطاب فى كلمة واحدة أشارة إلى مخاطب واحد كما فى « أرأيتك هذا الذى كرمت على » .

---

(١) قرأت هذا مرات في صدر صحيفة السياسة .

(٢) وردت بعض أسئلة على هذا النمط فى امتحان الشهادة الابتدائية الذى وضعته وزارة المعارف .

أما ضمير الغيبة فسبيله فى لغة الحديث غير سبيله فى لغة الكتابة فان المحدث قد يلقى بضمير الغيبة من غير أن يبين مرجعه فى الجملة اعتمادا على فهم السامع أو قرينة حاضرة أما الكاتب فانه لا يرسل ضمير الغائب حتى يبينه وحتى يحتاط لبيانه وفهمه والا جاء كلامه ناقصا غامضا وربما كان فى الجملة كلمتان مما يصلح بيانا للضمير ومرجعا فينبغي أن يحدد استعمال الضمير وصلته بمرجعه فنرى الضمير فى لغة الحديث حرا موسعا في استعماله وفى لغة الكتابة مقيدا محدد الاستعمال . وإذا رجعت إلى اللغة العربية لتعرف أحكام هذا الضمير فيه وجدت أمرين مختلفين أما أولهما ففى كتب النحاة وقواعدهم حيث يحددون استعمال الضمير ويضمون قيوده فيشترطون أن يكون له مرجع موافق له عددا ونوعا وأن يتقدم هذا المرجع نوعا من التقدم وهي قيود طبيعية للضمير حين نكتب.

وأما الثانى فهو المروى من كلام العربى الوثيق الرواية وفى أفصح مروى منه . نجد الضمير حرا يرسل بلا مرجع ولا يلزم أن يطابق به مرجعه ويعتمد على صورة المعني فى نفس المتكلم من غير تقيد بما دل عليه اللفظ ثم نجد نزاعا شديدا بين النحاة فى وجه التوفيق بين ماروى وهذه الشروط التى وضعت فجماعة يحرصون على القواعد ويأخذون فى تأويل كل ماروى ويعتسفون فى ذلك أيما اعتساف وآخرون يرفضون القواعد رجوعا الى المروى ونزولا على حكمه . ومهما يكن فان فى استعمال ضمير الغيبة حرية وتوسعا تشهد بغلبة لغة الحديث وظهور خصائصها فى القول .

٤ — صيغ الأمر

والأمر نوع من الخطاب وأولى بلغة الحديث لا يستثنى من ذلك الا أمر الغائب وترى فى اللغة العربية صيغة واحدة لأمر الغائب وليست بصيغة أصلية بل تتركب من المضارع ولام الأمر — ولا تختص بأمر الغائب بل يؤمر بها غيره أيضا — بينما ترى لأمر المخاطب صيغا متعددة وأساليب مختلفة منها.

(ا) فعل الأمر وهى صيغة معروفة تؤخذ من كل فعل — وربما بقيت هذه الصيغة وحدها فى مادة وماتت صيغ الفعل الأخرى مثل هب وتعلم بمعنى اعلم كما يقول النحاة .

(ب) صيغة فعال كنزال وهى مقيسة من كل فعل ثلاثى وقاسها بعض النحاة من

غير الثلاثى أيضا وجنح الامام الرضى الى عـدها فعل أمر — وهى عندى صيغة أخرى لفعل الأمر تقاس من كل فعـل ولـكنها أخـذت تقل ويستغنى عنها فى الكتابة بصيغة الأمر السابقة .

(ج) المصدر وهو كثير فى كلامهم كسقيا ورعيا وسحقا وبعدا وضرب الرقاب — وعد النحاة من هذا النوع كلمات لا فعل لها مثل رويدا وبهرا وذفرا كأن المادة قد ماتت الا هذه الصيغة وهـذا عنوان دورانها فى القول وكثرة استعمالها كما رأيت فى هب وتعلم .

(د) ظروف نقلت عن أصـل معناها وجعلت أمرا مثل اليك ودونك وعليك وعندك وربما جاءت هذه الصيغة لأمر غير المخاطب أيضا .

(ه) أسماء مسموعة دلت على أمر المخاطب وحده سميت أسماء أفعال مثل صه ومه وأيه — وفى استعمالها نوع من التدقيق وهو أنك تنون فى مثل صه تطلب الكف عن كل حديث أولا تنون تنهى عن حديث خاص .

فقد رأيت أن لأمر المخاطب كثيرا من الصيغ وأن فى استعمال بعضها شيئا من الدقة والتفريق — وهـذا من خواص لغة الحديث وشواهد غلبتها . ولتقدر مبلغ هذه الكثرة فى صيغ أمر المخاطب تستطيع أن تقايس بينها وبين أمر الغائب ثم بين صيغ الأمر والصيغ الدالة على الأزمنة فى العربية وسترى بعد ذلك من شيوع الخصائص النحوية للغة الحديث وغلبتها ومن ضعف نظائرها من لغة الكتابة وندرتها مالا سبيل الى إنكاره إلا مكابرة وعنادا .

٥ — النداء

وهـل من ريب فى أن النداء أولى بلغة الحـديث والخطاب وأن هناك تبدو الحاجـة إلى التميز بين نداء القريب ونداء البعيد وإلى مـد للصوت يعين على الاسترسال والاسماع ؟

وأدوات النداء فى العربية متعددة — : الهمزة ، وأى ، ويا ، ويجمع بين أداتين أيضا فيقال آيا وهيا — وتجمع الأداتان ثم يزاد عليهما شىء مبالغة في التنبيه فيقال ياأيها . ويفرق بين نداء البعيد ونداء القريب كما تفرق أيضا بين نداء الشائع المبهم والمقصود المحدد .

الدلالات الصوتية — قد يدل على شيء من المعنى بمط الصوت أو قطعه أو تفخيمه أو ترقيقه فيكون ذلك من خصائص لغة الخطاب وري الاشارة إلى ذلك قليلة في قواعد النحو وتخال أنه لم يكن في اللغة العربية ولكن البحث يدلنا على وجوده واغفال النحاة تدوينه الإشارات قليلة . رأيت من قبل ما نقل عن سيبويه من أن العرب يقولون سير ليل ويريدون ليلا طويلا فلا يذكرون الصفة معتمدين على مايبدون من مطل الصوت وتطويله . وذلك شيء قد اختفى عندنا من اللغة العربية لأنها الآن لغة كتابة ولأن هذه الدلالات الصوتية لم تدون.

ومن ذلك السكت بين الكلمة وأختها ولقدخفي ذلك في اللغة أيضا ولم يدون في كتب القواعد ولكن بقي شيء منه في كتب القراءات كما يقرأ حفص « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا »فيسكت بين « عوجا » « وقيما » سكتة لطيفة هي بين الوصل والوقف ليفهم انقطاع ما بين الكلمتين وأن الثانية لاتتصل بالأولى ولكن تعود إلى كلمة الكتاب قبلا ويقرأ « من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن » فيسكت أيضا بين كلمتي مرقدنا وهذا ليفصل ما بين الكلامين وليدل على اتصال « هذا » بما بعدها .

وكذلك الروم والاشمام (١) — تجد في كتب القراءات وبعض كتب النحو بيانهما ومواضعهما — وأجمال ذلك أنك اذا وقفت على الكلمة وحذفت حركتها أشرت إلى هذه الحركة بصوت ضعيف أو بتحريك الشفتين من غير صوت وذلك أمر يتهيأ حين الحديث وفي لغة الخطاب.

القسم

القسم نوع من التأكيد . والتأكيد كثير في لغةالعرب ووسائله متعددة — : أن ، والنون ، واللام ، وقد ، والتكرار ، والقسم ـ وربما اجتمعت وسيلتان من وسائل التوكيد أو أكثر . ولكل اداة موضع محدد واستعمال مبين . وأكثر هذه الوسائل اذا دققت أقرب لطبيعة الحديث ـ وللكتابة وسائل أخرى في التوكيد من تفصيل المعنى والتأنق في تصويره والتماس البراهين له .

يروى في دلائل الاعجاز للجرجاني أن الكندى المتفلسف ركب الى أبي

---

(١) بين القراء والنحاة اختلاف في هذين الاصطلاحين وما ذكرنا من الاجمال موضع اتفاق .

العباس وقال له : أنى لأجد فى كلام العرب حشوا يقولون عبد الله قائم وأن عبدالله قائم وأن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعني واحد فقال أبو العباس بل المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ وبين له أثر التوكيد وأنه لرفع الشك أودفع الانكار

والكندى عربى عالم وللبسليقة العربية فى زمنه صحة وقوة ولكنه فيلسوف لم يستطع أن يفهم في «أن» أو «اللام» ما يرفع ريباً أو يدفع انكارا وجحدا . فانما سبيل ذلك عنده البرهان والحجة .

على أن أشد أنواع التأكيد اتصالا بلغة الحديث التكرار والقسم — أما التكرار فقد بين النحاة التأكيد اللفظى وأنه بتكرار الكلمة مرتين أو ثلاثا وربما كررت الجملة كلها كذلك — وأما القسم فكثرته فى اللغة العربية رائعة حقا —

يقسمون بالجملة الفعلية حلفت — أقسمت — آليت . علم الله . يعلم الله . . .

وبالجملة الاسمية لعمرى — في ذمتى — يمين الله — أيمن الله . . .

وبحروف قسم . الباء والواو والتاء واللام ومن وها . وكل شيء مقسم به من السماء والنجوم والشمس والقمر ومواقع النجوم ومن الأرض والجبال والأنهار والأشجار وأنواع الحجارة ومن الناس وعمرهم وعيشهم وحياتهم وتقول لا أقسم وأنت تقسم — فهذه كثرة لاحظها علماء اللغة وعلماء النحو ولاحظوا أن كثرة القسم فى لغتهم ودورانه على ألسنتهم جعلتهم يتصرفون فيه أنواعا من التصرف لضروب من التخفيف. قال الزمخشرى فى المفصل : — ولكثرة القسم فى كلامهم أكثروا التصرف فيه وتوخوا ضروبا من التخفيف .

وفيما ترى من هذه الكثرة شاهد بين بغلبة لغة الحديث وغلبة خصائصها .

أخشى أن أكون أطلت ، وأن تكون الاطالة أحوجتنى الى شيء من التذكير فقد فصلت لغة الشعر والكتابة والحديث ووجدت لكل طبيعة تستدعى امتيازه بخصائص لغوية — وبينت بعض تلك الخصائص وتتبعتها فى اللغة العربية — فاذا خصائص الشعر فاشية فيها غالبة عليها حتى ليهيأ لنا مطمئنين تقرير أن الشعر كان أدبا جاهليا شائعا غالبا ، وأن سلطانه كان أكثر مما يمثله هذا الشعر المروى لنا على كثرته ووفرته . واذا خصائص الخطاب والحديث أيضا ظاهرة واسعة وغالبة

شك ولا وهم أن النثر الكتابى لم يكن من آداب اللغة العربية قبل الاسلام . وكل شيء فى اللغة العربية لفظها وقواعدها وأسلوبها — يشهد بهذا كما تشهد به الطبيعة العربية فانا وجدنا للعرب حسا لغويا دقيقا وموهبة كلامية قوية الأثر تميل الى الدقة والتحديد والى تفصيل الفروق والتمييز بينها فلو تناولت تلك الملكة القوية الأدب الكتابى لكان أثرها فيه نظير أثرها فى الشعر ولتكونت خصائص هذا الأدب وظهرت فى اللغة ووجدنا السبيل الى درسها — وأن دعوى سبق النثر العربى على الاسلام لدعوى قد حان حينها وصرعها البحث .

ولكنى أرى قوما واجمين محزونين للغة العربية أن تنتقص . يقدرون أن البلاغة كلها فى النثر وأنه المثل الأعلى للغة . وهم فى هذا واهمون — وما أكثر ما يضل الناظرون حين يستملون الحقائق من الحاضر المحيط بهم ويعدونه الحق الذى لا يبدل . أولئك ينظرون ما حولهم من لغة الحديث فاذا هى شيء لا يبلغ أن يكون لغة . فلا جمال ولا أدب ولا قوة ويقيسونها بلغة الكتابة فاذا معارف كبيرة وبون بعيد فيرسلون القاعدة مطردة ويرون في ذلك مسافة ما ينبغى أن يكون بين كل لغة حديث ولغة كتابة وهم فى هذا واهمون مأخوذون بفتنة الشهادة . ولكن فى لغة الحديث غير لغة حديثنا آدابا وجمالا ولها قوة فى الأداء ودقة فى التعبير وربما كان سبيلها الى النفوس أقرب وسلطانها عليه أعظم .

انهم ينكرون اذا البديهة الصائبة والجواب المسكت والحكمة المرسلة والكلمة المأثورة والحوار القوى المقنع .

وهل تظن أن رجلين ذوى قدر وعلم يقفان موقفا ذا خطر أو يتحاوران فى أمر ذى شأن ثم لا يبالغ أحدهما فى اختيار لفظه واختيار معناه وفى العناية بتصوير ما يريد ليقنع به ويحمل على قبوله وأى حظ من البلاغة هذا — لقد تكون الحاجة الى البلاغة ومهارة القول فى الحديث أشد والقدرة على انتقاء اللفظ وتصوير المعنى أهم .

والخطب — إنما هى نوع من لغة الحديث والخطاب لها كل خصائصها ومزاياها — وهى اوسع ميدان للبلاغة وأجلى مظهر لها وأقرب سبل الكلام إلى ملك القلوب وتصريفها

فللغة الحديث اذا أدب قيم واسع دقيق محكم . ربما احتاج من المهارة والقدرة

مالا تحتاج اليه الكتابة .

كذلك كان الحال عند العرب حس دقيق فى اللغة . وملكة قوية فى الكلام . ومواقف ذات خطر لديهم من مفاخرة ومنافرة ومن بعث الى الحرب . أو دعوة الى السلم وحافظة تعى مايقال وروى مايحفظ . كل هذا أنتج للعرب أدبا لسانيا قويا يمثل فى الجواب الصائب والحكمة المرسلة والخطبة البالغة وهو حظ من البلاغة عظيم .

المأمون وعلي الرضا

لحسن ابراهيم حسن

ان العوامل التى حملت المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ و ٨١٣ — ٨٣٣ م) على أن يولى عهده على الرضا الامام الثامن ، ثم ما كان بعد ذلك من موت ذلك العلوى ، وهو الموت الذى حدث — على ما ورد فى المصادر الشيعية — بتدبير المأمون ، جديرة بالبحث ، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة من ناحية ، ثم بتاريخ ذلك الخليفة العباسى من ناحية أخرى .

اتفق جمهور المؤرخين — من الشيعيين والسنيين — على ثلاث نقط أساسية لا شك فى صحتها وهي : أن المأمون ولى عهده على الرضا ، وأنه لبس الخضرة شعار العلويين ، وأنه زوجه ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ .

ولد على الرضا سنة ١٥٠ هـ . وهو ابن موسي الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (١) ، فكان الرضا على جانب عظيم من العلم والورع . وقد قيل لأبى نواس . « علام تركت مدح على بن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟ » فقال . « لا أستطيع مدح امام كان جبريل خادما لأبيه . والله ما تركت ذلك إلا اعظاما له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله . ثم أنشد :

مطهرون نقيات جيوبهم يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا ؟
من لم يكن علويا حين تنسبه فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقا فأتقنه صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور »

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٢١) . أبو الفدا (ج ٢ ص ٢٢) .

وقبل أن نخوض غمار هذا البحث يجمل بنا أن نتساءل عن أى الغرضين أرجح :

هل كان شعور المأمون نحو الرضا شعورا دينيا بحتا ، الباعث عليه اقتناعه بان بيت على أحق بالخلافة من بيت العباس ؟

أو كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا يرمى الى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت نفوسهم حب العقائد الشيعية ؟

أما عن النقطة الأولى ، فان بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً فى تودده للعلويين جادا فى تولية على الرضا عهده . من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان (١) من أن المأمون أرسل الجلودى إلى المدينة،وطلب إليه أن يحث أفراد البيت العلوى على الرحيل معه إلى مرو حاضرة خراسان . فلبى الجلودى أوامر الخليفة ونهض بالأمر . فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون فى قصره ، واحتفل بهم ، وخص على الرضا برعايته وعطفه ، وأفرد له منزلا خاصا به .

ثم بعث المأمون فى طلب الحسن والفضل ابنى سهل، وأسرلهما عزمه على تولية الرضا عهده . وقد اختلف الأخوان فى الرأى . فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة ، وحذر مولاه مغبة الأخذ بهذه السياسة لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت على . فقال له المأمون : « إنى عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع اخرجت الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب . وما أعلم أحدا أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » (٢) .

وأما الفضل وزير المأمون فكان على عكس ذلك . فقد عضد هذه الفكرة التى قد يكون هو الباعث عليها . يدل على ذلك ما كان من تدبير اغتيال الفضل بمرو قبل رحيل المأمون إلى بغداد ، ثم قتل الرضا بالسم والمأمون في طريقه إليها .

وقد ذكر الطبرى (٣) أن على الرضا لما جاء مرو ، أحسن المأمون وفادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره فى أولاد العباس وأولاد على بن أبي طالب ، فلم يجد احدا أفضل ولا أحق بالخلافة بعده من على بن موسى . فولاه عهده ، ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين ، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من

---

(١) مكتبة الجامعة بليدن (هولنده) . مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب .

(٢) النسيبي . مكتبة الجامعة بليدن . مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة ١٢٢ ا .

رمضان سنة ٢٠١) . فاحفظ ذلك بنى العباس ، ولا سيما منصور وابراهيم ابنى المهدى ؛ وكذلك امتنع أهل بغـداد عن البيعة للرضا . ثم خاض الناس فى خلع المأمون وأخذ البيعة لابراهيم بن المهدى .

وقد ذكر لنا النسيبى أنه « كان في حاشية المأمون أناس كرهوا ذلك (تولية على الرضا العهد) ، وخافوا خروج الخلافة عن بيت العباس وعودها إلى بنى فاطمة » . وقد ظهرت كراهة رجال بلاط المأمون للرضا عند زيارته قصر الخلافة . فقد جرت العادة أن يحيى رجال البلاط الرضا ويرفعون له الستر الذى كان يحجب الحجرة الملكية إذا ما رأوه . حتى إذا ماتولى الرضا العهد ، كف رجال البلاط عن التسليم عليه ورفع الستر له . وقد أضاف النسيبي أن الريح كان يرفع الستر بامر الله ، كما سخره سبحانه لسليمان ، وأنه كان من أثر هـذه الكرامة أن زاد اعتقاد رجال البلاط فى الرضا . (١) وذلك من مغالاة الشيعيين

أرسل المأمون إلى الرضا وقال له : « إنى أريد أن أخلع نفسى من الخلافة ، فما رأيك ؟ فأبى الرضا فى جـد » وسأله أن يعرض عن هـذه الفكرة . ولا يبعد أن يكون قـد فطن الى قصد الخليفة وما كان يرمى اليه · يدل على ذلك ماذكره محمد بن النعمان حيث يقول : « فانـكر الرضا هذا الأمر وقال أعيذك بالله ياأمير المؤمنين وأن يسمع به أحـد » · ولكن المأمون أظهر الجـد فى كلامه ، والح على علىّ بقبوله ولاية العهد بعد أن رأى منـه الامتناع عن قبول الخـلافة وقال له : « فاذا أبيت وأعرضت ، فلا بد من ولاية العهد من بعدى . فأبى الرضا أباء شديدا » (٢)

على أن المأمون الذى كانت كلماته تشعر بأنه كان مرغما على هـذا العمل بتأثير العنصر الخراسانى القوى ، هدد عليا بالقتل إذا هو صمم على ابائه ، وعرض له بما كان من أمر عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه وتعيينه رجال الشورى الستة — ومن بينهم على بن أبى طالب — لانتخاب أحدهم للخلافة بعد موته ، وقتل من تخلف عن رأى الأغلبية . وهاك نص العبارة : « ولا بد من قبولك ما أريد ؛ فانى لا أجد محيصا عنه . إن عمر بن الخطاب جعل الشورى فى ستة . أحدهم جدك أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام ؛ وشرط فيمن خالف أن تضرب عنقه . ولا بد من قبولك » . (٣)

---

(١) النسيبى ورقة ١٢٢ ب .

(٢) محمد بن النعمان . ورقة ٢٢٧ ب .

(٣) شرحه ورقة ٢٢٧ ب . المسعودى : التنبيه والأشراف (طبعة دى غوية ج ٨ ص ٢٩٠) .

اجل ! لقد هدد المأمون عليا بالقتل إذا استمر فى إبائه . على أنه لم يكن بد من قبوله . وفى مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة ، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد على بعد المأمون ، ولقبه « الرضا » ؛ كما أمر بلبس الخضرة شعار العلويين . وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا . ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة ، وعلى الشعراء الذين شادوا بفضائل الرضا ، وامتدحوا المأمون على سياسته التى سار عليها ، كما منح كبار عمال الدولة عطاء سنة .

وتحدثنا بعض المصادر الشيعية أن الرضا قد نال عطف المأمون ، فخطب له مع الخليفة على المنابر ونقش اسمه على السكة ، وأن الشعراء قد نظموا القصائد فى مدحه ، فخلعت عليهم الخلع . ودعبل بن على الخزاعى مثل حى لصحة هذا القول . فانه لما أنشد قصيدته فى الرضا ، منح ستة آلاف دينار ، فأبى وطلب بدلها بعض ملابس الرضا تبركا بها ، فمنحت له النقود والملابس معا . ولما علم المأمون بنظم هذه القصيدة فى على الرضا وإنشادها له ، بعث فى طلب دعبل ؛ فأنشد قصيدته فى حضرة المأمون والرضا والوزير الفضل بن سهل ، فأجازه الخليفة عليها بخمسين الف درهم . وكذلك أجزل الوزير عطاءه . ولننقل للقارىء بعض أبيات من هذه القصيدة التى أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره :

ذكرت محل الرَّبع (٢) من عرفات ... فأسبلت دمع العين بالعبرات
مدارسُ آيات خلت من تلاوة ... ومهبط وحى معفر العرصات (٣)
ديارُ عفاها جَوْر كل منابذ ... ولم تعف بالايام والسنوات . (٤)

هكذا كان شعور المأمون نحو على الرضا ، فى ذلك الوقت الذى كانت تجزل فيه الجوائز والعطايا للشعراء ، لأنشادهم بفضائل آل البيت . وأما شعور على الرضا نحو المأمون فلم يكن أقل من ذلك . فقد قال له المأمون : « مايقول بنو أبيك فى جدنا العباس بن عبد المطلب ؟ » . فقال . « ما يقولون فى رجل فرض الله طاعة بنيه على خلقه ، وفرض طاعته على بنيه » . فامر له بألف ألف درهم . ولما خرج أخوه زيد بن موسى

---

(١) الربع مطلق مكان.
(٢) عرصة الدار ساحتها ، وهى البقعة الواسعة التى ليس فيها بناء .
(٣) محمد بن النعمان . ورقة ٢٢٧ ب ، ٢٢٩ ب .
(٤) شرحه

بالبصرة على المأمون ، أرسل إليه عليا أخاه ليرده عن ذلك ، فجاءه وقال له : ويلك يازيد ! فعلت بالمسلمين بالبصرة مافعلت ، وتزعم انك ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لأشد الناس عليك رسول الله . يازيد ! ينبغى لمن اخذ برسول الله أن يعطى به . فبلغ كلامه المأمون ، فبكى وقال : « هكذا ينبغى أن يكون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .(١)

هذا مايؤخذ من بعض المصادر . وهى — كما ترى — ظاهرها إخلاص المأمون فى تولية على الرضا عهده .

***

أما عن النقطة الثانية ، فان بعض المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون الرضا ولاية العهد لم تكن الا سياسة منه لاستمالة قلوب الخراسانيين . فان العلاقة التى كانت بين المأمون وعلى الرضا ، والتى كان ظاهرها الاخلاص والمحبة ، لم تلبث أن تغيرت ، وذلك لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول على الرضا ، وما كان يخشاه من زوال الامر عنه الى العلويين اذا هو تورط فى هذه السياسة. يدل على ذلك هذه العبارة التى ننقلها عن كتاب « مطالب السول فى غزوات الرسول » : « ومما تلقته الاسماع ونقلته الألسن فى بقاع الاصقاع ، أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج الى الصلاة بالناس . فانتدب أبا الحسن على الرضا للصلاة بالناس فخرج ؛ وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء ، وهى من قطن ، وفى يده قضيب . فأقبل ماشيا يؤم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ! السلام على أبوى اسماعيل وابراهيم ! السلام على أبوى محمد وعلى ! السلام على عباد الله الصالحين ! فلما رآه الناس هرعوا اليه وانثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع بعض الحاشية الى الخليفة المأمون وقال : يا أمير المؤمنين ! تدارك الناس ، واخرج وصل بهم والا خرجت الخلافة منك الآن ، فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص الى المصلى لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .(٢)

---

(١) الطبرى (ج ١٠ ص ٢٣٨ — ٢٤٢) . المعارف لابن قتيبة (ص ١٢٣) . ابن خلكان (ج ١ ص ٣٢١) . ابو الفدا (ج ٢ ص ٢٣) بتصرف واختصار .

(٢) مكتبة الجامعة بليدن . مخطوط رقم ١٩٧٩ . ورقة ١٢٤ ب . وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٣٠ ا) ان الفضل بن سهل الوزير هو الذى أسرع الى المأمون وأخبره بخطورة المركز وماكان من شغب الناس .

ولو رجعنا الى بعض المصادر الشيعية (١) ، فاننا نقف منها على أن العلاقات بين المأمون والرضا لم تكن قط على شيء من الصفاء . فقد كان الرضا يكثر من وعظه المأمون إذا خلا به ، ويخوفه بالله عز وجل ، ويقبح له ما يرتكبه من خلافه . وكان المأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهيته له ». (٢) وكان الرضا يعتد بورعه ويرى نفسه فوق المأمون فى ذلك . فقد دخل عليه يوما « فرآه يتوضأ والغلام يصب على يده اليمنى. فقال له لا تشرك يا أمير المؤمنين بعبادة ربك أحدا . فصرف المأمون الغلام ، وتولى تمام وضوئه بنفسه ، وزاد ذلك فى غيظه » (٣)

وقد ذكر لنا ابن النعمان أيضا أن الرضا كان يحط من شأن الحسن والفضل ابنى سهل عند المأمون ، وأن هذين كانا يفسدان عليه أمره عند الخليفة ويتخذان من محبته فى نفوس الشيعة فرصة لتحذير المأمون من شره الذى قد يعرض شخصه وخلافته للخطر . وقد نجحا فى ذلك . فقد تلمس المأمون الوسائل للايقاع بالرضا (٤)

واذا صح هذا عن الفضل بن سهل ، فان التعليل الذى يصح أن يسلم به العقل أن الرضا — بما عرف عنه من ورع وزهد — لم يرتض خطة الفضل ، بالرغم مما أسدى اليه من جميل . فكان يأتى المأمون ويلفته الى عيوب الفضل . وكان هذا يأتى المأمون كذلك ، فيدس على الرضا . وأصغى المأمون بكلتا اذنيه الي كل من الرجلين ، واتخذ من ذلك سلاحا قضى به عليهما ، لأن هذا من أفراد البيت العلوى ومركزه فى نفوس الخراسانيين على ماذكرنا ، وذاك من انصار هذا البيت ، ومن ورائه الخراسانيون أيضا ، فكلاهما عدو للبيت العباسي ، ذلك البيت الذى اتجهت سياسة المأمون الى ارضائه أخيرا . وما كان يتسنى له ذلك الا بالتخلص من كلا الرجلين .

من هذا يتبين أن المأمون لم يكن يوما من الايام مخلصا فى تولية الرضا عهده ،

---

(١) لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التى رجعنا اليها ، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئا عن توتر العلاقات بين المأمون والرضا ، وانما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذى دبر موت الرضا . وقد ذكر ابن الجوزى (المكتبة الملكية بالقاهرة . مخطوط رقم ٥٥١ . ورقة ١٨٠ ا) المؤرخ السنى ان الذين دبروا قتل الرضا هم أفراد البيت العباسى ، لأنهم لم يرتضوا سياسة المأمون ، وأن المأمون نفسه لم يكن له يد فى قتل الرضا ، يدل على ذلك ما أظهره من الحزن العميق عليه بعد وفاته .

(٢) ، (٣) ، (٤) محمد بن النعمان ، ورقة ١٢٣١ .

وانما هذه سياسة لجأ اليها ليتألف بذلك قلوب الخراسانيين . ولا غرو فان المأمون الذى امتزج دمه العربى بالدم الفارسى قد عرف كيف يستخدم دهاءه . فقد رأى نفسه بين عوامل مختلفة : فاما أن يجيب أخاه الأمين الى ما طلبه منه ، وإما أن يستبد برأيه وهو فى خراسان بين بنى سهل وأنصارهم ، وإما أن يظهر العداء للعلويين ، وهذا لا يتفق مع السياسة الرشيدة . اذاً لم يبق أمامه إلا أن يعرف هوى الخراسانيين فيسبقهم اليه . ومن ثم قرب العلويين — وكان هوى الخراسانيين فيهم — وولى الرضا عهده . وهكذا عرف المأمون كيف يلهب حماس الخراسانيين ويسوقهم إلى بغداد للقضاء على أخيه الأمين وجيوشه من العرب . وقد اندفع الفضل بن سهل فى هذا المضمار ، وأفرغ وسعه ليتغلب على الأمين ومن ناصروه . ويظهر أن سياسة المامون فى اختيار على الرضا لولاية العهد سياسة قديمة ، وأنه قد فكر فيها قبل اعتلائه عرش الخلافة ، وأن اسراره إلى الحسن والفضل ابنى سهل بما عزم عليه من ولاية الرضا عهده كانت كذلك قبل ظفر المأمون باخيه الأمين . يدلك على ذلك إجابة المأمون الحسن بن سهل عند ما عارض الفكرة بقوله : « إنى عاهدت الله ان ظفرت بالمخلوع أخرجت الخلافة الى أفضل آل أبى طالب . . . الخ » .

ومما يكشف عن سياسة المأمون ويدل على ذات نفسه نحو الرضا ماذكره أبو الحسن على بن يوسف القفطى فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حيث يقول . « قال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم ، وهو منجم مأمونى كبير القدر فى صناعته ، يعلم المأمون قدره فى ذلك — وكان لايقدم الا عالما مشهودا له بعد الاختبار — وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على بن أبى طالب متخشين مختفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس ، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء ، فظنوا بهم ما يظنون بالانبياء ، ويتفوهون فى صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى . فاراد معاقبة العامة على هذا الفعل . ثم افكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم اغراء به ، فنظر فى هذا الأمر نظرا دقيقا وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسقطوا من اعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذما ، ثم قال . اذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءا . وإنما الرأى أن نقدم أحدهم ويظهر لهم أماما . فاذا رأوا هذا انسوا وظهروا واظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة فى الآدميين ، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفى بالاختفاء .

فاذا تحقق ذلك ، ازلتُ من اقمته ، ورددت الأمر إلى حالته الأولى . وقوى هـذا الرأى عنـده ، وكتم باطنه عن خواصه ، وأظهر للفضل بن سهل انه يريد أن يقيم إماما من آل أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) صلوات الله عليه . وأفكر هو وهو فيمن يصلح ، فوقع اجماعهما على الرضا. فاذا الفضل بن سهل فى تقرير ذلك وترتيبه، وهو لا يعلم باطن الأمر ؛ وأخذ فى أختيار وقت لبيعة الرضا ، فاختار طالع السرطان وفيه المشترى . قال عبد الله بن سهل بن نوبخت هذا : اردت أن أعلم نية المأمون فى هذه البيعة ، وأن باطنه كظاهره أم لا ، لأن الأمر عظيم . فانفذت إليه فى هذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه — وكان يجىء فى مهم أمره — وقلت له إن هذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لا تتم بل تنقص؛ لأن المشترى وإن كان فى الطالع فى بيت شرفه ، فان السرطان برج منقلب . وفى الرابع — وهو بيت العافية ـ المريخ ، وهو نحس . وقد اغفل ذو الرياستين هذا . فـكتب المأمون إلى : قد وقفت على ذلك ، أحسن الله جزاءك ! فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا . فانه ان زال عن رأيه ، علمت أنك أنت المنبه له . فهم ذو الرياسـتين بذلك . فما زلت أصوب رأيه الأول خوفا من اتهام المأمون لي ، وما أغفلت أمرى حتى مضى أمر البيعة ، فسلمت من المأمون » (١)

من ذلك يتبين لنا أن المـأمون لم يرد بهذا العمل الا اكتساب رضاء العنصر الخراسانى ، وضم العلويين إلى صفه ، وتهدئة الخواطر ، وأنه لم يكن مخلصا فى نقل الخلافة إلى العلويين، وأن هذا لم يكن الا سياسة دعت اليها الضرورة وسياسة الملك. ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من ولاية الرضا عهده حينما أمكنته الفرصة.

وكان من أثر هذه السياسـة أن ساءت العلاقات بين المأمون وكل من الرضا والفضل بن سهل من جهة ، كما ساءت بين الرضا والوزير من جهة أخرى ، حتى انتهى الأمر بتلك المأسـاة التاريخية ، وهي اغتيال كل من الفضل والرضا . لهذا لا نعجب اذا رأينا المأمون يعمل على التخلص من هذين الرجلين ، وقد هاج الناس ببغداد وماجوا وغرقت حاضرة العباسيين فى لجج الفوضى ، وخاض الناس فى خلع المأمون ، وفـكروا في تولية ابراهيم بن المهدى . وقد كتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل — وقد أدرك شعور المأمون نحوه ـ ينصح له أن يتخذ الحيطة خشية

---

(١) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص ٢٢١ — ٢٢٣)

الاغتيال ، وقال فى كتابه: « إنى نظرت فى تحويل السنة ، فوجدت فيه أنك تذوق فى شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار . وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا عن دخول الحمام فى هذا اليوم ، ليزول عنك نحسه » . وقد أضاف نفس هذا المؤلف أن الفضل دخل الحمام فى يوم الاربعاء الذى حذره منه أخوه ، فقبضت عليه جماعة من الرجال واغتالوه [1] .

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الاربعاء المشئوم ، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصله الكتاب . وهكذا صدق قول الشاعر :

ما للرجال مع القضاء محالة   ذهب القضاء بحيلة الاقوام

ويبدو لنا من كتاب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل ، أن الحسن قد لهج بما كان سائدا فى ذلك الوقت في البيت العباسى ببغداد ، وبما كان من هياجهم ضد المأمون ، لتوليته رجلا من العلويين . وكانت هذه الروح السائدة ببغداد فى ذلك الوقت تحوم حول هؤلاء الثلاثة — المأمون والرضا والفضل — والتخلص منهم . لذلك هاج الناس وماجوا ، وسقطت هيبة الحكومة .

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره . فلما رأوا ما حل به ، اتهموا المأمون ورموه بالاشتراك فى هذه المؤامرة . فقد شغب قواد خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الوزير على الخليفة ، وتجمعوا ببابه وهموا باحراقه . ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر طلب إلى على الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم . وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدئة الخواطر ، لمحبة أهل خرسان له وتفانيهم فى الاخلاص لطاعته . ولا غرو فان إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهدئة خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم . وقد ذكر لنا ياسر ، الذى صحب على الرضا فى خروجه ، والذى روى عنه مؤلف المخطوط الذى اعتمدنا عليه فى هذه النقطة ، ما يبين لنا مدى محبة الخراسانيين للرضا ، وتفانيهم فى طاعته

---

(١) محمد بن النعمان . ورقة ٢٣٠ ب .

ورضاه حيث يقول : « فلما خرجنا على باب الدار ، نظر إلى الناس وقـد ازدحموا عليه . فاشار اليهم (فقال لهم فى الأصل) بيده ، تفرقوا . فقال ياسر : فاقبل الناس والله يقع بعضهم على بعض ، وما أشار الى أحد الا ركض ومضى لوجهه » .(١)

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق انصاره ، ونجا المأمون مما كان يتهدده من الخطر فى ذلك الظرف العصيب . وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون الا على الرضا . فلننظر كيف تخلص منه .

اختلفت كلمة المؤرخين فى كيفية اغتيال الرضا . فمنهم من ذكر ان المأمون قد أعطاه عنقودا من العنب المسـموم أو عصير الرمان . ومنهم من قال انه دبر قتله . ولعل هذا القول أقرب الى الحقيقة . فقد ذكر محمد بن النعمان في كتابه «الارشاد» أن المأمون أمر أحـد رجاله أن يطيل أظفاره ، والا يطلع أحـدا على ذلك ؛ ثم استدعاه ، فأخرج اليه شيئا يشبه التمر هندى وقال له : « اعجن هذا بيدك جميعا » ، ففعل . ثم دخل على الرضا ، فكلم المأمون بما أغضبه ؛ فصاح المأمون بأحد غلمانه ، وأمره بأن يقدم الى الرضا ماء الرمان بعد عصره . ثم سقاه المأمون الرضا ، فلم يلبث الا يومين حتى مات . وقد ذكر ابن أبى الصلت ، الذى روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه ، انه دخل على الرضـا وقد خرج المأمون من عنـده ، فقال . يا أبا الصلت ! لقد فعلوها والله . وجعل يوحد الله » . وقد روى لنا نفس هـذا المؤرخ رواية أخرى عن كيفية موت الرضـا ؛ فذكر انه كان يحب العنب ، « فأخذ له شىء منه ، فجعل فى موضع أقماعه الابر أياما . ثم نزعت وجىء به اليه ؛ فأكل منه وهو فى علته التي ذكرناها ، فقتله » (٢) .

وقد اتفق المؤرخون على ان المأمون قد عبر عن وفاة على الرضا بأعمق مظاهر الحزن .

---

(١) محمد بن النعمان . ورقة ٢٣٠ ب وما يتبعها .

(٢) محمد بن النعمان . ورقة ٢٣١ ب ، ٢٣٢

وهكذا نجحت سياسة المأمون . فاغتيل الفضل بن سهل ، وقتل على الرضا بالسم ودفن فى سناباد من أعمال طوس التى دفن فيها الرشيد ، وحرم ابنه محمد من ولاية العهد بعد أبيه ، وعاد المأمون ثانية الى السواد شعار العباسيين .

ونستطيع الآن مما تقدم أن نرجح الغرض الثانى ، وهو ان ذلك الشعور الدينى الذى كان يحس به المأمون نحو الرضا ، إنما يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا يرمى الى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت نفوسهم حب العقائد الشيعية .

أحابيش قريش

هل كانوا عربا أو حبشا ؟

لعبد الحميد العبادى

يستعمل لفظ (الأحابيش) فى الدلالة على القوة العسكرية التى كانت قريش تستأجرها قبيل الاسلام للدفاع عن بلدها وقوافلها التى كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، ان هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التى كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألمانى الكبير ، فلهاوزن ، فقال فى كتابه الذى ألفه فى الوثنية العربية [١] هذه العبارة Die politischen Verbündeten der Quraish ...sind die Ahabisch. ومعناها « الأحابيش أحلاف قريش السياسيون » .

ولكن الأب لامنس المستشرق اليسوعى المعروف ، نشر في المجلة الأسيوية [٢] مقالا ضافياً عنوانه Les Ahàbis' et l'Organisation Militaire de la Mecque ذهب فيه الى ان رواة اللغة العربية قد وهموا فى تفسير هذا اللفظ ، وان الأحابيش كانوا كلهم أوجلهم على أقل تقدير زنوجا من بلاد الحبشة ، وان رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب أنفة من أن يقولوا ان قريشا كانت فى الجاهلية تستعين السودان فى الدفاع عن حوزتها [٣] .

ومع ان الأب لامنس قد أنفق جهدا عظيما فى التدليل على صحة نظريته وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فانى أرى الموضوع لا يزال مفتقرا الى التحقيق . وأريد في هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

أولا — ان الأحابيش كانوا عربا .

ثانيا — ان القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

---

(١) Reste Arabischen Heidentums; 86.

(٢) Journal Asiatique, VIII, 1916, 425-482.

(٣) Ibid. p. 457.

ثالثا — ان العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شيء .

(١)

لا شك ان بين كلمتى (حبش) و (أحابيش) تجانسا شديدا فى اللفظ واتحادا فى المعنى من بعض الوجوه . ولكن ثاني اللفظين ينفرد بمعان تعدل به فى أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الاول عدولا تاما . جاء فى القاموس المحيط فى مادة (حبش) (الحباشة كثمامة الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة كالأحبُوشة) وجاء فى لسان العرب فى المادة المذكورة (والأحبوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيا كانوا لأنهم اذا تجمعوا اسودوا ، والتحبيش التجمع .... وفي المجلس حباشات وهباشات أى ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش . وتحبشوا عليه اجتمعوا . . . . والحبشان الجراد الذى صار كالنمل اسودادا .) فالتفسير اللغوى يفيد أن لكلمة (الأحابيش) ثلاثة معان خاصة (١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ، ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة ان كلمة (حبش) و (حباش) و (تحبيش) تفيد هذا المعنى في اللغة المصرية الدارجة (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ، لأن العرب تنعت الشيء اذا كثر وتكاثف بسواد اللون .

هذا التفسير اللغوى يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة فى بيان أصل نظام (الاحابيش) . جاء فى سيرة ابن هشام ما يأتي : (قال ابن اسحق ، والاحابيش بنوالحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة . قال ابن هشام تحالفوا جميعا فسموا الاحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة) [١] . ويقول صاحب معجم البلدان (حبشى ... جبل بأسفل مكة بنعمان الاراك يقال به سميت أحابيش قريش . وذلك أن بني المصطلق وبنى الهون بن خزيمة اجتمعوا عنده وحالفوا قريشا وتحالفوا بالله إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل وبينه وبين مكة ستة أميال . مات عنده عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فجأة فحمل

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جو تنجن ...

على رقاب الرجال الى مكة) (١) وجاء في لسان العرب (٢) (وحبشي جبل بأسفل مكة يقال منه سمى أحابيش قريش ، وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة اجتمعوا عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله انا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار ؛ وما أرسى حبيش مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل) ولا بأس في هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة فانه على كثرة منحوله وقلة صحيحه ، شعر قيل في القرن الثاني الهجري ويبين ما كان متعارفا إذ ذاك عن الأحابيش . قال هبيرة بن وهب المخزومي يفتخر بيوم أحد : (٣)

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن　　عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة أنى تذهبون بنا ؟　　قلنا النخيل فأموها ومن فيها !

فأجابه حسان بن ثابت فقال :—

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم　　إلى الرسول فجند الله مخزيها
جمعتوهم أحابيشاً بلا حسب　　أئمة الكفر أغرتكم طواغيها

فهذه الأبيات صريحة في أن المراد بالأحابيش هو كنانة . وقال حسان أيضاً :—

إذا عضل سيقت إلينا كأنها　　جداية شرك معلمات الحواجب
أقمنا لهم طعنا مبيرا منكلا　　وحزناهم بالضرب من كل جانب
فلولا لواء الحارثية أصبحوا　　يباعون في الأسواق بيع الجلائب

وعضل حي من بني الهون بن مدركة (٤) فهي من الأحابيش . ومعنى البيت الأخير أنه لولا استقتال هذا الحي حول اللواء الذي رفعته يوم أحد تلك المرأة الحارثية لوقعوا في الأسر فبعناهم بالأسواق كما تباع العبيد المجلوبة .

من هذه النقول التاريخية نأخذ أن الاحابيش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنتمي إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

(٢) ان هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش . أو عند جبل يقال له حبشي ، وتحالفت فسميت الأحابيش

(١) معجم البلدان — مادة (حبشي)
(٢) لسان العرب — مادة (حبش)
(٣) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ — ٦١٣
(٤) » » » » ص ٦٣٨

(٣) أنها حالفت قريشا على التناصر والتآزر .

فالمدلول التاريخي لكلمة (الأحابيش) متمش مع مدلولها اللغوى غير انه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل وتحالفها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة وهى أن الأحابيش عرب . والحق أنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجىء الأسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الاحياء قبيلة عربية صحيحة على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتا (تنوخ)[١] و (الرباب) [٢]

(٢)

وجنسية الأحابيش العربية يؤكدها تاريخ حلفهم الذى نرجح انه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فانا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة العربية ، من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تخف بها عند الحرب ، وانها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تتنزل منها منزلة الحليف من الحليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشؤن العامة لقريش ؛ وإلى القارىء النصوص التى تؤيد ذلك : —

(١) كان سيد الأحابيش فى السنوات الأولى من عهد النبوة رجلا يقال له (ابن الدغنة) . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذى ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره ورده إلى مكة . فلم تعرض قريش لأبى بكر بسوء احتراما لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتتن أبناؤها فشكت أبا بكر إلى مجيره فما كان من أبى بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره [٣]

(٢) يقول الطبري فى كلامه على غزوة أحد رواية عن ابن اسحق (وقد كان الحليس بن زبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول ذق عقق !

---

(١) الطبرى — ص ٧٤٦

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١

(٣) سيرة ابن هشام ٢٤٠ — ٢٤٧

فقال الحليس يابنى كنانة ! هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما. فقال ويحك اكتمها على فانها كانت زلة) [١]

(٣) ويحدث الطبرى في خبر الحديبية عن ابن اسحق عن الزهرى فيقول (ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان ، وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بالحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إن هذا من قوم يتألهون. فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه. فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى في قلائده . قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعظاما لما رأى ، فقال يامعشر قريش ! أنى قد رأيت مالا يحل ، صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله . قالوا له أجلس فأنما انت رجل أعرابى لاعلم لك . . . . . . فغضب الحليس عند ذلك ، وقال يامعشر قريش ! والله ما على هذا حالفنا كم ، ولا على هذا عاقدنا كم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظما له . والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له مه ! كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به) [٢] .

(٤) روى الطبرى فى خبر الحديبية أيضا عن ابن اسحق أن النبى دعا خراش ابن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] .

وقد عرف الرسول كيف يفل قوة الأحابيش التى كانت تعتز بها قريش . وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معا . فاما من حيث السياسة فقد اجتذب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى اليها أحياء الأحابيش . فكانت خزاعة كما روى ابن اسحق (مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله صلى الله

(١) الطبرى — ص ١٥٣٨
(٢) « « « ١٥٤٢
(٣) الطبرى — ١٤١٨

بتهامة ، صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئا) [١] كما أن غفارا [٢] وهى كنانة ، وأسلم [٣] وهى من خزاعة ، أخذتا جانبه ووردت فى الثناء عليهما أحاديث عدة . فلما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ودخلت فى عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش . وأما العنف فنتبينه فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت شوكة الأحابيش كما يري من موقفهم فى صلح الحديبية . وفى يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قتالا يسيرا . [٤]

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادى فى الحرب كانت ظاهرة سياسية عامة فى بلاد العرب قبل الاسلام . فكما كانت الأحابيش بالاضافة الى قريش ، كانت الاوس والخزرج بالاضافة الى يهود يثرب [٥] ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة الى ثقيف بالطائف [٦] ولقد عاقد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم إذا هم حاربوا معهم النبي صلى الله عليه وسلم . [٧]

(٣)

وبعد فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوبة الحقوق العامة ومسخرة لأشراف مكة فى حالى السلم والحرب ، بعض هذه الطبقة قد شرى بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحجاز . يقول الأزرقى [٨] (وأقام بمكة فلال من الجيش وعسفاء وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويرعون لمكة) . ويقول صاحب الأغانى [٩] (وكان لعبد الله بن ابى ربيعة عبيد من

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٥٨٩
(٢) الطبرى — ١٦٣٥
(٣) » » »
(٤) » » »
(٥) السمهودى ج ١ ص ١٢٥ (طبع مصر)
(٦) ابن الاثير ج ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر)
(٧) السمهودى ج ١ ص ٢١٤
(٨) أخبار مكة ص ٩٧
(٩) الأغانى ج ١ ص ٣٢

الحبشة يتصرفون فى جميع المهن وكان عددهم كثيرا . فروى عن سفيان بن عيينه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم (١) ؟ فقال لا خير فى الحبش ان جاءوا سرقوا وان شبعوا زنوا . وان فيهم لخلتين حسنتين : أطعام الطعام والبأس يوم البأس) . فلما ظهر الأسلام بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة الى اعتناقه ، فجر ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش . من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصُؤَاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم . كل هؤلاء كانوا ارقاء قد نص فى كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر بعضهم من الرق .

ومما يدل على تميز هـذه الطبقة عن الأحابيش قول الطبرى فى غزوة أحد(٢) (فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبوعامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة) وعطف عبدان على ماقبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح وبيان كما يرى الأب لامنس «٣» .

بهذه التفرقة بين أحابيش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التى أوردناها أن الاحابيش كانوا حلفاء قريش ، وقول صاحب لباب النقول (٤) (واستأجر أبو سفيان يوم أحـد الفين من الأحابيش) فالمحالفة والاستئجار إنما ينصبان على الاحرار دون الارقاء .

وعنـدما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا سماه ديوان الحبش . يقول الماوردى (٥) (وذلك لمكان بلال منهم)

---

(١) وذلك عند مسيره الى هوازن
(٢) الطبرى — ص ١٣٩٩
(٣) Journal Asiatique, VIII, 444.
(٤) — لباب النقول فى اسباب النزول للسيوطى ص ١٢٥ من الطبعة المصرية
(٥) الاحكام السلطانية (وضع الديوان)

بيان عن بعض المؤلفات الحديثة لاعضاء هيئة التدريس بالكلية

مؤلفات باللغة العربية

الشاهنامة

الملحمة الفارسية الخالدة التى تتضمن تاريخ الفرس وأساطيرهم منذ أقدم العصور إلى الفتح الأسلامي .

بدأ نظمها الدقيقى الشاعر فى القرن الرابع الهجرى ثم قتل بعد أن نظم منها الف بيت تخلفه فى احتمال هذا العبء العظيم أبو القاسم الفردوسى فنظم أكثر من خمسين الف بيت أدخل فى ثناياها مانظمه الدقيقى . واستوعب فى الكتاب ما أثر عن تاريخ الفرس وأساطيرهم وتناول حوادث كثيرة عن الأمم الأخرى كالترك والهند ، والعرب والروم . وقد عمل فى ذلك زهاء ثلاثين سنة وانتهى حوالى سنة ٤٠٠ ﻫ

وفى أوائل القرن السابع الهجرى ترجم الكتاب إلى العربية ترجمة مجملة أبو الفتح البندارى وقدمه للسلطان الملك المعظم من ملوك الأيوبيين في الشام .

وقد جمع عبد الوهاب عزام المدرس بالكلية خمسة من أقدم المخطوطات فصحح منها نص الكتاب ثم أكمل الترجمة فى مواضع كثيرة ، منها المقدمة الطويلة التى نظمها الفردوسى وحذفها البنداري . وكذلك قارن الترجمة بالأصل الفارسى وبين ما بينهما من فروق . ثم علق على الكتاب تعليقات كثيرة مفصلة بين فيها مواضع الأساطير الفارسية من الأساطير الآرية القديمة . وقارن الحوادث التاريخية بما روى فى كتب اليونان والعرب وما كشفت عنه الآثار القديمة .

ثم كتب مقدمة مسهبة عن القصص الفارسى وتاريخ الفردوسي ، والشاهنامة وموضوعاتها المختلفة الخ

الفاطميون فى مصر

وأعمالهم السياسـية والدينية بوجه خاص

للدكتور حسن ابراهيم حسن

الأستاذ المساعد بكلية الآداب

ثلثمائة وتسعون صحيفة من القطع الكبير فى مجلد واحد . ترجمها المؤلف من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية . وهي الرسالة التى اعتمدتها جامعة لندن لدرجة الدكتوراه فى الآداب (D. Litt.) (فى التاريخ الاسلامى) . والكتاب مصدر بكلمة للأستاذ المرحوم السير توماس ارنولد .

وقد تناول فيه المؤلف الادوار التى اختلفت على حركة الشيعية وأطوار الدعوة السرية للعلويين فى عهد الدولتين الأموية والعباسية الى ان قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، والعوامل التى أدت الى قيامها وسقوطها فى بسط كثير ، كما صور الحالة السياسية والدينية والأدبية ، ونظام الحكومة والادارة ، وموارد البلاد المالية وحكامها ، وساستها ، وشعراءها .

وقد اعتمد المؤلف فى كتابه على المصادر الاصلية ، وبخاصة الخطية منها فى مكاتب برلين والقاهرة وليدن ولندن واكسفورد وباريس .

وبالكتاب تسعة مصورات جغرافية واثنتان وثلاثون صورة تمثل المساجد وغيرها من الأماكن الأثرية والطرف النفيسة التى بقيت من عهد الفاطميين .

وقد قامت وزارة المعارف العمومية بطبع الكتاب بالمطبعة الأميرية بالقاهرة .

ضحى الاسلام

تأليف

أحمد أمين

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية

كتبه مؤلفه متابعة للسلسلة التى بدأها بكتابه « فجر الاسلام » الذى بحث فى الحياة العقلية للعرب في الجاهلية وصدر الاسلام الى آخر الدولة الأموية .

وضحى الاسلام يبحث فى الحياة العقلية للعصر العباسى الأول من سنة ١٣٢ — سنة ٢٣٢ — وقد وقع فى جزءين ظهر منه جزؤه الأول وفيه بابان الباب الأول فى الحياة الاجتماعية واقتصر فيه على ما كان له أثر قوى فى العلم والفن فبحث فيه عن سكان المملكة الاسلامية والعناصر التى تكونت منها المملكة وعملية التوليد وميزات المولدين — ثم بحث فى الصراع بين العرب والموالى وأشكال الصراع ونتيجته ، ثم فى الشعوبية وأثرها — والرقيق وأثره فى العلم والفن — ثم فى حياة اللهو والجد وتأثيرها فى العلم والأدب — ثم فى حياة الزندقة والايمان وبذلك تم الباب الأول .

وفى الباب الثاني تكلم في أهم الثقافات فى ذلك العصر فتكلم فى الثقافة الفارسية وعلاقتها بالأدب العربى واختار ابن المقفع كممثل لهذه الثقافة وبحث فى كتبه الأدب الصغير والكبير ورسالة الصحابة وكليلة ودمنه وكتاب الزندقة المنسوب اليه — ثم تكلم فى الثقافة الهندية وعلاقتها بالمسلمين من حيث الالهيات والأدب والقصص والعادات والشرائع .

ثم بحث فى الثقافة اليونانية الرومانية ومدارسها فى الشرق وحركة الترجمة وأثرها فى المسلمين وتكلم فى حنين بن اسحاق كممثل للثقافة اليونانية .

ثم الثقافة العربية وموقفها إزاء العلوم وما كان لها من لغة وأدب واختار المبرد كممثل لها وحلل لذلك كتاب الكامل .

وعقد فصلا للثقافات الدينية من يهودية ونصرانية واسلام وعلاقة كل بالآخرين .

وختم هذا الجزء الأول بفصل فى امتزاج الثقافات ومقدار أثر كل ثقافة وترجم للجاحظ وابن قتيبة وأبى حنيفة الدينورى من حيث انهم يمثلون مزج هذه الثقافات وحلل كتبهم البيان والتبيين والحيوان وعيون الأخبار وكتاب النبات .

ويقع هذا الجزء في نحو ٤٣٠ صفحة من القطع الكبير .

كتاب نقد النثر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى

نشر بتحقيق

طه حسين و عبد الحميد العبادى

هذا كتاب في البيان العربي لم يسبق نشره . ألفه حوالى سنة ٣٣٠ هـ . أبو الفرج قدامة بن جعفر صاحب كتابى (نقد الشعر) و (الخراج وصنعة الكتابة) والمتوفى سنة ٣٣٧ هـ . وقد قصد فيه الى معارضة كتاب الجاحظ المسمى (بالبيان والتبيين) والاستدراك به عليه كما صرح فى مقدمة هذا الكتاب .

وقيمة كتاب (نقد النثر) تنحصر فى الحقيقة فى أنه يعطى القارىء صورة واضحة للبيان العربي المتأثر بالفلسفة اليونانية . ذلك بأن قدامة نفسه قد درس هذه الفلسفة وتضلع منها وبخاصة منطق ارسطو .

موضوعات الكتاب هى : مقدمة المؤلف ــ باب قسمة العقل ــ باب فيه ذكر وجوه البيان ــ باب فيه البيان الأول وهو « الاعتبار » ــ باب فى ذكر القياس ــ باب فى الخبر ــ باب فى البيان الثاني وهو « الاعتقاد » ــ باب فى البيان الثالث وهو « العبارة » ــ الاشتقاق ــ ما اعتلت فاؤه ــ ما اعتلت عينه ــ ما اعتلت لامه ــ التشبيه ــ اللحن ــ الرمز ــ الوحى ــ الاستعارة ــ الأمثال ــ اللغز ــ الحذف ــ الصرف ــ المبالغة ــ القطع والعطف ــ التقديم والتأخير ــ باب تأليف الكلام ــ الكلام على الشعر ــ باب فيه المنثور وما جاء فيه ــ الكلام على الخطابة والترسل ــ اختيار الرسول ــ الجدل والمجادلة ــ أدب الجدل ــ الحديث .

والكتاب مصدر يبحث ضاف كتبه الدكتور طه حسين وضمنه الكلام على تطور البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر الجرجاني ، مع تحليل خاص لكتاب نقد النثر . وقد نقل عبد الحميد العبادي هذا البحث الى اللغة العربية ، ثم اتبعه بفصل عرض فيه لحياة قدامة العامة والأدبية وحقق فيه نسبة كتاب (نقد النثر) اليه .

وقد طبع الكتاب على نفقة الجامعة المصرية بمطبعة دار الكتب المصرية عن النسخة الخطية المحفوظة بالاسكوريال بأسبانيا . ويطلب الكتاب من مكتبة الجامعة وثمنه ١٠ قروش صاغ؟

مؤلفات باللغات الأوروبية :

(تجد عنها بيانا أوفى فى القسم الأوروبى من هذا العدد)

جان — مارى كاريه : زوار مصر من الكتاب والرحالة الفرنسيين
فى مجلدين باللغة الفرنسية — القاهرة ١٩٣٣

هرمان دوب : بحث تاريخى فى طبع الكتب الفرنسية فى بلاد البلجيك بلا إذن أصحابها فى المدة بين ١٨١٥ و ١٨٥٢
باللغة الفرنسية — لوفان ١٩٣٢

University of Egypt

Bulletin

of

The Faculty of Arts

Vol I. Part 1

May 1933

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. Price per copy 20 P.T. post free.
All communications are to be addressed
to the Hon. Sec. of the Editorial Board, Mr. Shafik Ghorbal,
Faculty of Arts, Giza, Egypt.

TABLE OF CONTENTS

THE EUROPEAN SECTION. —

PAPERS CONTRIBUTED. —

AN ACCOUNT OF EGYPT BY DIODORUS THE SICILIAN

BEING THE FIRST BOOK OF HIS UNIVERSAL HISTORY;

TRANSLATED* INTO ENGLISH

By W. G. Waddell

PART I

PREFATORY NOTE.

"Can you refer me to a translation of Diodorus ?" was a question repeatedly put to me during my sojourn in Egypt. The following version is a concrete attempt to answer the question now: at the time I could only mention two translations, the first of which I never met in Egypt — Booth's and Hoefer's. The only complete English translation of Diodorus was published by G. Booth in 1700, and is now hardly to be found except in the largest libraries. As it was based upon a defective text, not a few mistakes and omissions occur in it; and there seems clearly to be room now for a new English version. The translation in French by Ferd. Hoefer (Paris, 1851)* is generally correct, frequently condensing the original to its great advantage. For the present version the Teubner text, edited by F. Vogel, 1888, has been used; and the numbers of the chapters and the sections of the original Greek are added in the margin of the translation to facilitate reference. The translator's aim has been to follow the Greek as closely as is compatible with reasonably good English. A minimum of footnotes have been added: if there should be a demand for it, a continuous explanatory commentary of considerable

(*) 2nd edition, 1865 : 3rd edition, reprinted without change, 1912 (Hachette et Cie, Paris).

interest could be written, giving parallels not only from Herodotus, Strabo, and other classical writers on Egypt, but also from the results of modern research.

The description of Egypt by Diodorus the Sicilian is contained in the First Book of his Universal History, or Historical Library, as he called it. Originally in 40 books, of which 15 are now extant,* this ambitious work aimed at giving a history of the world from the dawn of time down to the invasion of Gaul by Julius Caesar in 58 B.C. Born at Agyrium in the interior of Sicily, Diodorus lived in the 1st. century B.C., and published his History in the reign of Augustus. The latest event which Diodorus mentions is dated variously in the year 36 B.C., or 21 B.C.; thus we cannot say definitely when the History was published, whether about 30 B.C. or as late as 20 B.C., but at any rate Diodorus is to be classed as a writer of the Augustan age. His native language was Greek; but, since Sicily was a Roman province in the time of Diodorus, he had abundant opportunities of learning Latin from the Roman officials and traders with whom he might associate. He tells us (1.4.4.) that he had considerable facility in Latin; and accordingly, in order to prepare the materials for his History, for thirty years he made prolonged researches in the libraries of Rome, and travelled extensively in Europe and Asia, though with little result to his History as we have it. He visited Egypt at some time between 60 and 56 B.C., and is thus able to give personal recollections of what he saw. But, in the main, his account of Egypt is borrowed from previous historians, especially in large measure from Hecataeus of Teos or Abdera (3rd. century B.C.), and to a smaller extent from Agatharchides of Cnidus (2nd. century B.C.). Diodorus makes frequent mention of the sacred records, or Egyptian hieroglyphic documents, as if he were making scientific use of them in his History; but in fact he was ignorant of the Egyptian language, and these references to the priestly records were doubtless taken from his predecessor

(*) No quotation from Diodorus is found in any pagan author: Pliny the Elder knew the title of the Hisorical Library, but the survival of more than a third part of the History is due to Christian writers who were atracted by the theory of Divine Providence which Diodorus held.

Hecataeus. Thus Diodorus is to be regarded as a mere compiler, lacking all originality and independence of outlook; and the worth of his History depends altogether upon the value of the authorities whom he slavishly copied or abridged. Our chief debt to Diodorus is for the preservation of extracts from his predecessors, some of which might otherwise not have come down to us. He style is in general clear, though colourless: bombast is confined in the main to his prefaces, a charascteristic example being found in Book I.* Yet, at the end of this preface (1.5.2), Diodorus strikes a personal note with which we may sympathise: "For my own part, I trust that... my errors of ignorance may find correction from those who are better informed".

It is noteworthy that no papyri have as yet been found containing any part of the History of Diodorus, although one of his predecessors, Ephorus (4th. century B.C.), survived in a papyrus of about 200 A.D. found at Oxyrhynchus, and edited by Grenfell and Hunt (*The Oxyrhynchus Papyri*, XIII. 1610). In some books of his History Diodorus is deeply indebted to Ephorus, and "incorporates from him whole sentences or even chapters with little or no change", as Professor A.S. Hunt points out; yet Diodorus has the effrontery to say (1.39.13) that "no one can by any means look for accuracy in Ephorus, considering how he has disregarded truth on many occasions". It is a pleasure to note in contrast that in one passage Diodorus praises Herodotus as "an exceptionally assiduous inquirer, with wide experience of historical study" (1.37.4). One cannot help wishing that Diodorus might have learned from the Father of History how to entertain his readers; but the natural gifts of a fresh and inquiring mind, lively imagination, and skill in story-telling were denied to Diodorus, and few writers have been less inspired than he. Yet his encyclopaedic compilation, unoriginal and lacking in charm of style though it is, contains a great deal of value** it is quite

---

(*) This preface (I. 1-5) has been translated less literally and in more modern style by Professor Arnold J. Toynbee in his « Greek Historical Thought », pp. 29-36 (Dent, 1924).

(**) One striking confirmation of the old traditions preserved by Diodorus may be quoted. In Book IV. Chapter 79 Diodorus tells how the last King Minos of Crete, having made an expedition to Sicily, was there treacherously murdered by Cocalus and was buried

a mine of curious information, and this in itself is enough to justify the present attempt to make the Egyptian section of the Universal History easily accessible to English readers.

magnificently by his Cretan followers in a twofold sepulchre, the tomb itself being beneath the earth, while a temple of Aphrodite stood above it. At Knossos in 1931, Sir Arthur Evans, following the magic clue of a royal signet-ring, discovered a temple-tomb of the Priest-Kings, consisting of a subterranean tomb surmounted by a temple of the Great Mother Goddess of the Minoans.

DIODORUS SICULUS: THE HISTORICAL LIBRARY, BOOK I

I Those who have busied themselves with the writing of Universal Histories are entitled to deep gratitude from all men for having striven with personal toil to benefit the public at large. The profitable instruction which they present in their studies is free from hazard, while they provide their readers
2 with a most valuable experience. Personal acquisition of experience, in fact, involves many toils and hazards in discerning the most useful course; and therefore the most experienced of heroes (1) tasted great misfortunes when he "beheld the cities of many men and learned their mind". But the understanding which History gives of the failures and successes of
3 others, yields instruction without experience of woe. Now, historians have striven to comprise in one and the same treatise all mankind, who, though related to one another in origin, are far removed in place and time; and in this respect historians act as if they were born the agents of the divine providence. For the divine providence, having brought the orderly system of the visible stars and the characters of men into correspondence with one another, has the whole universe continually within its purview, apportioning to each man his lot in accordance with destiny. In the same way, historians, having recorded the action of men throughout the whole world as if it were a single state, have provided in their treatises a unified and oracular narrative of the past, accessible to
4 all. It is good to be able to use the blind mistakes of others as examples for correction of one's conduct, and with regard to the manifold happenings of life, to have, not an investigation of present events, but an imitation of past successes. Moreover, in deliberations all men value the aged more than the young, because of the experience which years have bestowed upon them. But the study of History goes as far beyond individual experience as it has the recognised advantage in the multitude of examples. Hence one may well regard the acqui-

(1) Odysseus : the quotation is from Homer, « Odyssey » 1. 3.

5 sition of historical knowledge as most profitable in all the
chances and changes of life. From History the young learn
the wisdom of the aged, and the old find their acquired exper-
ience many times increased. History makes private citizens
capable of command, and incites commanders by the prospect
of immortal fame to essay the noblest exploits. Besides this,
it makes soldiers the readier to face dangers on behalf of their
country through hope of praises after death; and it dissuades
the wicked, checking their impulse to villainy by the threat
II of an everlasting brand. Thus, in the hope of being mention-
ed with good repute in History, some men have been spurred
on to found cities, others to introduce laws safeguarding
society in general, while many have striven to invent arts and
sciences for the benefit of mankind. Since our happiness is
consummated by all these efforts, we must render the chief
meed of praise to History, which is mainly responsible for
2 them. History must be considered as a guardian of the virtue
of notable men, a witness against the vice of the ignoble, and
a benefactress of mankind in general. For, if legends about
Hades, with no foundation in fact, contribute much towards
the piety and justice of the world, how much more must we
conclude that History, the mouth-piece of Truth and the
very metropolis, as it were, of all Philosophy, can mould
men's characters more potently towards nobility and good-
3 ness? All men, in fact, through the frailty of human nature,
live for the merest fragment of all eternity and are dead for
ever after this life: in the case of those who have achieved no
notable deed during their lives, when their bodies perish,
everything else connected with their lives passes away with
them; but as for those whose virtue has won renown, their
deeds are remembered through all time, being proclaimed
4 aloud by the divine voice of History. Sensible men, I believe,
deem it good to gain immortal glory as a reward for mortal
toils. Heracles indeed, it is admitted, during the whole time
he spent among men, endured of his own free will great and
continuous toils and dangers, so that by benefiting mankind
he might win immortality. As for other good men, some gain-
ed heroic, others divine, honours; and all were deemed worthy
of high praises, while History immortalised their virtues.
5 Memorials in general endure but a short time, being destroy-
ed by various accidents; but the power of History, extending
over the whole world, enlists Time, which ravages all else,

as a guardian of lasting tradition for the benefit of posterity.
History, too, contributes to eloquence of speech, than which
6 no one can easily find a finer instrument. By this art Greeks
surpass barbarians, the learned are superior to the uneducat-
ed, and besides, by means of speech alone, it is possible for
one man to prevail over a mob. In general, every matter that
is presented to us takes its character from the power of the
orator; and we call good men "worthy of speech (or account)"
7 as having gained this high meed of excellence. Speech being
divided into several departments, it happens that poetry gives
pleasure rather than profit, legislation chastises without teach-
ing; and similarly, of the other departments, some contribute
nothing to happiness, some cause injury mingled with advan-
tage, others falsify the truth; but History alone, where speech
is in harmony with action, embodies in its writing all advan-
tages together. One may perceive History encouraging men
to justice, denouncing the wicked, eulogising the good, —
in short, providing readers with a most valuable experience.

III Wherefore, observing that those who have busied them-
selves with the writing of History justly win approbation, I
was led on to emulate a like design. So I gave close attention
to previous historians, and accepted, as far as was possible,
their plan of writing; yet I concluded that they had not ela-
borated their treatises as far as was advantageous and pract-
2 icable. For, although the benefit to the reader lies in under-
standing a multitude of the most varied circumstances, the
majority of historians have recorded wars complete in them-
selves, fought by a single nation or a single state; and only
a few have essayed to record the world's history from ancient
times down to their own days. Of these last, again, some did
not assign each event to its appropriate date, others neglect-
ed the deeds of barbarians: further, some historians rejected
ancient mythologies because of the difficulty of treatment,
while others failed to bring their enterprise to completion, for
3 Fate with fell clutch cut short their lives. Moreover, not one
of those who have formed the design of writing a universal
history has brought down his record beyond the Macedonian
epoch. Some have ended their composition with the deeds of
Philip (1), others with those of Alexander, and certain writ-

(1) Philip II., King of Macedon, 359-336 B.C. His son, Alexander the Great, succeeded him as King of Macedon, 336-323 B.C.

ers with Alexander's successors and their descendants.
Although many important events of the following period are
thus left unrecorded down to our own times, no historian has
ever made it his aim to treat them in the compass of a single
4 composition because of the magnitude of the task. Wherefore,
since dates and events are scattered apart in several treatises
by different authors, the period is difficult to grasp and to
5 remember. So, after examining the arrangement adopted by
each of these historians, I decided to undertake the type of
History which is potentially the most beneficial and the least
6 troublesome to the reader. For if a historian were to record
to the best of his ability the history, handed down by tradi-
tion, of the whole world as if it were a single state, from
remote antiquity to his own days, he would obviously endure
much toil, but he would compose the most profitable of all
7 treatises in the eyes of studious readers. Out of this treatise,
indeed, as if it were a deep spring, it will be possible for each
reader to draw freely what is serviceable to him in his parti-
8 cular circumstances. Those who set themselves to peruse the
accounts given by so many historians, find it difficult, in the
first place, to provide themselves with the necessary books:
next, because of the diversity and the multitude of the works,
the course of events is really hard to understand and master.
On the other hand, the work which is contained in the com-
pass of a single composition and shows a continuous sequence
of events, makes easy reading and is perfectly simple to follow
and understand. To sum up, we must consider this last type
of History to be as far superior to all others as the whole is
more profitable than the part, as continuity is better than a
scattered treatment, and as chronological accuracy has greater
value than a complete disregard of the dates of events.

IV Wherefore, realising that, while this plan of composition
is very profitable, it requires a long period of hard work, I
busied myself with it for thirty years; and enduring great
hardship and danger, I traversed a large part of Asia and
Europe in order to become personally acquainted with most
regions, certainly the most important ones. Through topo-
graphical ignorance, in fact, many blunders have been made,
not only by the average historian, but by some who have
2 attained a first-class reputation. To aid me in this enterprise,
I had first and chiefly my enthusiasm for the work, and it is

enthusiasm that carries all men to the accomplishment of
what appears to be impracticable; and I had, next, the abun-
3 dant supply in Rome of all that pertained to the subject in
hand. For the pre-eminence of this city, whose power extends
4 right to the ends of the earth, furnished me with many ready
facilities when I sojourned in it for a considerable time. As
a native of Agyrium in Sicily, having through association
with the Romans in that island gained considerable acquaint-
ance with their language, I acquired exact knowledge of the
whole history of the Roman Empire from the public records
5 preserved at Rome for many years back. I have begun my
History with the legends of Greeks and barbarians, after exa-
mining, as far as I could, the accounts given by each nation in
ancient times.

6 Now that my work is finished, although the volumes are
still, as a matter of fact, unpublished, I wish to write a brief
preface defining the whole work. My first six books embrace
the history and legends of the period before the Trojan
War (1); and of these the first three tell the ancient history
of the barbarians, the succeeding three for the most part that
of the Greeks. In the next eleven books I have recorded the
history of the world from the Trojan episode to the death of
7 Alexander. In the following 23 books I have set forth in
order all the remaining records down to the beginning of the
war between Rome and the Gauls, in which the general Gaius
Julius Caesar, whose deeds won for him the divine title,
defeated most of the Gallic tribes, and those the most warlike,
and advanced the empire of Rome as far as the British Isles.
The first events of this war took place in the first year (2) of
the 180th. Olympiad while Herodes was archon at Athens.

V These, then, are the periods comprised in this treatise.
I do not strictly define the part before the Trojan War,
because I have found no trustworthy system of dates for
those times; but from the Trojan War to the return of the
Heraclidae, I follow Apollodorus of Athens in reckoning 80
years, and from the latter date to the 1st. Olympiad (3),
328 years, computing the time from the reigns of the kings

(1) The traditional date of the Trojan war is 1192-1183 B.C.
(2) 60-59 B.C.
(3) Olympiad I. = 776-772 B.C.

of Sparta; and from the 1st. Olympiad to the beginning of the Gallic War which brings my History to its close, 730 years. Thus my whole work in 40 books covers 1138 years, apart from the time occupied by events before the Trojan War.

2 I have, then, defined these matters accurately beforehand in my desire to give the reader a conception of the whole design, and also to dissuade those who are accustomed to prepare books for publication, from spoiling another's work. For my own part I trust that what is rightly recorded throughout my History may arouse no envy, while errors of ignorance
3 may find correction from those who are better informed. Having now explained my purpose, I shall endeavour to make good my promise in the writing of my History.

VI Concerning the notions held about the gods by those who first introduced the worship of the divinity, and concerning the legends told about each of the immortals, I shall forgo a separate and detailed treatment, because this subject would require a lengthy account; but whatever I deem to be appropriate to the present studies, I shall append briefly, so that
2 nothing noteworthy may be missed. With the race of mankind, however, and the events that took place in the known parts of the world, as far as is possible in the case of times so remote, I shall deal accurately from the most ancient times onwards.
3 Concerning the creation of men in the beginning, then, two opinions are found among the most conservative of natural philosophers and historians. Some of these assume that the world was not created, nor is it liable to destruction ; and declare that the race of men likewise existed from eternity, and that there never was a time when men first began to exist. Others regard the world as having been created and as being liable to destruction, and affirm that, like it, men at the allotted time came to be created in the beginning.

VII At the primal formation of the universe, they say, heaven and earth had one and the same aspect, for their nature was mingled. Thereafter, when their substances had parted from one another, the world assumed the whole structure which is now visible in it, while the air took up continuous motion. The fiery element in it flew up to the highest regions, such a nature being liable to ascend because of its lightness. This is

the reason why the sun and the whole multitude of the stars
are involved in universal rotation. On the other hand, the
muddy and turbid element along with the substance of liquids
2 sank down together because of its weight. Concentrating
within itself continually and condensing, this element formed
sea out of the liquids, and out of the more solid parts, a land
3 still muddy and quite soft. First of all, when the fiery light
of the sun shone upon it, this land solidified; then, when the
heat caused the surface to ferment, part of the moisture swell-
ed up in many places, and putrid humours were formed there,
covered with thin membranes. This same process is even now
observed in swamps and marshy land, whenever the ground is
parched and the air suddenly becomes extremely hot, there
4 being no gradual transition. The moist elements, quickened
by the warmth, as I have explained, took nourishment
straightway during the night from the mist that descended
from the surrounding air; but in the daytime they were hard-
ened by the heat. Finally, when these germs had attained
their complete development, and the membranes had been
burned up and had broken off, there sprang up creatures of
5 every variety of form. Such of them as had assimilated the
greatest heat took wing and ascended to the upper regions:
those that clung to an earthy composition were classed among
creeping things and other terrestrial animals; while those that
had partaken most fully of the moist element hastened to the
region of similar nature, being styled floating (or swimming)
6 things. As the land was always being more and more hardened
by the fiery heat of the sun and by the winds, it was finally no
longer able to give birth to any of the greater creatures: ins-
tead, each race of living things was reproduced by intercourse
7 of one creature with another. It seems that Euripides, the
pupil of Anaxagoras the physicist, is not at variance with the
above acount of the nature of the universe. In the *Melanippe*
he puts it thus: "So Heaven and Earth were both one form;
but when they were severed one from the other, they brought
all things to birth forth into the light of day, — trees, fowls
of the air, beasts, and the nurslings of the briny deep, and the
race of mortal men".

VIII Such is the account I have received of the primal creation
of the universe. They say further that primitive men, living
a lawless and brutish life, went forth in scattered bands to

the pastures, and partook of the most agreeable herbs and the
2 natural fruits of the trees. When brute beasts made war on
them, they aided one another, prompted by self-interest; and
when fear herded them together, they came by degrees to
3 know one another's forms. Their speech was indistinct and
confused, but little by little they formed articulate words.
Then, arranging signs among themselves for all objects within
their ken, they made known to one another their ideas about
4 everything. As such groups came into being throughout the
whole world, all men did not speak the same language; for
each group had made up words at random. Hence arose all the
varied types of language, and the groups of primitive men were
5 the origin of all nations. The first men, then, lived laborious
lives, for none of the useful aids to livelihood had been invent-
ed: they were without clothes, unaccustomed to dwellings and
6 fire, and altogether heedless of cultivated foods. Being igno-
rant, in fact, of the harvesting of wild fruits, they made no
store of crops for their needs. So in winter-time many of them
7 would perish through cold and lack of food. But little by little,
being taught by experience, they would seek refuge in caves
during winter, and would lay by such fruits of the field as
8 could be kept. When they came to know fire and the other
useful aids, arts and crafts were gradually invented, and other
9 things capable of benefiting the life of man. In general, it
was Necessity alone that taught men all things : Necessity
gave appropriate guidance and instruction in each art to a
clever creature, provided with hands fitted for all work, and
endowed with speech and shrewdness of mind.

10 With regard to the primal creation of men and their
primitive life, I shall rest content with what I have said, for
IX it is my aim to preserve balance in my History. I shall now
endeavour to relate events which, according to tradition, have
2 occurred in the known regions of the world. As for the first
kings who ruled, I cannot myself tell of them, nor do I accept
the accounts of such historians as profess to know them. For
it is impossible that the invention of writing should be so old
as to be contemporary with the first kings. And if one should
grant even this, it is at any rate quite clear that historians as
3 a class have recently been introduced to the world. Claims to
antiquity of origin are made not only by Greeks, but also by
many barbarian races; for they all regard themselves as aut-

ochtonous and the first of all men to discover the useful arts
of life, and they hold that the events of their history were
4 deemed worthy of record from the remotest ages. For my own
part, I cannot discern the truth about the antiquity of each
nation, nor decide which people precedes the others in time,
and by how years. So the account given in each nation about its
antiquity and early history will here be recorded briefly, for
5 my aim is to preserve balance in my chronicle. I shall deal
first with barbarians, not that I regard them as more ancient
then the Greeks, as Ephorus has declared, but because I wish
to narrate beforehand the greater part of their history, so
that, when I begin my history of the Greeks, I may not
interpolate any extraneous event among the ancient legends.
6 It was in Egypt that the gods, as men fable, were born in the
beginning: there too, it is said, the earliest observations of the
stars were made; in Egypt also, many notable achievemnets
of great men are told in history. I shall therefore begin my
work with the history of Egypt.

X The Egyptians say that at the creation of the universe
in the beginning men first came into being in Egypt owing to
the happy climate of the country and the nature of the Nile.
This highly productive river, which provides food by natural
growth, easily maintains creatures once engendered. The root
of the reed, the lotus, the Egyptian bean, the *korsaeon* as it
called, and many other such plants (1) provide ready susten-
2 ance for the race of men. As an argument that in the beginn-
ing creatures were engendered in their land, the Egyptians
adduce the fact that even nowadays the land near Thebes at
certain seasons produces mice of such size and in such num-
bers that the beholders are astounded at the phenomenon.
Some of these mice are shaped as far as the breast and the fore
legs, and they are capable of motion; while the remainder of
body is unshapen, and the clod of earth remains still in the
3 natural state. From this it is evident, they say, that at the
formation of the universe in the beginning, when the earth
had become temperate, the land of Egypt must have held the

---

(1) For the lotus and the Egyptian bean, see below, 34. 6. The « Korsaeon » or « Korsion » is the tuber of the Nile water-lily, « Nymphaea stellata » : see Strabo XVII. 2. 4.

birth of mankind. For indeed, at present, the rest of the earth produces any such wonder: in Egypt alone is it possible to
4 watch certain creatures marvellously brought to life. In general, they say that, if it was only the greater part of living things that perished in Deucalion's time when the deluge took place, it is most reasonable that men living so far south as Egypt were saved, since their land would be rainless for the most part; or if, as some say, the destruction of living creatures was complete and the earth once more bore new species of animals, nevertheless, even according to this account, one may fittingly ascribe the primal creation of liv-
5 ing things to this land of Egypt. For when the abundant rain of other lands was combined with the heat that prevailed in their country, it is reasonable (they say) that the climate was excellently tempered for the creation of everything in the
6 beginning. Even yet, in our own times, throughout the inundated part of Egypt in the late season of the floods, one may see certain species of creatures being manifestly brought to
7 life. For when the river is receding and the sun has dried up the margin of the mud, animals are generated, they say, some fully developed, others half formed and adhering to the very soil.

XI Be that as it may, when the ancient Egyptians contemplated the world and gazed in astounded admiration upon the nature of the universe, they conceived that there were two eternal gods of the highest rank, the Sun and the Moon: the former called Osiris, the latter Isis, and both these names are
2 explained by etymology. For if translated into Greek, Osiris is "many-eyed"; and the obvious reason is that, as the sun darts his beams everywhere, he gazes, as if with many eyes, at all the land and sea. The words of Homer (1) agree with this view: "And the Sun, who oversees and overhears all
3 things". Some of the ancient Greek mythologists call Osiris Dionysus, or change the name slightly into Sirius. Among them Eumolpus says in his Bacchic verses: "Dionysus gleaming like a star, fiery in radiance"; and Orpheus: "Wherefore
4 men style him Phanes (2) and Dionysus". Some say, too;

(1) Homer, « Odyssey » XII. 323.

(2) Phanes, a mystic divinity in the Orphic system, symbolises the first principle of life.

that the fawnskin cloak which he wore comes from the star-embroidered heavens. The name of Isis, by interpretation, means "ancient", and is explained by her ancient birth and everlasting life. The horns which they set upon her, come both from the appearance which she is seen to present whenever she is crescent-shaped, and from the heifer which is con-
5 secrated to her among the Egyptians. They believe then, that these gods govern the entire universe, giving sustenance and increase to all things by means of three seasons which complete their cycle with imperceptible progress — Spring, Summer, and Winter. These seasons, although of widely different character, complete the year in perfect harmony. The greatest natural power for the generation of all living things is contributed by these deities — by the god, the power of fire and of spirit; by the goddess, that of the moist and the dry; by both together, that of the air. Through these elements all
6 things are begotten and sustained. Wherefore not only is the whole physical frame of the universe brought to perfection by the agency of sun and moon, but also these five parts of the universe-spirit, fire, the dry, the moist, and lastly the airy element: just as in the case of a man we enumerate head, hands, feet, and the other parts, in the same way (they say) the whole frame of the universe is composed of the above
XII elements. Each of these elements was regarded as a god and was given a particular and appropriate name by the earliest
2 of the Egyptians who used articulate speech. Thus they called spirit Zeus (so the word is interpreted); and as he is the cause of the vital element in living creatures, they regarded him as being, as it were, a Father of All. The most famous, too, of all Greek poets (1), they say, agrees with them when he refers to this god as "the father of men and of gods".
3 Their name for fire is, by interpretation ,Hephaestus; for they regarded it as a great god, contributing much to the
4 production and perfect increase of all things. Earth they took to be a kind of womb of all that grows, and they called it Mother. Similarly the Greeks called her Demeter, the world being slightly altered through time. In ancient days the name was Ge Meter (Earth-Mother), as Orpheus attests when he
5 sings: "Earth, Mother of all, Demeter giver of riches". As for the moist element, they say that the ancients named it

(1) Homer, in « Iliad » VIII. 49 and other passages.

Oceane which is by interpretation "nursing mother", but has
been supposed by some of the Greeks to be Oceanus, about
6 whom Homer sings: (1) "Oceanus, father of the gods, with
Mother Tethys". For the Egyptians consider Oceanus to be
their River Nile, beside which, they say, the generations of
the gods began. Egypt is the only country in the whole
world in which there are many towns founded by the ancient
gods, as, for example, by Zeus, Helios, Hermes, Apollo, Pan,
7 Eileithuia, and several others. As for Air, they are said to
have called it Athena (so the word is interpreted), and to have
regarded her as daughter of Zeus: they thought of her as a
virgin because the air is, in nature, uncorrupted, and holds
the highest place in the whole universe. Whence, they say,
8 she was fabled to have sprung from the head of Zeus. She was
called Tritogeneia, (or "thrice-begotten"), they say, from
changing her nature thrice every year, — in spring, in summer,
and in winter. She was also named Glaucopis, not, as some
of the Greeks have supposed, from having grey eyes (this is
indeed a silly notion), but because the air (or mist) has a
9 greyish appearance. They say that these five gods roam about
over the whole world, appearing to men in shapes of sacred
animals, but sometimes changing into the forms of men or
other creatures. And this (they add) is not legendary, but a
possible occurrence, since these gods are in truth the creators
10 of all things. The poet (Homer), too, went to Egypt and,
hearing such accounts from the priests, set this tale as a reality
somewhere (2) in his poem: "Yea more, gods in the semblance
of strangers from afar, put on all manner of shapes and roam
through the towns, beholding the violence and the righteous-
ness of men". Such, then, is the account the Egyptians give
of the gods in heaven, who are endowed with everlasting life.

11 From these gods, they say, terrestrial beings were born,
originally mortal men, but thanks to their wisdom and their
beneficence towards all mankind, they attained immortality,
2 and some of them became kings in Egypt. According to Egyp-
tian interpretation some had the same names as the heavenly
gods, while others took an individual title — Helios, Kronos,
Rhea, Zeus who is called by some Ammon, Hera, Hephaestus,

---

(1) « Odyssey » XVII. 485-7.
(2) « Iliad » XIV. 201 and 302.

Hestia, and lastly Hermes. First, they say, Helios was King of the Egyptians, having the same name as the heavenly orb.
3 Some of the priests, however, say that Hephaestus was the first king, being the inventor of fire and attaining sovereignty because of this service. A tree on the mountains was struck by lightning, and the forest near by began to burn. Hephaestus came up and, as it was the winter season, he was extraordinarily delighted with the heat. As the fire went down, he kept continually piling on wood; and while thus keeping in the fire, he called forth the other men to see his useful invention.
4 Next came the reign of Kronos, who married his sister Rhea and begat, according to some mythologists, Osiris and Isis, though the majority say Zeus and Hera, who through merit became rulers of the whole universe. From them were born five gods, one on each of the five intercalary days of the Egyptian year. The names of the deities thus begotten are Osiris,
5 Isis, Typhon, Apollo, and Aphrodite. Osiris, being interpreted, is Dionysus, and Isis most closely corresponds to Demeter. Osiris married her; and, succeeding to the sovereignty, did much to benefit the life of man.

XIV First they made the race of men cease from cannibalism. Isis discovered the harvest of wheat and of barley, which were growing up at random in the fields along with other plants, but were unrecognised by men, while Osiris devised the cultivation of these grains; then all men gladly changed their diet through joy in the nature of the discoveries, and also because it seemed advantageous to abstain from cruelty to one another.
2 As a proof of the discovery of these grains, the Egyptians refer to the practice observed among them from of old. Even at the present day in harvest-time men set up the first reaped ears of corn and beat their breasts as they stand beside the sheaf, invoking the name of Isis. This they do, rendering homage to the goddess for the discoveries she made in the beginning.
3 In some towns at the festival of Isis stalks of wheat and barley are borne along with the other objects in the procession, as a memorial of the original discoveries ingeniously made by the goddess. They say that Isis also set up laws, according to which men dealt justly with one another and ceased from law-
4 less violence and insolence through fear of punishment. Wherefore the ancient Greeks called Demeter the law-giver on the ground that laws were first established by her.

XV Osiris and his followers, they say, founded a hundred-gated city in the Egyptian Thebaid: this city they called Heraoplis from the name of his mother, but a later generation names
2 it Diospolis, and some call it Thebes. The foundation of this city is a subject of dispute not only among historians, but also among the Egyptian priests themselves. Many, in fact, maintain that Thebes was founded, not by the worshippers of Osiris, but many years later by a king of whose reign I shall
3 record events in detail under the appropriate dates. There was also built in honour of Zeus and Hera, the parents of Osiris and Isis, a temple notable for its size and its costliness, with two golden shrines of Zeus, the larger one of heavenly Zeus, the smaller of Zeus their father who had reigned as King, whom some call Ammon.

4 For the other gods already named, golden shrines were also prepared; and to each of these, ritual was assigned, and priests were appointed in charge. Just as to Osiris and Isis, tribute was paid to those who invented crafts, or made a useful scien-
5 tific discovery. Wherefore, after the discovery of mines of copper and gold in the Thebaid, weapons were forged by which men slew wild beasts, cultivated the earth, and vied with one another in civilising the country, and in providing magnificent
6 statues and golden shrines of the gods. Further, Osiris was a lover of husbandry, and was reared as the son of Zeus not far from Egypt at Nysa in Arabia Felix: so among the Greeks he bore the name Dionysus, derived from his father and the
7 place. The poet (Homer), too, in his *Hymns* (1) makes mention of Nysa as being near Egypt: he says: "There is a certain Nysa, a mountain most high and luxuriant with woods, far
8 off in Phoenice, hard by the streams of Aegyptus". He discovered the vine, they say, near Nysa, and having, in addition, devised the method of treating its fruit, he was the first to enjoy wine, and to teach the world how to plant the vine,
9 and also the use, the vintage, and the storing of wine. He paid honour most of all to Hermes, who was well endowed with a remarkable talent for devising what could benefit the life of man.

XVI It was, in fact, by Hermes that the speech of man was first made articulate, and many things hitherto nameless

(1) « Hymn to Dionysus » (I), vv. 8, 9.

obtained a name. To him belongs the invention of letters, and the institution of the worship and sacrifices of the gods. He was the first observer of the system of the stars and of the harmony and nature of articulate sounds; and he was the founder of the *palaestra* (wrestling-school), and gave heed to rhythmical movement and the proper development of the body. He made a lyre with three sinews for strings, following the three seasons of the year; for he conceived of three sounds, high, low, and medium, the high derived from Summer, the
2 low from winter, and the medium from Spring. He taught the Greeks the interpretation of tongues, whence they called him Hermes (the Interpreter). In general, the followers of Osiris, taking Hermes as their *hierogrammateus* (or sacred scribe), communicated all their secrets to him and followed his counsel implicity. The olive-plant was found by him, not, as the Greeks affirm, by Athena.

XVII Being beneficent and ambitious, Osiris, they say, gathered a great host, for he purposed to traverse the whole world and teach mankind the planting of the vine and the sowing
2 of crops of wheat and barley. For he considered that if he caused men to cease from savagery and change to a civilised life he would attain divine honours through the greatness of the benefaction. And this did indeed come to pass. For not only those at that time who obtained this boon, but men of after time also, out of gratitude for the newly discovered food, have honoured those who introduced it as gods most manifest.
3 However, Osiris, they say, having settled the affairs of Egypt, handed over the whole government to Isis his wife, and set at her side Hermes as counsellor because he surpassed all their friends in wisdom. As general over his whole dominions, he left behind him Heracles, his near kinsman, who was admired for his valour and strength of body. He also appointed two guardians — Busiris over the parts that lie sloping towards Phoenicia and the seaboard, Antaeus over the Ethiopian and Libyan borders. Then with his army he marched away out of Egypt on his expedition, taking along with
4 him his brother whom the Greeks call Apollo. Apollo was, they say, the discoverer of the laurel plant, with which all men wreathe this god in particular. The discovery of ivy they ascribe to Osiris, and they dedicate it to him, just as the Greeks
5 do to Dionysus. And in the Egyptian language the ivy is call-

ed, they say, the plant of Osiris, and has taken precedence over the vine in dedication, because the latter sheds its leaves, while the ivy remains green all the year round. In the case of other plants that are ever luxuriant, the ancients have taken the same course, assigning the myrtle to Aphrodite, and the laurel to Apollo.

VIII Be that as it may, along with Osiris on this campaign, they say, there went his two sons, Anubis and Macedon, who were pre-eminent in valour. Both of them had conspicuous armour, derived from animals not inappropriate to their bravery: Anubis wore a dog-skin helmet, Macedon a wolf's mask; and for this reason these animals were held in honour among
2 the Egyptians. Osiris also took on his expedition Pan who is worshipped exceedingly by the Egyptians; for in his honour they have not only made statues in every temple, but have also founded in the Thebaid a city named after him by the natives Chemmo, which, being interpreted, means "Pan's Town" (1). With Osiris there went also those who had practice in husbandry, Maron for his skill in the planting of the vine, and Triptolemus in the sowing of corn and all its harv-
3 esting. When everything was prepared, Osiris, having vowed to the gods to let his hair grow until he should return to Egypt, began his march through Ethiopia. This is the reason why the cult of long hair has prevailed in Egypt until recent times, and why those who travel abroad let their hair grow
4 until their return home. While Osiris was in Ethiopia, there were brought to him, they tell, the race of Satyrs who are said to have had hairy loins. Osiris, you must know, was a lover of mirth and had pleasure in music and dancing. So he took about with him a band of minstrels, among them nine maidens skilled in singing and trained in other accomplishments — the Muses, as they were called by the Greeks. Their leader, they say, was Apollo, hence named Musegetes (Leader
5 of the Muses). The Satyrs, too, being apt in dancing, singing, and all manner of relaxation and amusement, were taken on the expedition. Osiris, you see, was no warrior, nor did he organise battles and hazards, inasmuch as every tribe welcom-

(1) In Herodotus II. 91 the name of the town is given as Chemmis : it means the shrine of Chem or Min, who was usually identified with the Greeck God Pan. Akhmim is its modern name.

6 ed him as god because of his benefactions. In Ethiopia he
taught the people husbandry, and having founded noble cities,
he left men there to take charge of the country and exact
tribute.

XIX While they were thus occupied, the Nile, they say, at
the rising of Sirius, exactly when the river is wont to be in
flood, broke through and inundated a great part of Egypt;
and it covered in particular that area over which Prometheus
was in charge. When practically everyone in that district was
drowned, Prometheus in his grief was on the point of taking
2 his own life. Because of the rapidity and violence of the rush-
ing current, the river was called Eagle; and Heracles, a man
of great enterprise who strove after manliness, speedily filled
up the breach, and diverted the river into its original course.
3 Wherefore certain of the Greek poets turned the exploit into
a legend, making Heracles kill the eagle that fed on the liver
4 of Prometheus. In the most ancient times the river took the
name Oceanes, which is in Greek Oceanos; then because of
the flooding that occurred, it was, they say, called Eagle, and
afterwards the name Aegyptus was given to it from the ruler
of the country. The poet (Homer), too, bears witness when
he sings (1): "And in the River Aegyptus I stayed my
crescent-curving ships". The river debouches into the sea at
the place called Thonis, and this was the ancient port of
Egypt. The last name of the river — that which it now has —
5 it received from King Nileus. However, Osiris, on coming to
the frontiers of Ethiopia, confined the river by embankments
on both sides, so that, when the water rose high, the land
should not be flooded more than was expedient, but that the
stream should be admitted by degrees as need should arise,
6 through certain sluice-gates which he had provided. Then he
marched on through Arabia by the shore of the "Red Sea" (2)
7 as far as India and the limit of the known world. In India he
founded many cities; among them one called Nysa, for he
wished to leave behind him a memorial of the place near Egypt
where he had been brought up. He planted ivy in Indian Nysa,
and this is the only place in India and the adjacent country

(1) « Odyssey » XIV. 258.

(2) The Greek term « Red Sea » generally included the Persian Gulf and sometimes the Indian Ocean.

8 where this plant still grows. Throughout India he left many
other tokens of his sojourn, and these have induced a later
generation of Indians to lay claim to the god and allege that
he was an Indian by birth.

XX Osiris also engaged in elephant-hunting, and everywhere
left inscriptions relating to his expedition. He passed through
2 the other tribes of Asia, and crossed over the Hellespont into
Europe. In Thrace he put to death Lycurgus, the king of the
barbarians, who opposed his plans; and he left Maron, who
was now aged, to take charge of the plantations there. At his
3 bidding Maron became the founder of an eponymous town
called Maronea. Osiris also left his son Macedon as king of the
land called after him Macedonia, and entrusted Triptolemus
with the arts of husbandry in Attica. Finally, having travers-
ed the whole world, Osiris benefited the life of men by intro-
4 ducing highly cultivated crops. If any land was unsuited to
the vine-plant, he taught the inhabitants the use of the drink
prepared from barley, and little inferior to wine in fragrance
5 and strength. On his return to Egypt he brought with him
from all lands the most excellent gifts, and because of the
greatness of his services, he received from all without ques-
tion the rewards of immortality and honour like the heavenly
6 gods. Thereafter, when he was removed from earth to a place
among the gods, sacrifices and other splendid honours were
assigned to him by Isis and Hermes ,who also appointed rites
and inaugurated many mystic ceremonies, enhancing the
power of the god.

XXI Although the priests retained among their *arcana* the
ancient story of the death of Osiris (1), it came to pass at
length that certain of them revealed the secret to the common
2 people. Osiris, it is said, was the lawful king of Egypt, and
was murdered by Typhon, his violent and impious brother.
Dividing the body of the slain king into twenty-six parts, Ty-
phon gave a portion to each of his confederates, since he wish-
ed them all to share in the defilement, and thought that there-
by he would secure steadfast coadjutors and guardians of the
3 kingship. But Isis, the sister and wife of Osiris, avenged the

(1) About Osiris, Herodotus (II « passim ») preserves a religious silence. For the story, see Plutarch, « Is. et Osir. » 13-19, and Erman, « Handbook of Egyptian Religion », p. 32 ff.

murder with the active aid of her son Horus. She put to death
4 Typhon and his accomplices, and became queen of Egypt. The battle was fought on the river bank near the village now called Antaeus, which lies, they say, in the region over against Arabia and takes its name from Antaeus who lived in the time
5 of Osiris and was punished by Heracles. Be that as it may, Isis found all the parts of the body but his genitals. Wishing to conceal her husband's tomb, and yet to have it honoured by all dwellers in Egypt, she fulfilled her resolve in some such way as this. Round each of the parts, they say, she moulded
6 out of spices and wax a lifelike image, similar to Osiris in stature. She then summoned the priests class by class, and bound them all by oath not to reveal to anyone the charge that was to be entrusted to them. To each company of them in private she said that it was to them alone that she was assigning the burial of the body; and reminding them of the services rendered by Osiris, she exhorted them to bury the body within their own precincts, to honour Osiris as a god, to dedicate one of their animals, — any one they chose, — and while it lived, to honour it, just as they had previously honoured Osiris, and
7 after its death to deem it worthy of a funeral like his. Wishing to induce the priests to maintain these honours from motives of self-interest, Isis gave them one third of the country
8 for the worship and service of the gods. The priests, it is said, remembering the good deeds of Osiris and wishing to gratify the request of Isis, and, in addition, moved by the appeal to their self-interest, did everything in accordance with the
9 suggestion of Isis. Wherefore even to this day, each company of priests believes that Osiris is buried within its particular precinct: they honour the animals that were consecrated of
10 old, and when these die, the mourning for Osiris is renewed at their tombs. The sacred bulls called Apis and Mnevis, were consecrated to Osiris, and the worship of these as gods was
11 appointed for all Egypt in common. For these animals gave the greatest aid to the discoverers of corn-crops, both in sowing and in other agricultural tasks of common advantage.

XXII After the death of Osiris, Isis, they say, took an oath not to give herself in marriage again, and for the rest of her life she continued to rule as queen according to strict law, surpass-
2 ing all others in benefactions to her subjects. And when she likewise departed from among men, she attained immortal

honours and was buried in Memphis, where her sepulchre is pointed out to this day, standing in the precinct of Hephaestus.
3 But some say that the bodies of these two deities lie, not in Memphis, but near the borders between Ethiopia and Egypt on the island in the Nile that lies near the place called Philae and is named "Holy Plain" from the divine sepulture. As
4 proof of this they point to the tomb erected to Osiris and honoured by the priests of all Egypt: on this island the tomb
5 still remains, surrounded by its 360 urns. These are filled with milk every day by the priests appointed to the duty, amid lamentation and invocation of the names of the deities. For
6 this reason also, access to this island is forbidden to strangers. All the dwellers in the Thebaid, which is the oldest part of Egypt, deem it a most sacred oath to swear by Osiris who lies in Philae.

So the members of Osiris that were found were duly buried, they say, as has been related; but his genital organ which was thrown into the river, it is said, by Typhon because he wished none of the votaries to find it, was by Isis deemed worthy of divine honours like the other members. In the temples she provided an image of it, and appointed it for worship: during the ceremonies and sacrifices in honour of this god, she caused the image to receive the highest honour and
7 the greatest reverence. Wherefore the Greeks also, who borrowed from Egypt their orgiastic rites and Dionysiac festivals, honour this member both in the Mysteries and in the rites and ceremonies of this god (Dionysus): they call it the *phallus* (1).

XXIII From Osiris and Isis to the reign of Alexander who founded in Egypt the city that bears his name, the number of years was, they say, more than 10,000, but according to
2 certain writers, little short of 23,000. Those who claim that Osiris was born of Semele and Zeus at Boeotian Thebes are, they say, drawing a bow at a venture. For Orpheus journeyed to Egypt, and having been initiated in the ritual and Mysteries of Dionysus, he made them his own. Then, being a friend of the Cadmeans (2) and held in high esteem by them, he altered the account of the god's birth, seeking to gratify them.

(1) Cf. Herodotus II. 48. 2.
(2) The founders of Boeotian Thebes in Greece. According to Herodotus (II. 49. 3) Cadmus was a Phoenician from Tyre.

Partly through ignorance, partly because they wished Dionys-
us to be regarded as a Greek, the common people quietly
3 accepted these rites and mysteries. In thus altering the trad-
4 ition Orpheus used the following pretexts. Cadmus who came
from Egyptian Thebes had, among other children, a daughter,
Semele; and she, being violated by someone unknown, became
pregnant, and after the lapse of seven months gave birth to a
baby of such appearance as the Egyptians believe Osiris to
have had. Such a child is not usually born alive, whether it be
that the gods will not have it so, or that Nature does not
5 admit of it. On perceiving what had happened, being enjoined
by an oracle to maintain the ancestral rites, Cadmus covered
the babe with gold and performed the sacrifices appropriate to
him, as if an epiphany of Osiris had taken place among men.
6 He also ascribed the birth to Zeus, thereby magnifying Osiris
and removing the reproach from the violated maiden. Where-
fore among the Greeks also, the story was given out that
Semele, daughter of Cadmus, became the mother of Osiris by
Zeus. In later times Orpheus, who had great renown among
the Greeks for his singing, his rites, and his discourses about
the gods, became intimate with the Cadmeans and was held
7 in exceptionally high esteem in Thebes. Having acquired the
theological beliefs of the Egyptians, he transferred the birth
of the ancient deity Osiris to a later date; and to gratify the
Cadmeans, he established a new rite, in which he taught the
participants that Dionysus was begotten of Semele and Zeus.
Whether deceived owing to their ignorance, or giving heed
to Orpheus because of his reliability and repute in such matters,
the people, for the most part, gladly accepted the belief that
the god was Greek, as has already been said; and they accord-
8 ingly adopted the rites. Then, when the mythologists and
poets took over the story of the god's birth, they filled the
theatres with it, and it became a fixed and unchangeable belief
for men of a later age.

XXIV In general, they say, the Greeks appropriate to themselves the most eminent heroes and gods, not to mention settlements founded from Egypt. For instance, Heracles (1), who was of Egyptian birth, traversed in his manly strength a great part of the civilised world, and set up his inscription

(1) Compare Herodotus II. 43.

2 on the frontiers of Libya. With regard to this the Egyptians
endeavour to find proofs in the Greek story. For, while it is
admitted by all that Heracles aided the Olympian gods in their
war against the Giants, they say that it is altogether improb-
able that the earth had given birth to the Giants at the time
when according to the Greek story, Heracles was born, — a
generation earlier than the Trojan war, — but rather, as
they themselves say, at the primal creation of mankind. From
the creation, Egyptian reckoning gives more than 10,000
3 years; from the Trojan war, less than 1,200 years. Likewise,
the club and the lion's skin suit the ancient Heracles because
in those days weapons had not yet been invented, and so men
defended themselves with staves against their adversaries, and
used the skins of wild beasts as protective armour. The Egyp-
tians declare Heracles to be son of Zeus; but who his mother
4 was, they say they do not know. The son of Alcmene, on the
other hand, was born more than 10,000 years later, and was
called Alcaeus at birth; then afterwards his name was changed
to Heracles ("Hera-renowned"), not because he had "renown"
through "Hera", as Matris says, but because he emulated
the same career as the ancient Heracles and inherited both his
5 renown and his appellation. In harmony with their assertions
is the tradition current among the Greeks from ages past,
that Heracles freed the earth from wild beasts. Now this is
by no means applicable to the hero who was born practically
at the time of the Trojan war, when most parts of the inhabit-
ed world had been civilised by agriculture, cities, and wides-
6 pread population. This civilising of the land, then, is more
appropriate to the Heracles who was born in ancient days,
while men were still overmastered by the multitude of wild
beasts, especially in Egypt and the upper region which is to
7 the present day desert and infested by wild beasts. It is rea-
sonable that Heracles, taking thought for this district which
was his native-land, should free it from wild beasts, hand it
over to the husbandmen, and for this service obtain divine
8 honour. They say that Perseus (1), too, was born in Egypt,
and that the birth of Isis was transferred to Argos by the
Greeks, who tell the story of Io (2) metamorphosed into a
cow.

(1) Cf. Herodotus II. 91.
(2) Cf. Herodotus II. 41.

XXV In general, there is a great divergence of opinion about these gods. The same goddess is called by different men Isis, Demeter, Thesmophoros (the Lawgiver), the Moon, and Hera;
2 while all these titles are used by some. Osiris is named Sarapis, Dionysus, Pluto, Ammon, and sometimes Zeus; while many identify him with Pan. Some say that Sarapis is the deity named Pluto in Greece. Egyptians declare that Isis is the inventress of many elixirs for good health, and has great
3 experience in medical science. Wherefore, having attained immortality, she takes the greatest joy in healing the sick; and in dreams she gives remedies to those who ask for them, clearly manifesting her own presence and her beneficence
4 towards her petitioners on earth. In proof of this they bring, they say, not myths like the Greeks, but manifest acts. Almost the whole world bears witness for the Egyptians nations, vying with one another in doing honour to her, because of
5 her manifestation of divine power in healing men. Standing near them in dreams, she gives to the sick relief from their diseases, and those who gives heed to her are miraculously cured. Many men who have been given up in despair by doctors because of the seriousness of their illness, are saved by Isis; and not a few who have been completely blinded, or maimed in some member of the body, are restored to their original con-
6 dition after having recourse to this goddess. She discovered also the elixir of immortality; and by means of this, when her son Horus was plotted against by the Titans and was found a corpse under water, she not only raised him from the dead by giving him the breath of life, but also secured for him the
7 gift of immortality. It is agreed that he was the last of the gods to become king after the translation of his father Osiris to heaven. Horus, by interpretation, is Apollo, they say: being instructed by his mother Isis in the arts of medicine and divination, he was a benefactor of the human race through his oracles and his healing of the sick.

XXVI Reckoning up the time from the reign of Helios (the Sun) to Alexander's invasion of Asia, the Egyptian priests affirm
2 that it is approximately 23,000 years. In their myths they say also that the most ancient of their gods reigned as kings for more than 1,200 years, and their successors for not less
3 than 300. As this great number of years is incredible, some men attempt to explain that of old, before the earth's mov-

ement round the sun was recognised, it was the practice to
4 reckon the year by the moon's period. As the year was thus
30 days long, it is not impossible that some men lived for 1200
years; inasmuch as now, when the year is 12 months long, not
5 a few men live over 100 years. They give a similar explanation
also about those who are reputed to have ruled for 300 years.
In those days, they say, the year was made up of 4 months
which comprised the term of each season (*hora*), such as
Spring, Summer, and Winter. For this reason, by some of
the Greeks the years are called "horoi" (periods or seasons),
and yearly records are styled "horographiai" (annals or chron-
icles).

6 Moreover, according to Egyptian myths, about the time
of Isis there were born certain many-bodied creatures who
were called Giants by the Greeks: on the temple-walls the
Egyptians depicted them in prodigious array, being smitten
7 by the followers of Osiris. Some, however, maintain that the
Giants were born of Earth at the time when the birth of liv-
ing things from the earth was recent: others affirm that,
because the Giants excelled in strength of body and accom-
plished many great deeds, they were on this account fabled to
8 be many-bodied. It is generally agreed, however, that hav-
ing undertaken war against Zeus, Osiris, and their attendant
gods, the Giants were all slain.

XXVII Contrary to the universal usage of men, the Egyptians
may marry their sisters, and this practice was ordained by law
because of the success that Isis attained among them. She,
indeed, lived in wedlock with her brother Osiris, and on his
death she vowed never to accept union with any man. Then
she avenged her husband's death and continued to rule as
queen according to strict law; and, altogether, she was the
2 cause of numerous great blessings to all men. For these rea-
sons, you must know, the custom was introduced that the
queen should have greater power and honour than the king;
and that among the common people the woman should have
authority over her husband; for in contracts relating to dowry
the bridegroom adds a promise to be obedient to his bride in
all things.

3 I am well aware that certain historians declare that the
tombs of these deities are extant at Nysa in Arabia, from

which Dionysus was named Nysaeus; and that there is also
in honour of each deity a pillar inscribed with sacred charact-
4 ers. The Isis-pillar is inscribed thus: "I am Isis, queen of the
whole land, she who was brought up by Hermes; nor can
anyone loose the laws that I have ordained. I am the eldest
daughter of Cronus, the youngest god. I am wife and sister
of King Osiris. I am she that first discovered fruit for man's
use. I am mother of King Horus. I am she that rises with the
dog-star. In honour of me was the city of Bubastis built.
5 Hail, Egypt! Hail, land that nurtured me!" The Osiris-pillar
is said to be inscribed as follows: "My father is Cronus, young-
est of all gods, and I am Osiris the King, who went with a
host over the whole world even to the desert regions of India,
to tracts that slope to the North, as far as the springs of the
River Danube, and again to other lands as far as Ocean. I
am the eldest son of Cronus, and, born from an egg fair and
noble, I became a seed of kindred birth with Day. Nor is
there a region of the world which I have not visited, while
lavishing upon all men the blessings of which I was the dis-
6 coverer". So much of the inscriptions on the pillars, they
say, can be read, but the remainder which is longer has been
obliterated by Time. Divergent accounts, therefore, of the
burial of these deities are current among the common people,
because the priests, having received among their *arcana* the
exact record of the divinities, do not choose to divulge the
truth to the multitude, on the ground that perils would befall
those who should reveal to the public the *arcana* of these
deities.

XXVIII Thereafter, the Egyptians say, numerous colonies were
planted from Egypt broadcast over the whole world. For ins-
tance, Belus, who was believed to be the son of Poseidon and
Libya, led settlers to Babylon. He established himself beside
the River Euphrates, and appointed priests, who were, like
those in Egypt, free from taxes and exempt from all public
duties. These priests whom the Babylonians name Chaldeans,
make observations of the stars, imitating the Egyptian priests,
2 natural philosophers, and astronomers. They say also that Da-
naus (1) and his followers set out likewise from Egypt and

(1) Herodotus (II. 91) also refers to the Argive tradition that Danaus who was a descendant of Perseus came from Egypt to Greece.

founded Argos, which is perhaps the most ancient of the Greek cities, and that the tribe of the Colchians in Pontus and the race of the Jews between Arabia and Syria were settl-
3 ed by emigrants from Egypt. So it comes that among these races the practice of circumcising boys at birth has been handed down from of old, this usage having been transferred from Egypt. The Athenians, too, are alleged to be a colony from
4 Sais in Egypt; the Egyptians say so, and try to give proofs of this relationship. For instance, in no other Greek state is the city called *asty,* this term being transferred from the Egyptian Asty (near Sais). Further, their constitution has adopted the same system and division as in Egypt, where there
5 are three classes. The first is composed of those called Eupatridae (the Nobles), who have been most assiduous in education and have been deemed worthy of the greatest honour, like the priests in Egypt. The second class is that of the landowners who were bound to possess arms and wage war for the state, like the class of farmers in Egypt which provides the fighting men. In the last class come the artisans who practise the mechanical arts and perform the essential public duties:
6 in Egypt the corresponding class does exactly the same. Certain of the Athenian generals, too, were Egyptians: for instance, Petes, the father of Menestheus who took the field against Troy, was obviously of Egyptian origin, but afterwards obtained both citizenship and kingship at Athens.
7 [The same is told of Cecrops (1), also, who] was born with a double nature: the Athenians could not, for reasons of their own, give the true cause of this characteristic, but it is common knowledge that, as he was citizen of two states, Greek and barbarian, he was regarded as of two natures, half man, half beast.

XXIX Similarly, they say, Erechtheus, an Egyptian (2) by birth, became King of Athens; and they give some such proofs as these. When severe droughts, as is generally agreed, occurred over almost the whole world, and destruction came upon crops and population alike, except in Egypt because of its peculiarly fine climate, Erechteus, through his kinship with the

---

(1) There is a gap here in the original : the following words certainly refer to Cecrops, the ancient king of Athens, who was said to be part man, part serpent.

(2) This is not an old tradition, but a late invention.

Athenians, brought a supply of corn from Egypt to Athens. In return, the grateful Athenians appointed their benefactor
2 as king. On assuming the sovereignty, he instituted the rites of Demeter at Eleusis and celebrated the Mysteries, transferring the practice of these from Egypt The tradition has been handed down that about this time the epiphany of the goddess took place in Attica, on the reasonable ground that the fruits called after her name (cereals) were then imported into Athens, and for that reason it was thought that the discovery of the seed was made anew, as at the beginning, by the gift of
3 Demeter. The Athenians agree that, in the reign of Erechtheus when the fruits of the field were destroyed through lack of rain, the epiphany of Demeter took place among them, accompanied by the gift of corn. Further, the rites and mys-
4 teries of this goddess were then established at Eleusis. In regard to sacrifices and ancient ceremonies (they say) the Athenians and the Egyptians are alike. The Eumolpidae, indeed, derive from the Egyptian priests, the Kerykes (or heralds) from the shrine-bearers. Alone of the Greeks, the Athenians swear by Isis; and in their opinions and customs
5 they bear the closest resemblance to the Egyptians. With many other statements similar to these, based on national pride, as it appears to me, rather than on strict truth, the Egyptians lay claim to Athens as their colony because of the fame of the city. In general, the Egyptians allege that their ancestors sent out numerous colonies to many parts of the world owing both to the pre-eminence of their rulers and to
6 the excess of their population. But since no accurate proof is brought forward, and no reliable historian bears witness to these statements, I judged that the accounts were not worth recording. So much must suffice concerning the Egyptian stories of the gods, since I aim at balance in my History. I shall try now to give in brief a description of the land of Egypt, the Nile, and other features worthy of remark.

XXX Egypt lies chiefly towards the south, and in advantage of situation and beauty of scenery it is reputed to be far
2 superior to all kingdoms. On the west it has the barrier of the Libyan desert, infested by wild beasts: this desert extends for a great distance; and because of its dearth of water and scarcity of food, it is not only toilsome, but also extremely dangerous, to cross. In the southern regions are the cataracts

of the Nile, and such of the mountains as march with these.
3 From the land of the Troglodytes (1) and the frontiers of Ethiopia for a distance of 5,500 stades (2), it is not easy either to sail on the river or to travel on foot without a royal
4 or exceedingly great equipment. Of the regions that lie to the east, some are protected by the river, others are surrounded by the desert and the swampy plains called Barathra (or Pits.) For between Coele Syria (3) and Egypt there is a marsh, quite narrow but of prodigious depth, extending for a distance of 200 stades, called the Serbonian Bog (4), which offers
5 unforeseen perils to inexperienced travellers. Its bed is narrow like a ribbon, and great sandbanks stretch out on all sides; and when south winds blow without ceasing, a quantity of
6 sand is strewn over the lake. This covers the surface of the water, and makes the shape of the lake continuous with dry land and altogether indistinguishable from it. Wherefore, many who were ignorant of the peculiar nature of the region have vanished along with whole armies through missing the
7 path before them. For the sand, even if lightly trodden, gives way beneath, and deludes the traveller with a kind of malice prepense, until, forming a suspicion of what will be his fate, he tries to save his life, although there is no longer any poss-
8 ibility of flight or safety. For he who is being swallowed up by the swamp is unable to swim, since the mud impedes the movement of his body, nor has he strength to extricate himself, having nothing solid for a foot-hold. The sand, you see, is mixed with water, and therefore the nature of both is altered; thus the region is impossible alike for marching and for
9 sailing. Wherefore travellers in these parts who sink into the

---

(1) The Troglodytes (« Cave-dwellers ») are defined by Strabo (I. 2. 34) as « that tribe of Arabians who live on the shore of the Arabian Gulf next to Egypt and Ethiopia ».

(2) About 700 miles (1 stade = 1 furlong).

(3) Cœle Syria (« Hollow Syria ») is properly the valley between the two ranges of Lebanon and Anti-Lebanon.

(4) Herodotus also refers (II. 6) to the Serbonian Marsh, but without describing it. Cf. Milton, « Paradise Lost », II. 592 ff.

« A gulf profound as that Serbonian bog
Betwixt Damiata and Mount Casius old,
Where armies whole have sunk. »

A modern description of the region (with a photograph) may be found in « Yesterday and To-day in Sinai » by Major C. S. Jarvis (Blackwood, 1931), pp. 176 ff.

depths have no chance of rescue, since the banks of sand slide down along with them. Such is the nature of these plains which have found the appropriate name of Pits.

XXXI Now that I have described the character of the three landward regions that protect Egypt, one remains to be added.
2 The fourth side, then, faces the Egyptian Sea, and is washed, for practically all its length, by harbourless waters. The coastline is a very long one, and there is difficulty of safe landing. From Paraetonium in Libya as far as Iope in Coele Syria, a distance along the coast of approximately 5000 stades,
3 one can find no secure haven but Pharos. Apart from this a ribbon of sand extends along practically the whole of Egypt,
4 invisible to inexperienced voyagers. Wherefore men who think they are safe from the danger of the deep and are joyfully, in their blindness, putting in to land, suddenly find their vessels running aground, and they suffer unexpected shipwreck.
5 Some, indeed, being unable beforehand to distinguish the low coastline, are shipwrecked before they realise it, either on swampy regions with stagnant pools or on a deserted strand.

6 Egypt, then, is naturally defended on all sides, as I have described it. It is oblong in shape: while it has a sea-board of 2000 stades, it extends inland for approximately 6000 stades. In population it was, of old, far in excess of all the known regions of the world, and in our days too, it is reputed to be
7 inferior to none. In ancient times it had more than 18,000 notable towns and villages, as one can see recorded in the sacred archives; and in the reign of Ptolemy the son of Lagus (1), more than 30,000 were enumerated, the majority of which have continued in existence down to our own times.
8 The number of the whole people long ago is said to have been
9 about 7 millions; and in ours time too, not less. Wherefore, thanks to the multitude of hands, it is told, the ancient kings of Egypt erected great and marvellous works, and left behind them immortal memorials of their renown. But these I shall describe in detail a little later: I shall now give an account of the nature of the river and the unique features of the country.

(1) Ptolemy I. (Soter) ruled over Egypt, 323-285 B.C. It is significant that it was in his reign that Hecataeus of Teos or Abdera visited Egypt : from Hecataeus, Diodorus probably borrowed his reference to this census.

XII The Nile flows from south to north, and its sources lie in unseen regions, situated in the desert on the farthest boundary of Ethiopia, — a district which is inaccessible by reason
2 of the extreme heat. The greatest of all rivers, it forms great windings in its course through a long stretch of territory, sometimes turning towards Arabia in the East, at times deviating towards Libya in the west. The length of its course from the Ethiopian mountains until it debouches into the sea
3 is roughly 12,000 stades, if we include the windings. In the southern regions it is increasingly diminished in size, as the
4 water is withdrawn towards both continents. Of the two streams that separate, that which turns in the direction of Libya is swallowed up by sand of an incredible depth, whereas the other, flowing in the opposite direction into Arabia, turns aside into vast marshes and great lakes with many tribes
5 dwelling around them. Once it has entered Egypt, it is in some places 10 stades broad, in others less than that: it does not flow in a straight line, but makes all kinds of windings. At times it wheels to the east, again to the west, and occasion-
6 ally to the south, completely reversing its course. For hills stretch along the river on either side, covering a great part of the bank and diversified by ravines and narrow rocky defiles. When the stream strikes against these, it rushes quickly back through the level plain, and after flowing towards the South over a sufficient space, it settles down once again into its
7 natural course. Possessing such a superiority in all respects, this river is the only one in the world that flows along without violence or rushing waves, except at the so-called Cataracts.
8 For there is a stretch about 10 stades long where the river flows down a steep place, confined by crags into a narrow gorge, all rugged and full of chasms, with many huge boulders like cliffs. As the current is somwhat violently divided round these rocks, and is often forced by obstacles to reverse its
9 course, amazing whirlpools are formed. As a result of the back-wash of the water, the whole of the middle region is filled with foam, to the great amazement of travellers. For the river rushes down with such rapidity and violence as to seem
10 no less swift than an arrow. During the flooding of the Nile, when the cliffs are submerged and the whole rugged region is covered by the mass of water, some men sail down the cataract, taking advantage of contrary winds, but no one can sail upstream; for the force of the river baffles human ingen-

uity. There are indeed several such cataracts but the greatest
is that on the frontiers of Ethiopia and Egypt.

XXXIII In its course also the river forms islands, especially near
Ethiopia. Among them there is one large island called Meroe,
in which there is indeed a notable town, of the same name as
the island, founded by Cambyses who called it after his mother
2 Meroe. This island, they say, resembles in shape an ablong
shield, while in size it far surpasses the other islands in these
parts. Its length is said to be 3000 stades, its breadth 1000
stades. It contains not a few towns, the most famous of them
3 being Meroe. In the direction of Libya along the whole river-
side of the island, there stretches a line of immense sand-
banks; towards Arabia there are rugged crags. In the island
there are also mines of gold, silver, iron, and copper; and
besides these a quantity of ebony and precious stones of all
4 kinds. In general the river forms an incredibly large number
of islands. For apart from the land surrounded by the Nile in
the region called Delta, there are more than 700 islands:
some of these are irrigated by Ethiopians, and bear crops of
millet; others, being infested with snakes, dog-faced baboons,
and all kinds of monsters, are therefore inaccessible to man.

5 In Egypt, however, the Nile divides into many parts,
6 and forms what is called from its shape the Delta. Its sides
are described by the branches of the river, while its base is
7 completed by the sea which receives their outflow. The Nile
debouches into the sea through seven mouths (1): the first,
facing the East, is called Pelusiac, the second Tanitic, then
come the Mendesian, the Phatnitic, the Sebennytic, the Bol-
bitine, and lastly the Canopic, which some name Heracleotic.
8 There are also other mouths which are artificial, but there is
no urgent need to write about them. Upon each stands a
fortified town, divided by the river, and diversified on either
side of the estuary with bridges and well-planted guard-posts.
From the Pelusiac mouth an artificial canal runs to the Ara-
9 bian Gulf and the Red Sea. It was Necos, son of Psammet-

---

(1) Cf. Herodotus II. 17. 4 : the second from the East (the Tanitic) is called by Herodotus « Saitic », the fourth from the East (the Phatnitic) is named « Bucolic ».

ichus, who first attempted to construct this canal (1): then Darius the Persian carried on the work and, after making
10 some progress, finally left it uncompleted. For he was informed by certain men that if he cut a canal through the isthmus, he would cause Egypt to be inundated. They pointed out that
1 the Red Sea stood at a higher level than Egypt. Afterwards the second Ptolemy (2) completed the canal, and at the most suitable place he devised an elaborate lock. This he would open whenever he wished to sail through; then he would promptly close it again, and the operation was successfullly
2 accomplished. The river that flows through this canal is named Ptolemaic after its maker; and at its mouth it has the town called Arsinoe.

V Now the Delta, which resembles Sicily in shape, has each of its sides 750 stades in length, and its base which is
2 washed by the sea, 1300 stades. This island is traversed by many artificial canals, and contains the finest land in Egypt. Being composed of alluvial soil, and watered by the river, it yields many crops of all kinds; for at its annual rising, the river always deposits fresh mud, and the inhabitants easily water it all by means of a contrivance invented by Archimedes
3 of Syracuse and called from its shape "the snail" (3). As the Nile flows along gently, carrying down much soil of all kinds, and leaving pools in the hollow places, marsh-meadows of
4 great fertility are formed. Therein grow roots of every sort of flavour, and peculiar kinds of fruits and herbs, contributing
5 much to the sustenance of the needy and the sick. For not only do these furnish varied fare, ready and abundant, to all who are in want, but they also yield no small supplies of the
6 necessaries of life. The lotus (4) grows there in profusion,

(1) Cf. Herodotus II. 158. Necos (Necho or Nekaw), 609-593 B.C. : Darius I., 521-486 B.C. The statement of Herodotus that Darius completed the canal is corroborated by inscriptions found between the Bitter Lakes and the Red Sea and now preserved in the museum at Ismailia. Diodorus is wrong also in saying that Necho's was the first attempt : a canal was constructed there in the XIXth Dynasty by Sethos I. (1326-1300 B.C.), but it had silted up by the time of Necho.

(2) Ptolemy II. (Philadelphus), 285-246 B.C.

(3) The well-known screw of Archimedes (3rd century B.C.) : see Diodorus V. 37, Strabo XVII, I. 30, 52.

(4) Herodotus (II. 92. 2) describes how loaves were made from the lotus, « Nymphaea Lotus ».

from which the Egyptians prepare loaves that can satisfy the
natural need of the body; and the *ciborium* (1) which is found
in the greatest abundance bears the Egyptian bean, as it is
7 called. There are also several species of trees. the *perseae*, as
they are called, have a fruit of surpassing sweetness, the tree
having been imported from Ethiopia by Persians at the time
8 when Cambyses conquered those parts. Of the fig-mulberry
trees, some bear mulberry fruit, others a fruit like figs; and
as it is produced during practically the whole year, the result
9 is that the needy have a ready refuge from distress. What
are called blackberries are gathered when the river sinks, and
10 because of their natural sweetness are eaten as dessert. From
barley, too, the Egyptians prepare a drink which, in frag-
rance, is little inferior to wine: this they call *zythos* or beer.
11 To burn in their lamps, instead of olive oil they pour in and
use juice extracted from a certain plant, and known by the
name of *kiki* (2) or castor oil. Many other plants which can
satisfy the essential needs of men grow abundantly in Egypt,
but it would be tedious to write about them.

XXXV Among the many beasts of extraordinary form which the
Nile rears, there are two conspicuous species — the crocodile
2 and the so-called horse (or hippopotamus). Now the croco-
dile (3), very small to begin with, grows to a huge size; for
this creature's eggs are like those of a goose, whereas the
3 hatched crocodile will attain a length of 16 cubits. It is long-
lived compared with man, and it has no tongue. Its body is
marvellously fortified by Nature; for its hide is altogether
composed of horny scales of extraordinary hardness, both its
jaws are furnished with many teeth, and it has two tusks, far
4 surpassing the teeth in size. It eats the flesh, not only of men,
but also of such other land creatures as approach the river.
Its bite is powerful and dangerous, and with its claws it gives
cruel wounds: any gash made in the flesh is quite impossible
5 to heal. In ancient times the Egyptians used to hunt croco-
diles by means of hooks baited with swine's flesh; later on,

---

(1) « Ciborium » is the fruit, or rather the seed-vessel, of the « Nymphaea Nelumbo » or Egyptian bean.

(2) For « Kiki » see Herodotus II. 94 : it is the juice of the castor-oil plant, « Ricinus communis.

(3) See Herodotus II. 68-70, Aristotle « Historia Animalium » V. 33. The crocodile has a tongue, but it is very small.

at one time they used thick nets as some men catch fish, while at other times iron harpoons were rained from skiffs to strike
6 the crocodile on the head. There is a countless number of crocodiles in the river and the adjoining lakes; for they are prolific, and are seldom killed by men. The majority of the natives, indeed, have the custom of worshipping the crocodile as a god; while in the eyes of foreigners crocodile-hunting is
7 altogether unprofitable, since its flesh is not edible. Nevertheless, as crocodiles multiply to the danger of men, Nature has provided an effective remedy. The *ichneumon* (1), as it is called, a creature like a small dog, goes about smashing the eggs which the crocodile lays at the river-side, and — most astonishing of all — although the *ichneumon* neither devours the eggs nor is benefited in any way, it continues active in the performance of a natural and necessary duty for the service of
8 mankind. The animal called "river-horse" (2) is no less than 5 cubits long: it is a quadruped with cloven hooves like an ox, and has tusks larger than the wild boar's, three on each side. It resembles the horse in its ears, tail, and voice; but its whole body is not unlike an elephant's, and its hide is stouter
9 than that of almost any other animal. Being amphibious, it spends its days in the water, exercising in the depths, while at night on land, it grazes on corn and grass, so that if this creature were prolific and bore offspring every year, it would
10 completely devastate the tilled lands of Egypt. This animal, too, is caught by a multitude of men who strike it with iron harpoons, Wherever the creature is seen, they collect boats to attack it, and having surrounded it, they wound it with a kind of chisel at the end of a harpoon; then, fastening the end of a rope to one of the weapons implanted in its body, they slacken.the rope and wait until the monster is exhausted by
11 loss of blood. Its flesh, however, is tough and indigestible; and none of the inward parts is edible, neither entrails nor intestines.

---

(1) The ichneumon (called « ichneutes » by Herodotus II. 67 : both words mean « tracker ») is an animal like a weasel : see Aristotle « Hist. Anim ».

(2) Cf. Herodotus II. 71, Aristotle H. A. II. 7. The hippopotamus has not cloven hooves, nor a horse's tail : it is practically hairless.

XXXVI Besides the animals mentioned, the Nile contains all
kinds of fish in incredible numbers. The natives not only enjoy
abundant supplies of fresh fish, but are furnished with a
2 never-failing stock for salting. In general, the Nile surpasses
all the rivers in the world in its services to men. Beginning to
rise in the summer solstice, it increases until the autumnal
equinox; and always bringing new mud, it irrigates the land,
— the fallow land as well as the seed-land, and that planted
3 with trees — for as long a time as the cultivators wish. For,
as the water comes up gently, they easily turn it aside by
means of low dikes; and again with little effort, they admit
the water by destroying these dikes when they deem it ad-
4 vantageous. Indeed, the river makes agriculture so easy and
so profitable that the majority of the farmers stand by as their
fields are drying up, and while sowing the seed; they drive
in their herds to tread it down (1): then four or five months
later, they return for the harvest. Some farmers, however,
use light ploughs to scrape the surface of the inundated land;
and after wards they gather up their crops in heaps with little
5 expense and trouble. Among other nations, all the work of
farming in general is carried out with great hardship and
expenditure: in Egypt alone it demands very little labour and
expense. Vineyards, similarly watered, yield an abundance of
6 wine to the native cultivators. Some allow the inundated land
to dry up, and leave it as a grazing place for their flocks; and
because of the richness of the pasture, the sheep bear twice
a year, and are twice shorn to their owners' profit.

7 The phenomenon of the flooding of the Nile is marvellous
to an eyewitness, and altogether incredible to one who merely
hears the tale. For whereas all other rivers dwindle about the
summer solstice, and always shrink further during the succeed-
ing period of the summer, the Nile alone begins its rising at
that time and increases so much every day that finally it inun-
8 dates almost the whole of Egypt. In the same way, when it
changes again and does the reverse, for an equal period it
shrinks every day little by little until it reaches its previous
state. Since the country is a level plain, and the towns,

(1) Herodotus (II. 14. 2) says that swine were driven into the fields to tread down the seed : this statement is confirmed by the monuments, which also show sheep performing the same task.

villages, and farm houses stand upon artificial banks, its
9 appearance resembles the Cyclades (1). The majority of the
land animals are caught by the flood and drowned in the
depths; but some save their lives by fleeing to the higher
ground, while the flocks are fed during the period of the
rising in the villages and farm-houses where fodder is stored
10 for them beforehand. All the time of the inundation, the
people, released from labour, turn to recreation, feasting in-
cessantly and indulging without let or hindrance in every
11 thing that pertains to pleasure. Because of their anxious
interest in the rising of the river, a Nilometer has been con-
structed by the kings at Memphis. Those in charge of this
instrument measure the rising accurately on it, and send out
letters to the towns, informing them how many cubits or
finger's breadths the river has risen and when it has begun
12 to decrease. By some such method as this, the whole people
are released from their anxiety, when they learn of the
change from increase to decrease; and they all straightway
foretell the amount of their future crops, for this observation
has been accurately recorded in Egypt for many years.

XXXVII Since the flooding of the Nile presents a difficult problem,
many philosophers and historians have attempted to explain
its causes, and I shall speak of them briefly, so as neither to
make long digressions nor to leave untouched the question
2 which all seek to investigate. In general, with regard to the
rising and the sources of the Nile, its outflow into the sea,
and the other characteristics that distinguish this, the great-
est river in the world, from all other rivers, some chroniclers
have simply not ventured to say anything, although accustom-
ed to expatiate at times about some ordinary winter torrent;
while others have set themselves to speak of the questions in
3 dispute, but have strayed far from the truth. The followers of
Hellanicus, Cadmus, Hecataeus, and all such writers, belong-
ing to quite ancient times, have resorted to fabulous explana-
4 tions. Herodotus, who was an exceptionally assiduous inquirer,
with wide experience of historical study, has attempted to give
an explanation of these phenomena; but he is found to have
followed conflicting theories. Xenophon and Thucydides, who

(1) Cf. Herodotus II. 97. 1, Strabo p. 788.

are commended for the truth of their histories, have refrained
altogether from describing the land of Egypt. The schools of
Ephorus and Theopompus have devoted themselves most
earnestly to this task, but with least success in attaining to the
truth. The complete failure of all these writers is due, not to
5 carelessness, but to the peculiar character of the country. From
ancient times down to Ptolemy surnamed Philadelphus, so far
from any Greeks having penetrated into Ethiopia, they did
not even advance to the frontiers of Egypt: so inhospitable and
altogether dangerous were these regions. The above-mention-
ed king was the first to make an expedition with a Greek army
into Ethiopia, and a more accurate knowledge of that country
6 was gained from that time on. Such, then, were the reasons,
as it happened, for the ignorance of earlier historians. As for
the sources of the Nile, and the region where it begins to flow,
no one down to the writing of these Histories has claimed
to have seen them, nor has given hearsay evidence from any
7 who affirm for certain that they have seen them. Thus the
question is left to supposition and plausible conjecture. The
priests of Egypt claim that the Nile finds its origin in the
stream of Ocean (1) which girdles the world, yet there is no
truth in their tale: they merely solve one problem by posing
another, and bring forward as proof an argument which itself
8 needs strong proof. Those of the Troglodytes who removed
from the upper reaches because of the heat, — the Bolgii by
name, — say that in those parts there are certain indications
from which one would infer that many springs meet in one
place and form the river Nile. Hence (they say) it is the most
9 highly fertilising of all known rivers. The inhabitants of the
island called Meroe, with whom one might most readily agree,
since they are least likely to indulge in plausible and ingen-
iously invented explanations, and they live very near to the
regions under discussion, are so far from giving any exact
account of these questions that they have called the river Ast-
apus, which, being interpreted into Greek speech, means
10 "water of darkness". Because of their want of observation of
those regions and their own ignorance, they have applied to
the Nile a peculiar name of their own. In my opinion the

(1) Herodotus (II. 21, 23) refutes this theory, which he probably quoted from Hecataeus of Miletus.

truest account is that which is farthest removed from the fict-
11 itious. I am not unaware, however, that Herodotus, who distinguishes Libya to the E. of this river from Libya to the W., ascribes the accurate investigation of the stream to the Libyans named Nasamonians (1), and says that the Nile rises in a certain lake and flows through an untold stretch of Ethiopian territory. But neither to the Libyans who told the tale, if indeed they spoke the truth, nor to the historian who gives no proof of his statements, can credence at once be given.

XXXVIII Having now spoken about the sources and course of the
2 Nile, I shall try to give the causes of its flooding. Thus Thales (2), one of the seven Wise Men, says that the etesian winds blow against the mouths of the river and prevent the stream from pouring out into the sea: hence the river rises and
3 inundates Egypt which is a low-lying plain. Although this account appears plausible, it is easily proved to be false. For if the above statement were true, all rivers that have their mouths facing the etesian winds would rise in like manner; but as this happens in no other part of the world, we must
4 seek elsewhere the true explanation of the flooding. Anaxagoras the natural philosopher (3) asserted the cause of the rising to be the melting of snow in Ethiopia, and this view was adopted by his disciple, the poet Euripides, who says indeed (4): "Leaving the fairest stream on earth, the Nile which flows in flood from the land of the dark-skinned Ethio-
5 pians whenever the snow melts"... As it happens, this assertion does not need much refutation, for it is evident to all that, owing to the excessive heat, it is impossible for snow to fall
6 in the neighbourhood of Ethiopia. In these regions, in short, there is neither frost nor cold nor indeed any indication of winter, especially at the time of the Nile's rising. Even if

---

(1) The Nasamones (Herodotus II. 32 f.) dwelt on the shore of the Greater Syrtis in N. Africa.

(2) Thales, the Ionian philosopher, of the 7th and 6th centuries B.C. His theory is refuted by Herodotus (II. 20. 2). The estesian winds are the regular N. W. winds which blow in summer from the Mediterranean.

(3) Anaxagoras, another philosopher of the Ionian school, of the 5th century B.C. — already mentioned above (7. 7). His theory, which is very near the truth, is rejected by Herodotus (II. 22).

(4) Fragment 230 : cf. Aeschylus fr. 304 (300 : 161 in the Loeb edition).

one were to admit that there is an abundance of snow in the high lands of Ethiopia, nevertheless the assertion is proved to
7 be false. Admittedly, every river that flows from snow gives off cold currents of air and produces mist. The Nile is the only river about which there are no dense clouds nor cold airs nor
8 mists. Herodotus says (1) that the Nile is normally as great as it becomes at flood-time; but in winter-time the sun, in its course over Libya, attracts to itself much moisture out of the Nile, and therefore at such times the river becomes smaller
9 than its natural size. When summer comes on, the sun withdraws in its orbit to the North, drying up and diminishing the rivers of Greece and those of other countries which are simil-
10 arly situated. The phenomenon of the Nile, therefore, (he says) is no longer surprising: for the river does not increase in the heat of summer, but it diminishes in winter-time, for the
11 reason given. Now in reply to Herodotus, it must be said that it would be reasonable that, just as the sun in the winter season attracts to itself the moisture from the Nile, so it should also take up part of the water of the rivers of Libya as well,
12 and shrink the flow of their streams. But since no such phenomenon is observed anywhere in Libya, manifestly the historian is detected as talking at random. For the rivers of Greece have their rising in winter, not because the sun is farther distant, but because of the amount of the rainfall. Demo-
XXXIX critus of Abdera says that it is not the region towards the South that is covered with snow, as Euripides and Anaxagoras have said, but the northward region; and this is evident to
2 all. The vast drifts of snow in the North remain frozen (he says) at the winter equinox; but in summer when the ice is thawed by the heat, there is a general melting, and this gives rise to many thick clouds in the more elevated regions, where
3 the vapour is borne upwards in abundance. These clouds (he continues) are driven by the etesian winds, until they strike upon the highest mountains in the world, as he declares the mountains of Ethiopia to be. Then, colliding violently with these high mountains, they produce very heavy rains, which flood the river (he says), just at the time of the etesian winds.
4 It is easy to refute this philosopher also, by examining attentively the times of the rising. For the Nile begins its flood at

(1) Heroodtus II. 25 : cf. Aristophanes « Clouds » 272.

the summer equinox, before the etesian winds begin to blow;
and it subsides after the autumnal equinox, when those winds
5 have long since ceased to blow. Whenever, therefore, the
truth of experience prevails over the plausibility of the account,
one must admit the philosopher's ingenuity, while refraining
6 from giving credence to his statements. I pass over the fact
that one may find the etesian winds blowing quite as much
from the West as from the North. For it is not only the north
winds (Boreas and Aparktias), but also the north west winds
blowing from the summer setting, that come under the common name of etesian winds. Further, the statement that the
mountains of Ethiopia are really the highest in the world is
not only incapable of proof: it does not even command the
7 credence that is granted to self-evident truths. Ephorus,
again, adducing an altogether new reason, aims at plausibility in his account, but he is observed to miss the truth completely. He says that the whole of Egypt is alluvial and porous, like pumice stone in character, with great continuous
cracks; and through these the soil absorbs a great quantity of
moisture. During the winter season, it holds this moisture
within it; but in summer-time it exudes the moisture everywhere like streams of sweat, and these streams swell the river.
8 This writer, it seems to me, so far from having observed the
nature of the land of Egypt, has not even learned carefully
9 from those who know the characteristics of this country. In
the first place, if the Nile received its increase from Egypt
itself, it would not swell in its upper reaches where it flows
through rocky, barren country. As a matter of fact, flowing
as it does for more than 6000 stades through Ethiopia, it rises
10 in flood before touching Egypt. Next, if the bed of the Nile were
lower than the crevices of the alluvial soil, there would appear
on the surface the cracks in which it was impossible for so
great a mass of water to be held. But if the river flowed at a
higher level than the crevices, it would be impossible that
the waters should flow together from the lower hollows on to
11 the higher area. In short, who can consider it possible that
exudations from these crevices in the earth can make such
increase in the river that practically the whole of Egypt is
inundated by it? I pass by the false assertions about the alluvial soil and the waters lodged in the crevices, since the
12 error here is manifest. In Asia, for instance, the river Meander has made a large tract of alluvial land, in which no single

one of the phenomena connected with the Nile's overflow is
13 observed to take place. Similarly, in Acarnania, the river
Achelous, as it is called, and in Boeotia the Cephisus which
flows out of Phocis, have formed large alluvial areas, in both
of which the historian's statement is plainly disproved. How-
ever, no one can by any means look for accuracy in Ephorus,
considering how he has disregarded truth on many occasions.
XL Certain of the philosophers at Memphis have attempted to
account for the Nile's rising by an explanation which is not
so much plausible as impossible to disprove, and many have
2 given their assent to it. They divide the world into three
parts, and state that one of these is the part which we inhabit,
another is that which experiences the opposite seasons from
ours, while the third lies between these two and is uninhabit-
3 ed owing to heat. If, then, the Nile rose during the winter
season, it would be clear that it finds its increase in our zone,
since it is just about this time that heavy rains fall with us.
But since, on the contrary, it floods about summer-time, it
is plausible (they say) that storms arise in the Antipodes, and
that the excess of the water that falls in those regions is borne
4 into our part of the world. This (they say) is why no one can
approach the sources of the Nile, since the river flows from
the Antipodes through the uninhabited zone. These theories
are attested by the excessive sweetness of the Nile water.
Flowing through the torrid zone, it is softened by boiling,
and therefore the Nile is the sweetest of all rivers; for the fiery
5 element naturally sweetens all moisture. To this explanation,
however, there is a refutation ready at hand: it seems to be
altogether impossible that a river should flow up from the
Antipodes into our zone, especially if it be granted that the
earth is spherical. For, even if one is overbold in argument
and does violence to manifest truth, the nature of the facts
will by no means permit the theory. In short, by placing the
uninhabited region in the middle, they propose an explanation
difficult to disprove; and in this way they think to escape all
6 accurate examination. But it is right that those who maintain
bold theories on certain subjects should either furnish manifest
proof thereof or make use of conclusions which have from
the first won assent. How can it be that the Nile is the only
river to flow from that part of the world to our regions?
Probably there are other rivers also, corresponding to those
7 in our parts. The reason alleged for the sweetness of the water

is altogether absurd. For if the river became sweet through
boiling in the heat, it would not be productive of life, nor
would it maintain varied kinds of fish and animals. All water
whose nature has been changed by the fiery element is altog-
8 ether alien to the creation of living things. Therefore, as the
nature of the Nile is completely opposed to the suggested
theory of boiling, one must regard the above causes of the
XLI flooding as erroneous. Oenopides of Chios (1) points out that
in the summer season subterranean water is cold, but in winter
on the contrary it is warm: this is evident in the case of deep
wells. In the depth of winter the water in them is far from
cold, while in the greatest heat very cold water is drawn.
2 Wherefore (he says) it is reasonable that in winter the Nile
shrinks and is small, because the heat in the earth absorbs
the greater part of its moisture, and no rains fall in Egypt.
But in summer, when there is no longer any absorption of
water in regions deep down, the natural flow of the river
3 swells (he says) without let or hindrance. In reply, it must
be said that many rivers in Libya with their mouths similarly
situated and flowing in like direction, have no rising analog-
ous to that the Nile. On the contrary, they swell in winter
and dry up in summer; and thus prove the falsity of this
4 attempt to combat Truth by plausibilities. The writer who
has come nearest the truth is Agatharchides of Cnidus (2). He
maintains that every year on the mountains of Ethiopia there
are continuous rains from the summer solstice to the autumnal
5 equinox. It is reasonable, therefore, that the Nile should
shrink in winter when it has its natural flow from its springs
alone, and swell in summer owing to the rains that pour into
6 it. If no one up to the present has been able to give the causes
of these rains, it is not right (he says) that his particular ex-
planation should be rejected. For Nature offers many contra-
dictions; and their causes it is not possible for men to discover
7 accurately. His own statements (he says) are attested by what
happens in certain regions of Asia. On the frontiers of Scythia
where they border on the Caucasus Mountains, every year

---

(1) Oenopides, a distinguished astronomer and mathematician (see below, 98.. 3), was probably a contemporary of Anaxagoras in the 5th century B.C.

(2) Agatharchides of Cnidus (2nd century B.C.) wrote several historical and geographical works (e.g. « On the Red Sea », « On the Troglodytes »).

when winter is already past, there are extraordinarily heavy
falls of snow continuing for many days; and in the northern
parts of India, at definite times hailstones of incredible size
and quantity come dashing down. Near the river Hydaspes
at the beginning of summer there are continuous rains, and
some days after, the same thing happens in Ethiopia; and
these climatic conditions, always encircling the whole region,
8 cause wintry weather there. It is therefore not at all surpris-
ing (he says), if in Ethiopia which stands higher than Egypt,
continuous torrents of rain among the mountains pour down
in summer and swell the river, especially as the manifest fact
9 is attested by the natives who dwell in these regions. Al-
though their statements are at variance with our experience,
one must not on that account disbelieve them. For the south
wind, which is for us a stormy wind, in Ethiopia brings a
clear sky: and in Europe breezes from the North are invigor-
ating, whereas in that country they are sluggish and mild.

10 With regard, then, to the flooding of the Nile, although I could use greater variety of argument in criticising all these theories, I shall be satisfied with the above account, so as not to overstep the limit of brevity which I laid down to begin with. And since I have, on account of its bulk, divided this book into two parts, in order to preserve balance in my work, I shall here conclude the first part of my historical inquiries, and set forth in the second part the continuation of my history of Egypt, beginning with the account of the kings of Egypt and life in Egypt in the most ancient times.

AN EARLY ARABIC TRANSLATION FROM THE GREEK.

By A. J. Arberry.

It is well-known that, during the second half of the second century of the Hijra, and especially under the patronage of the Caliph Al-Ma'mun (A.H. 198-218), there was a demand among learned Arabs for translations to be made of the works of many famous Greek authors: and that this impetus to translate continued strong throughout the whole of the third century. During this period, a very great number of most valuable translations were made, translations which were destined to play an important role in the history of Muslim philosophy and science.

Comparatively little appears to have survived of the work done by this school of translators: for the most part, our knowledge of the very titles of the books translated depends on references made by later Arabic writers, notably, Muhammad ibn Ishak the author of Kitabu 'l-Fihrist, Jamal al-Din al-Kifti, Ibn Abi Usaybia, and Hajji Khalifa. The most authoritative modern account of these translations is that given by the German scholar Steinschneider in two monographs entitled "Die arabischen Ubersetzungen aus dem Griechischen", and published at Leipzig in 1888 and 1892.

It is therefore an event of considerable importance, when a manuscript of any of these translations comes to light. A manuscript has recently been discovered at Istanbul, which contains a number of translations made from the Greek by different authors: among these is the translation which forms the subject of this paper; it has become available to the present writer though a photograph of the manuscript now in the possession of the Library of the Egyptian University (No. 90).

The author of this translation is Ishak ibn Hunayn, the son of the more famous Hunayn ibn Ishak, who died in the

year 298: the translation was corrected and re-edited by Thabit ibn Kurra (d. 288).

In one respect this translation is unique, in that the original Greek from which it was translated is now lost. The title-page of the manuscript describes the work as "The Book of Plants of Aristotle: the commentary of Nicolaus, translated by Ishak ibn Hunayn, with the corrections of Thabit ibn Kurra". The history of this work is somewhat romantic. The Arabic version was translated into Latin in the thirteenth century by a certain Englishman named Alfredus, and from this Latin a Greek version was made later, which is now included in the Corpus of Aristotle (1). The first scholar to investigate and establish the nature of the treatise was E. H. F. Meyer (2); he showed that the Greek version as known from the manuscripts was is reality three times removed from the original work, which he held to be the composition of Nicolaus Damascenus, who lived in the latter half of the fifth century A.D.; and he published the Latin version of Alfredus. The Greek text was published by O. Apelt in the Teubner series in 1888. In his introduction he writes, "De plantis qui sunt libri duo tam viles sunt, ut taedeat quidquam in eos operae impendere". The Latin version of Alfredus was translated into English by E. S. Forster.

In now publishing the Arabic version of the lost Greek original, it is hoped to be able to go one step further towards establishing a correct text. This paper contains only Book I of the Arabic, and an Appendix noting the variations exhibited by this text as compared with the published Greek. The Latin version of Alfredus has not been available to the writer, but he has used the anonymous Latin version published by Bekker (Berlin, 1831). In a later number of the Bulletin it is hoped to publish the second book of the Arabic, and then a complete table of comparison with both the Latin and the Greek versions, and a Commentary.

The foliation is that of the Istanbul M.S., while the division into chapters follows that established by Bekker.

---

(1) « The Works of Aristotle translated into English », Vol. VI. No. IV De Plantis, by E. S. Forster, Introduction. (Oxford, 1913).

(2) Nicolai Damasceni de plantis libri duo Aristoteli vulgo adscripti. Lipsiae 1841.

المقالة الاولى

من كتاب ارسطوطاليس فى النبات

تفسير نيقولاوس ترجمة اسحاق بن حنين باصلاح ثابت بن قرة (١)

١ — قال الفليسوف ارسطوطاليس أن الحياة موجودة فى الحيوان والنبات غير أن حياة الحيوان بينة ظاهرة وحياة النبات خفية غامضة يحتاج فيها الى بحث واستقصاء حتى يوصل الى سبيل الحق فيها ليت شعرى للنبات نفس وقواها كالقوة الشهية والقوة المميزة للغم واللذة أو ليس له شيء من ذلك أما انكساغورس وهمفدوقليس (٢) فزعما أن للنبات شهوة وحسا وغما ولذة فزعم انكساغورس أنه حيوان وانه يفرح ويحزن وزعم أن دليله على ذلك انتثار ورقه فى حينه وأما همفدوقليس فزعم أن ذكوره واناثه مختلطة وأما أفلاطون فقال أن للنبات قوة الشهوة فقط وذلك لاضطراره الى الغذاء وان صح للنبات قوة الشهوة وجبت له اللذة والحزن والحس فليت شعرى نوم ويقظة للنبات وذكور واناث أو شيء يجتمع من الذكر والأنثى على ما زعم همفدوقليس أم ليس له نفس فان كثرة الاختلاف الواقع فى نفس النبات مما يخرجنا إلى البحث الطويل عن جميع حالاته وأصلاح الأشياء قطعة ونفى للشك عنا فيه لئلا يحتاج فى ساير الاشياء الى بحث طويل ومن الناس
100 a § من قال ان للنبات نفسا لما رأي من توالده واغتذائه ونمائه وشبابه وهرمه اذا لم يجد فى شيء من هذه الأشياء التى لا نفس لها مما يشارك النبات فى هذه الأشياء وإن وجبت هذه الاشياء للنبات وجبت له الشهوة أيضا والواجب علينا أن نتكلم فى الاشياء الظاهرة ثم نتكلم فى الاشياء الخفية فنقول أن الشيء المغتذى له شهوة وهو يجد اللذة عند الشبع والاذاء عند الجوع وهذه الحالات انما تكون مع الحس فقد صح أن رأى الذى زعم أن للنبات حسا وشهوة رأى عجيب فاما انكساغورس وهمدوقليس وديمقراطيس فزعموا أن للنبات عقلا وفهما الا أن ينبغى لنا أن نمسك عن هذه الأقاويل القبيحة ونبدأ بالقول الصحيح ليس للنبات حس ولا شهوة لأن الشهوة انما تكون بالحس ومنتهى (٣) أراداتها راجع اليه ولسنا نجد للنبات حسا

(١) وهو مقالتان (٢) بزعما (٣) كذا فى الاصل والاصح أرادتنا فانظر الى الشرح

ولا عضوا حاسا ولا متألما ولا صورة محدودة ولا ادراك شيء ولا حركة ولا (١) نهوضا الى المحسوس ولا دليلا يوجب له الحس كالدلايل التى أوجبت له الاغتذاء والنماء وانما يصح له بجزء الاغتذاء والنماء (٢) جزء من أجزاء النفس فان وجدنا للنبات دليلا أوجب له جزءا من أجزاء النفس وبطل عنه الحس فما ينبغى لنا أن نقول أن له حسا لأن الحس هو سبب صفاء الجبلة وأما الغذاء فهو نمو حياة الحى وعيشته لأن الغذاء رئيس العيش فأما الحس فهو رئيس صفاء الحياة وما وقعت هذه الاختلافات الا فى مواضعها لأن معرفة الشيء المتوسط بين الحياة وعدمها صعب جدا ولعل قليلا يقول إن كان النبات ذات حياة فهو حيوان وقد يصعب علينا أن (٣) يوجد للنبات رئيس § 100 b سوى رئيس حياة الحيوان فأما الذى يدفع أن يكون حيا لا حس له فقد (٤) نجد فى الحيوان مالا معرفة له ولا عقل على أن الطبيعة مقللة بحياة الحيوان بالموت ومثبتة لأجناسه بالتولد والتناسل ومع هذا فانه يسمح أن (٥) نضع بين مالا نفس له وبين ماله نفس شيئا بتوسطها نحن نعلم أن خراطيم الماء والأصداف حيوان لا معرفة له ولا عقل وأنه نبات وحيوان فما الذى حمل الناس على أن سموه حيوان إلا لسبب الحس فقط وذلك أن للاجناس أن تعطى أنواعها أسماءها وحدودها فأما الأنواع فلا تعطى أنواعها إلا (٦) اسمائها فقط وينبغى أن يكون الجنس من أجل سبب واحد والا يكون من أجل أسباب كثيرة ووجود السبب الذى من اجله صح (٧) الجنس صعب جدا ومن الحيوان حيوان ليس له أنثى ومنه ما ليس له نتاج ومنه ما لا حركة له ومنه ما هو متلون مختلط ومنه ما يلد مالا يشبهه ومنه ما (٨) ينمو فأما الذى هو ابتداء حياة هذا الحيوان وما يخلص جنس الحيوان الكريم من الشك العظيم كالذى يجد ذلك فيما يحويه السماء من الكواكب وغير ذلك لأنه ليس خارج السماء شيء محسوس ساس (٩) شيء عليه وكذلك فى الشمس وفى جميع الكواكب وذلك لأنها غير واقعة تحت الألم والحس هو الألم وانفعال فى الحس وليس للنبات حركة فى ذاته لأنه مربوط بالأرض والأرض غير متحركة بما ذا نفس الحياة وبما ذا يشبهها ما (١٠) نجد لها (١١) شيئا عاما ولكن ينبغى لنا أن نقول أن العام للحياة هو الحس لأن الحس هو المميز للحياة من الموت § 101 a وأما السماء فلان لها رئيسا أكرم وأجل من رئيسنا فهى متباعدة عن هذه الأشياء

(١) نهوض (٢) جزو (٣) يوجد (٤) يجد (٥) نضع (٦) اسماؤها (٧) الحس
(٨) ينموا (٩) سى (١٠) يجد (١١) شى

لا يجامع فيها لكثرة أفعاله ومن الناس من يظن أن النبات تام كامل من أجل القوتين اللتين له ومن أجل 102 b § غذائه المعد ولطول ابقائه ومدته وأنه اذا أورق وولد دامت له حياته وعاد اليه شبابه ولم يتولد فيه شيء من الفضول والنبات مستغن عن النوم لاسباب كثيرة وذلك لأن النبات منتصب مغروس فى الأرض مربوط بها وليس له حركة من ذاته ولا لأجزائه (١) حد محدود ولا له حس ولا حركة ارادية ولا له نفس كاملة بل انما له (٢) جزء من اجزائها والنبات انما خلق من أجل الحيوان ولم يخلق الحيوان من أجل النبات وان قلت إن النبات محتاج الى غذاء خسيس ردى فانه يحتاج منه الى شيء (٣) كثير قايم غير متصل غير منقطع وان صح أن للنبات على الحيوان فضل وجب أن يكون الاشياء الغير متنفسة اكرم من الاشياء المتنفسة وفعل من أفعال الحيوان أفضل وأشرف (٤) من النبات وقد نجد للحيوان جميع فضايل النبات وفضايل كثيرة معها وقد اصاب همفدوقليس فى زعمه أن النبات تولد والعالم ناقص لم يستتم كامله فلما كمل وتم تولد الحيوان غير أنه ما قال قولا مستقيما لأن العالم بكليته ازلى دايم لم يزل يولد الحيوان والنبات وكل نوع من انواعها وفى كل نوع من أنواع النبات رطوبة وحرارة غريزية فاذا فقدها مرض وفسد وجف ومن الناس من سمى هذا فسادا ومنهم من لا يسميه ذلك

٣ . — ومن الشجر ماله صمغ كالراتينج واللوز والمر والكندر والصمغ العربى ومن الشجر ماله عقد وعروق وخشب وقشر (٥) ولحم داخل ومنه ما أكثره قشور ومنه ماثمرته تحت قشوره . ومن أجزاء الشجرة اجزاء بسيطة كالرطوبة الموجودة فيه والعقد والعروق 103 a § ومنها ماهو مركب من هذه الاشياء مثل ساير ما فى الشجر من الأغصان والقضبان وغير ذلك وليس هذه الأشياء كلها موجودة لجميع النبات بل منه ماله هذه الاجزاء ومنه ماليس له شيء وللنبات اجزاء غير هذه مثل الاصول والقضبان والورق والأغصان والزهر والفقاح والاستدارة والقشر الذى يحوى الثمار وكما أن فى الحيوان أعضاء متشابهة الأجزاء كذلك فى النبات أيضا وكل (٦) جزء من أجزاء النبات نظير لعضو من أعضاء الحيوان لأن قشر النبات نظير لجلد الحيوان وأصل النبات نظير للحم الحيوان والعقد التى فيه نظيرة لأعصاب الحيوان وكذلك سائر الاشياء التى فيه وكل جزء من هذه الأجزاء تتجزأ على جهة لاجزاء (٧) متشابهة

(١) حدا (٢) جزءا (٣) كسر (٤) انظر الى الشرح

وينبغى أن يكون للحيوان الكامل والناقص أمر يعمهما أعنى وجود الحياة وعدمها وليس ينبغى لأحـد ان يزوغ عن هذه الاشياء لانه ليس له متوسط بين المتنفس وغير المتنفس ولا بين الحياة وعدمها ولـكن بين الحياة والمتنفس واسطة لأن الغير متنفس هو مالا نفس له ولا جزء من اجزائها فأما النبات فليسَ هو بغير ذى نفس وذلك لان فيه جزءا من اجزائها ولا هو حيوان أيضا لان ليس له حس وهومنتقل من الحياة الى عدمها قليلا قليلا كالذى فى ساير الأشياء. ولنا أن نقول ان النبات متنفس على جهـة أخرى أو لا نقول أنه غير متنفس ان كان ذا نفس والحيوان هو ذو نفس كاملة وأما النبـات فهو شىء غير كامل والحيوان محدود الأعضاء وأما النبات فغير محـدود للطبيعة وللنبات طبيعة خاصية من أجل الحركة التى فى ذاته وللقايل أن يقول ان له نفساً لأن النفس هى المنشئة للحركات من الأماكن والشهوات والشهوة والحركة فى الاماكن انما تكون مع الحس وأما اجتذاب الغذاء فيكون من المبدأ الطبيعى وهذا عام للنبات والحيوان وليس يكون مع اجتذاب الغذاء حس على كل حال لأن كل مغتذى يستعمل فى غذائه شيئين وهما الحرارة والبرودة ولذلك احتاج الحيوان الى غذاء رطب وغذاء يابس لأن (١) الحر والبرد (٢) موجودان فى (٣) الغذاء الرطب والغذاء اليابس وذلك ان كل طبيعة من هاتين الطبيعتين غير مفارقة لصاحبتها ولذلك صار غذاء المغتذى دائماً متصلا الى وقت فساده.

٢. — وينبغى أن يستعمل فى النبات نظير ذلك 101 b § وأن يفحص عما سلف من قولنا فى شهوة النبات وحركته ونفسه وما يتحلل منه وليس للنبات نسيم على ان انكساغورس زعم ان له نسيما وقد نجد كثيراً من الحيوان ليس له نسيم ونجد للنبات عياناً ليس له نوم ولا يقظة وذلك ان اليقظة هى من فعل الحس والنوم هو ضعف فى الحس وليس يوجد شىء من هذا فى الشىء الذى يغتذى فى جميع الأوقات على حال واحدة وهو فى طبيعته غير حاس وأحسب أن الحيوان اذا اغتذى وترقى البخار من غذائه الى رأسـه نام واذا انقطع البخار المرتقى الى رأسه استيقظ من نومه وارتفاع هذا البخار فى بعض الحيوان كثير ووقت نومه طويل وارتفاعه فى

---

(١) « الحر و » غير موجود فى الاصل فانظر الى الشرح (٢) موجودا (٣) « الغذاء الرطب و » غير موجود فى الاصل فانظر الى الشرح

وتتجزأ لأجزاء غير متشابهة لأن الطين يتجزأ على جهة (١) للتراب فقط ويتجزأ على جهة (٢) للماء والتربة واللحم يتجزأ فيصير اجزاؤه لحماوهو يتجزأ على جهة أخرى للاستقصات والاصل وليس تنقسم اليد ليد أخرى ولا الاصل لاصل أخر ولاالورق للورق ولكن فى الأصل والورق تركيب وأما الثمار فمنه ما هو مركب من أجزاء يسيرة ومنه ما هو مركب من اجزاء كثيرة مثل الزيتون لأن (٣) للزيتون أربع طبقات جلده ولحمه ونواه وبزره ومن الثمار ما هو ذو ثلثة طبقات وجميع البزورهى ذات قشرين واجزاء النبات هى ما وصفنا وجملة انقول أن تحديد اجزاء النبات وجميع طبقاته واختلاف طبايعه شديدة لا سيما حدود قوامه ولونه ووقت بقائه والالام العارضة عليه وليس للنبات اخلاق النفس ولا فعل مثل الحيوان وأن قسنا 103 b § أجزاء الحيوان بأجزاء النبات طال كلامنا ولعلنا لا نسلم فى صفتنا لاجزاء النبات من الاختلاف الكثير لأن (٤) جزء الشىء هو جنسه وجوهره الخاص واذا تكون بقى على حاله أبدا إلا أن يسقط عن حاله بسبب مرض أو زمانة أو هرم ومن زهر النبات وقفاحه وورقة وثماره ما يكون فى كل سنة ومنه ما لا يكون فى كل سنة ولا يبقى مثل القشور والجرم الساقط من الشىء يرميه (٥) وبسببه وليس ذلك فى النبات لأنه قد تسقط من النبات أجزاء كثيرة فنبت بدلها أما فوق مكانها وأما أسفله فقد صح ان أجزاء النبات غير محدودة ان كانت هذه الأجزاء هى أجزاء النبات وان كانت غير أجزائه وقبيح بنا أن نقول فى الشىء الذى به ينمو الحيوان ويكمل إنه ليس بجزئه ومما ينبغى لنا أن لا نجعل ثمر النبات من أجزائه لأن الجنين ليس هو (٦) بجزء لأمه وأما الورق وسائر ما فيه فانه من أجزائه وان كان غير محدود وكان ينتثر ويسقط لأن قرون الايل وشعر بعض الحيوان وريش بعضه الذى يحتفر فى الشتاء فى الكهوف وتحت الأرض يتساقط أيضاً وهذا شبيه بانتشار ورق النبات وينبغى لنا أن نتكلم فى الأشياء التي ذكرنا آنفا وأن نأخذ فى ذكر الأجزاء الخاصية والعامية والاختلاف الذى فيها فنقول فى أجزاء النبات اختلاف عظيم فى الكثرة والقلة والصغر والكبر والقوة وذلك لأن الرطوبة التي فى الكبار منها ما هو لبن مثل لبن التين ومنها ما هو شبيه بالزفت مثل الرطوبة التى فى الكرم ومنها صمغى مثل الرطوبة التى

[illegible] (٦) جزء

بعضه قليل ووقت نومه قصير والنوم سكون الحركة والسكون راحة للمتحرك وأخص الأشياء كلها بهذا العلم البحث عما قال همفدوقليس هل يوجد فى النبات أناث وذكور أو نوع جامع للذكر والأنثى على ما زعم لأن من شأن الذكر أن يولد الولد فى غيره ومن شأن الأنثى أن تلد من غيرها وأن يكون فى كل واحد منهما معتزل عن صاحبه وليس يوجد فى النبات شئ من هذا لأن كل نوع من النبات الذكر منه ما كان خشن صلب والأنثى كثيرة الثمر وينبغى أن نبحث هل يوجد الصنفان في نبات واحد بعينه كما زعم همبدوقليس أما أنا فما أحسب ان هذا شئ يكون لأن الشىء الذى يختلط ينبغى أولاً أن يكون مفرداً فى ذاته وكل ما كان منه ذكراً وأنثى ثم اختلط واختلاط الشئ إنما يكون من أجل كونه فقد كان النبات موجوداً قبل اختلاطه وما ينبغى أن يكون 102 a § الفاعل والمنفعل فى وقت واحد معـا وأيضا أنه ليس يوجد جوهرا من الجواهر اناثه وذكوره فى شىء واحد معا ولو كان هـذا هكذا لـكان النبـات أكمل من الحيوان لان كان لا يحتاج فى توليده الى شىء من خارج بل هو محتاج الى أزمنة السنة والى الشمس والاعتدال أكثر من كل شىء ونجده يحتاج الى ذلك فى وقت ابراز الثمر ومبتدأ غذاء النبات من الأرض ومبتدأ توليده من الشمس الا أن انكساغورس زعم أن بزره من الهواء ولذلك قال رجل يقال له القناون أن الأرض ام النبات والشمس أبوه وأما اختلاط ذكور النبات باناثه قلنا أن نتخيله على جهة أخرى لأن بزر النبات شبيه بالحبل وهو اختلاط الذكر بالانثى وكما أن فى البيضة قوة تولد الفروج ومادة غذائه الى وقت نمائه وخروجه منها والانثى تبيض البيضة فى وقت واحد وكذلك النبات أيضا وقد جود همفدوقليس فى قوله أن الشجر الطوال لا تولد فراخا لان الشىء النابت انمـا ينبت فى حر (١) البزر ويصير ما فيه فى (٢) بدء الأمر غذاء الاصل والسبب والمابسة سحرك † على المكان وكذلك ينبغى لنا أن نفكر فى اختلاط ذكور النبات باناثه ومن الحيوان ما يشبه النبات فى حالة من الحالات لأن الحيوان اذا واقع ذكوره باناثه اختلطت قوتهما بعد ما كانا متفرقين فان كانت الطبيعة خلطت ذكور النبات باناثه فقـد فعلت الصواب وما نجد النبات فعالا سوى توليد الثمار وانما صار الحيوان منفردا معتزلا فى الأوقات التى

---

(١) البرد فى الاصل فانظر الى الشرح (٢) بدو

في السعتر والنبات المعروف بأوريقانون 104 a § وفى جملة القول ان من النبات نباتا له أجزاء محدودة معروفة ومنها ماله أجزاء محدودة غير متشابهة ولا مستوية ومنها ما له أجزاء متشابهة وغير متشابهة ليس مكانها في موضع واختلاف النبات فى أجزائه معروف من شكله ولونه وسخافته وكثافته وخشونته ولينه وسائر ما يعرض فيه من الاختلاف فى الإستواء وزيادة العدد ونقصانه ومن كبره وصغره ومنه ما لا يكون على حال بل فيه اختلاف كثير على ما قلنا .

٤ .ـ أعني من النبات ما يحمل ثمره فوق ورقه ومنه ما يحمل ثمره تحت ورقه ومنه ما ثمره (١) معلق بقامته ومنه ما ثمره معلق في أصله مثل الشجر الذى بمصر المعروف بارحسو او ما فوق ؟ منه ما ثمره فى وسطه ومن النبات ما ورقه وعقده غير مستور ومن النبات ما ورقه مستور ومنه ماله أغصان متساوية مثل النبات الذى له ثلثة أغصان وهذه الأجزاء التى أذكرها هى (٢) فى جملة النبات وهى نامية مزيدة أيضاً أعنى الأصل والقضبان وقوائم النبات وأغصانه وهى تعدل أعضاء الحيوان التى تحوى سائر الأغصان وأصل النبات هو الذى يكون الغذاء بوساطته ولذلك سماه اليونانيين أصل النبات وسبب حياته لأن الأصل هو المؤدى الى النبات سبب الحياة وأما قضيب النبات فهو الذى ينبت من الأرض مفرداً وحده وهو شبيه بقائمة الشجر وأما الشعب فهو ما يتشعب من قائمة النبات وأما الأغصان فهى التى تنبت من فوق الشعب وليس الاغصان بموجودة فى جميع النبات ومن النبات ماله أغصان ليست بالدائمة ابدا بل انما تكون سنة بعد سنة ومن النبات مالا أغصان له ولا ورق مثل الكماة والفطر والأغصان إنما تنبت 104 b § فى الاشجار فقط والقشر والخشب ولب الشجر نبت من الرطوبة ومن الناس من يسمى لب الشجر رحم (٣) الشجر ومنهم من يسميه معاء الشجر ومنهم من يسميه قلب الشجر والعقد والعروق واللحم في جميع النبات من الأربعة الاسطقسات وقد يوجد فى النبات أجزاء أخر تصلح للتلقح مثل الورق والزهر والقضبان الصغار التى فيها ورق النبات وكذلك الثمرة والغصن والفقاح النابت من البزور وماحوله ومن النبات مايسمى شجرا ومنه ماهو بين الشجر والحشيش ويسمى ؟ باسو او حموب ؟ ومنه ما يسمى حشيشا ومنه ما يسمى عشبا والنبات كله الا قليل منه داخل فى هذه الاسماء والشجر هو الذى له

---

(١) ملق أنظر الى الشرح (٢) غير موجود فى الاصل فانظر الى الشرح
(٣) غير موجود فى الاصل

من أصله قايمة يتشعب منها أغصان كثيرة كالزيتون والتين وأما النبات الذى بين الشجر الذى قلنا أنه يسمى † بامسو أو حوب † فهو ما كثرت أغصانه من أصله مثل النبات المعروف † بعار السوس † ومثل القصب والعوسج وأما البقول فهى التى لها قوايم كثيرة من أصلها كثيرة الاغصان مثل السذاب والكرنب وأما العشب فهو الذى يحمل الورق من أصله وليس له قوايم ومنه ما ينبت فى كل سنة ويجف مثل الحنطة والبقول وانما جعلنا هـذه الاشياء قياسات ومثالا ورسما ومن النبات ما يميل الى طرفين مثل البقلة المعروفة بالمؤخية لأنها عشب وبقل وكذلك السلق ومنه ماينبت فى أول مرة على شكل نبات الحبوب † والفاسوا † ثم يصير بعد ذلك شجرا مثل التين والفنجكست والنبات المعروف † بعار السوس † والعليق وربما دخل الآس والتفاح والكمثرى والرمان فى مثل هذه الاشياء a 105 § لان شعب هذه كلها من أصولها كثيرة جـدا ولذلك احتجنا إلى أن نحـدها لتصير لنا شبه المثال والقياس ومايبنغى لنا ان نطلب فيها كلها استقصاء الحـدود والنبات كله منه أهلى ومنه بستانى ومنه برى وكذلك الحيوان أيضا منه كذلك وأحسب ان كل نوع من النبات اذا لم يعد بفلاحته صار بريا ومن النبات ما يحمل الثمار ومنه مالا يحمل ومنه ما يخرج الزهر ومنه مالا يخرج ومنه ماله ورق ومنه ما ليس له ورق ومنه ما ينتثر ورقه ومنـه مالا ينتثر ورقه واختلاف النبات بعضه من بعض في الكبر والصغر والحسن والسماجة وجودة الثمار ورداءته كثير جدا والأشجار البرية اكثر (١) ثمـارا من البستانية والبستانية أجود ثمـارا من البرية ومن النبـات ما يكون فى مكان جاف يابس ومنه ما ينبت فى البحار ومنه ما ينبت فى الأنهار ومنـه ما ينبت فى البحر الأحمر (٢) يـكون كبيرا وفى غيره يكون صغيرا ومن النبات ما ينبت على شاطىء الماء ومنه ما ينبت في الاجام وأما النبات الذى يكون فى المواضع اليابسة وإن منه ما ينبت فى الجبال ومنه ما ينبت فى البقاع ومنه ما (٣) يعشب فى الصحراء أكثر من عشبه فى غيره ومنه ما يعشب على التلول ومنه ما يعشب على البر والماء مثل العرف والطرفاء والاشنـة والنبات يتغير فى الأماكن تغيرا عظيما فلذلك احتجنا الى أحصاء اختلافه

٥ .ـ وتغير النبات لاحق بالأرض غير مفارق لها ومن الاماكن مكان أجود من مكان وتربة

---

(١) ثمار (٢) أنظر الى الشرح (٣) يعش

اجود من تربة و كذلك الثمار فانه فى مكان اجود منه فى آخر ومن النبات 105 b §ما ورقه املس ومنه ما ورقه غليظ ومنه دقيق الورق ومنه مشطب الورق مثل ورق الكرم ومنه ما له قشر واحد مثل التين ومنه ما له قشور كثيرة كالصنوبر ومن النبات ما هو بكليته (١) قشر محض مثل †البلاس† ومن النبات ما له عقد مثل القصب ومنه ما له شوك مثل العوسج ومنه ما لا غصن له كالثيل ومنه ما أغصانه كثيرة مثل العليق ومنه ما فيه اختلاف كثير واما اختلافه العظيم الذى منه ما يخرج فراخا ومنه ما لا يخرج فانما يكون ذلك من اختلاف الاصول ومن النبات ما له أصل واحد مثل العنصلان لأنه انما (٢) تنبت له شعبة واحدة ويغوص إلى أسفل وإلى قعر كبير وكلما كبر وقرب من الشمس نما وازداد لان الشمس هى المولدة للفراخ وأما القطرات التى فى الثمار فمنها مشروبة خمرية مثل ثمر الكرم والتفاح والرمان والتوت والاس ومنها عصارة دسمة كالزيتون والجوز والصنوبر ومنها حلوة عسلية كالتمر والتين ومنها حارة حريفة كالسعتر والخردل ومنها عصارة مرة مثل عصارة (٣) الافسنتين والقنطوريون والثمار أيضا منها ما هو مركب من لحم ونوى مثل الاجاص والقثاء ومنها ما هو مركب من رطوبة وحب كالرمان ومنها ما له قشر من خارج ولحم من داخل ومنها ما له لحم من خارج وحب من داخل ومنها ما يتولد فيه البزر من ساعته مثل القثاء المغشى عليه كالتمر واللوز ومنها ما لا يتولد فيه وأما المأكول من الثمار وغير المأكول فانه بالعرض لانه من الثمار (٤) ثمارا يأكله بعض الناس ولا يأكله بعضهم 106 a § ومنه ما يأكله بعض الحيوان ولا يأكله بعض ومن الثمار ما هو فى لحم كالتمر ومنه ما هو فى قشر كالبلوط والافاح ومنه ما هو فى قشور كثيرة وفى صفايق ونوى كالجوز ومنه ما ينضج سريعا كالتوت ومنه ما يبطىء نضجه كثمر الجبال كلها أو أكثرها ومن النبات ما يسرع فى اخراج الثمار والورق ومنه ما يبطىء فى ذلك ومنه ما يتم ثماره ومنه ما لا يتم ومنه ما يجف ثماره ومنه ما لا ينضج ومنه ما يدرك ثماره فى الشتاء من غير أن ينضج وأما لون الزهر والثمار فكثير مختلف الألوان والنبات بكليته أخضر ومنه ما يميل الى السواد والى الحمرة والى البياض وأما شكل الثمار فما كان منه (٥) جزئين فهو مختلف وليس الثمار كله ذو زوايا وليس كله على خط مستو.

٦.- ومن النبات ما له رائحة طيبة فى قشره ومنه ما له ذلك فى زهره ومنه فى خشبه ومنه ما طيبه في أجزائه كلها مثل البلسان وبعض النبات ينبت اذا غرس وبعضه

(١) نشور (٢) بيت (٣) الافستين (٤) ثمارا (٥) فى الاصل حرس

اذا زرع ومنه ما ينبت من تلقاء نفسه والنبات المغروس أما يقطع من أصله فيغرس وأما من أغصـانه أو قضبانه أو بزره أو كله أو اذا دقت قطع صغار منه ومنه ما يغرس فى الأرض ومنه ما يغرس فى الشجر مثل الشيء الذى يطاعم وانما ينبغى أن يطاعم الشجر بما يشبهه وبشا كله لأنه اذا فعل ذلك نما نمواً حسناً أعنى أن يطاعم التفاح مع الكمثرى والتين مع التين والكرم مع الكرم وقد يطاعم الشجرمع الشجر المختلف الجنس 106 b § كالفستق فى اللوز والبطم بالزيتون والعليق فى أشجار كثيرة والشجر البرى مع البستانى والنبات كله لا يخرج بزرا شبيها ببزره لـكن من النبات ما يخرج بزرا أجود من بزره ومنه ما يخرج البزر الردى شجرا جيدا كاللوز المر والرمان الحامض ومنه ما اذا ضعف لم يخرج بزرا أصلا مثل الصنوبر والنخل وليس ينبت من البزر الردى نبات جيد بسهولة ومن البزر الجيد نبات ردى وأما فى الحيوان فقد يتولد من الردى جيد ومن الجيد ردى والشجر الصلب القشر الذى لايثمر إن شق انسان أصله وأدخل فيه حجرا أثمر فاما النخل فاذا انثر فى طلعة من طلع النخل الذكر مع دقيقه وقشره انضج ثماره ومنع من الانتثار ومما يعرف الذكر من النخل مما يتقدم فيصير طلعه رقيقا ومن رايحته ويكون طلعه أيضا دقيقا وربما هبت ريح شديدة فادت من رايحة الذكر إلى الانثى فينضح ثمارها ولا ينتثر اذا جعل فيها من طلع الذكر واما بزر الأترج فان سحقه الانسان وشربه مع الخمر بعد شرب الأدوية القتالة أنقذه من الموت وذلك لأنه يصل الى البطن ويخرج السم والتين الجبلى الممتد على الأرض نافع للتين البستانى والجلنار للزيتون اذا غرسا فى مكان واحد .

٧ .ـ ومن النبات ما يتغير ويصير شىء بدل شيء مثل الجوز اذا شاخ ويزعمون ان النام ربما تغير وصار نعنعا 107 a § والباذروج اذا حصد وصير بقرب البحر الأحمر ربما صار (١) شاهسفرم وأما الحنطة والـكتان انهما يزعمون ربما تغيرا وصارا شلما وأما اللبخ فقد كان فى أرض (٢) فارس قتالا فنقل الى أرض مصر والشام فصار مأكولا واللوز والرمان يتغيران عن ودائتهما فاذا عني الفلاح بفلاحهما أما الرمان فهو يجود إذا طرح فى أصله من بزر الخبازى وسقى بماء بارد عذب وأما اللوز فاذا ضرب الانسان فيه شكة من حديد وأخرج منه الصمغ السايل

(١) شاهفرم (٢) فايد

منه زمانا طويلا وإذا فعل الانسان مثل هذا الفعل فعل كثيرا من النبات البرى إلى البستاني والمكان والفلاحة مما يعينان على ذلك وبخاصة أزمنة السنة التي يغرس فيها ومن النبات ما يحتاج الي الغرس ومنه مالا يحتاج الى ذلك واكثر النبات يغرس فى الربيع والقليل منه يغرس فى الشتاء والخريف وأما أقل النبات الذي يغرس بعد طلوع الكوكب المعروف بكلب الجبار وأقل المواضع التي يغرس الغرس فيها فى هذا الوقت وانما يغرس الغرس بعد طلوع الكوكب المعروف بكلب الجبار فى بلد فرونية وأفرنسية وأما فى مصر فما يغرس فيها الا مرة واحدة في السنة ومن الشجر ما يورق من أصوله ومنه مايورق من عيونه ومنه مايورق من خشبه الأملس ومنه مايورق من كل مكان ومنه ما يقرب فيه التوريق ومنه مايتأخر فيه ومنه مايتوسط فى ذلك ومنه مايختلف وقت توريقه ومن النبات مايحمل فى السنة مرة واحدة ومنه ما يحمل فى السنة 107 b § مرارا كثيرة ولا ينضج ثماره بل تبقى فجة غير نضيجة ومنه ما يدوم كثرة حمله كالتين ومنه مايحمل فى وقت كبره وهرمه اكثر من حمله في شبيبته كاللوز والكمثرى والبلوط وبعض الناس يزعم أن اختلاف النبات البستانى يعرف من طبع ذكورته واناثه اذا ميز كل واحد منه بالخاصة الموجودة له لأن الذكر أكثف من الأنثى وأكثر أغصانا وأقل رطوبة وثماره أصغر وأقل نضوجا وورقه مخالف وكذلك شعبه وينبغى لنا اذا نفدنا هذه الاشياء أن نفرس فى الشجر على حدته وكذلك أيضا فى الحشيش والعشب وسنذكر قول القدماء فيها وتمارس علومهم وكتبهم الموضوعة فى هذه الاشياء ونحن قادرون على فحص أقدر من هذا أعنى انما (١) نفحص عن العشب البعلى والعشب الذى يكون منه البزر وعن النبات الخمرى الشرابى وعن النبات الطبيعى وعن نبات الادوية وعن النبات القتال وهذه الاشياء كلها معروفة من الاشجار والنبات فاما علم أسبابها فينبغى ان نطلب ابتداء كونها وكيف صار بعضها ينبت فى مكان دون مكان وفى زمان دون زمانها وحين نباتها وأصولها واختلاف عصاراتها وروايحها ولبها وضموغها وجودة

---

(١) بفحص

كل (١) واحد منها ورداءتها وبقاء ثمارها وفنائها ولم صار ثمار بعضها يعفن سريعا

وبعضها لا يعفن وإن منها ما يلين ثمارها ومنها ما لا يلين ثمارها ونفحص عن خواص

سائر النبات وبخاصة 108 § عن الاصول وكيف صار بعضها يهيج شهوة الجماع

وبعضها يجلب النوم وبعضها قتال ولبعضها اختلاف كثير عظيم.

تمت المقالة الأولى من كتاب النبات لارسطوطاليس والحمد لله رب العالمين.

(١) واحدا

APPENDIX

f. 99 b

1. ζήτησιν	بحث واستقصاء
2. τῇ τε ἀπορροῇ τῶν φύλλων *καὶ τῇ αὐξήσει*	انتثار ورقه في حينه
3. γένος ἐν τούτοις κεκραμένον	ذكوره واناثه مختلطة
4. ὃ ἐὰν συσταίῃ, ἥδεσθαι ὄντως αὐτὰ καὶ λυπεῖσθαι αἰσθάνεσθαι τὸ σύμφωνον ἔσται. ἂν δὲ συσταίῃ τοῦτο τῷ ἐπιθυμεῖν, εἰ καὶ ἀεὶ τῷ ὕπνῳ ἀνακτῶνται καὶ ἐγείρονται ταῖς ἐγρηγόρσεσι, σύμφωνον ἔσται. ὡσαύτως καὶ ἐὰν ζητήσωμεν εἰ πνοὴν καὶ γένος ἐκ συγκράσεως ἔχουσιν ἢ τὸ ἐναντίον, πολλὴν ἂν τὴν περὶ τούτου ἀμφιβολίαν καὶ μακρὰν ποιήσωμεν τὴν ζήτησιν. τὸ δὲ τὰ τοιαῦτα παραλιμπάνειν καὶ μὴ εὐαναλώτοις περὶ τὰ καθ' ἕκαστον ἐρεύναις ἐνδιατρίβειν πρέπον ἐστίν.	وانصح للنبات قوة الشهوة وجبت له اللذة والحزن والحس فليت شعرى نوم ويقظة للنبات وذكور واناث او شيء يجتمع من الذكر والانثي على ما زعم همفدوقليس ام ليس له نفس فان كثرة الاختلاف الواقع فى نفس النبات مما يخرجنا الى البحث الطويل عن جميع حالاته واصلاح الاشياء قطعة ونفي للشك عنا فيه لئلا يحتاج فى سائر الاشياء الى بحث طويل

f. 100 a

1. τούτου ἄρα θαυμάσιος μέν, *οὐ μὴν φαῦλος* πλανᾶται σκόπος, ὃς καὶ τὰ φυτὰ αἰσθάνεσθαι καὶ ἐπιθυμεῖν ἐδόξασεν.	فقد صح ان راى الذى زعم ان للنبات حسا وشهوة راى عجيب
2. καὶ ὁ Δημόκριτος καὶ ὁ Ἐμπεδοκλῆς.	وهمفدوقليس وديمقراطيس

3. τοῦ *ἡμετέρου* θελήματος	ارادتها
4. οὔτε τι ἀκόλουθον τούτῳ.	ولا ادراك شيء من الاشياء
5. οὔτε ὁμοιότητα αὐτοῦ	ولا مثالا
6. οὔτε *τοπικὴν* κίνησιν (om. τοπικὴν N"n)	ولا حركة
7. πρός τι αἰσθητὸν	الى المحسوس
8. ὁπόταν γοῦν τὸ τοιοῦτον φυτὸν εὑρίσκωμέν τι μέρος ψυχῆς τοιαύτης ἐν ἑαυτῷ ἔχον, *ἐξ ἀνάγκης νοοῦμεν καὶ ψυχὴν ἔχειν αὐτὸ*· ὅτε δὲ	فان وجدنا النبات دليلا اوجب له جزءا من اجزاء النفس
9. ἡ γὰρ αἴσθησις αἰτία ἐστὶν ἐλλάμψεως *ζωῆς*. τὸ δὲ θρεπτικὸν *αἰτία* ἐστὶν αὐξήσεως πράγματός τινος ζῶντος	لأن الحس هو سبب صفاء الجبلة واما الغذاء فهو نمو حياة الحي وعيشته لان الغـذاء رئيس العيش فاما الحس فهو رئيس صفاء الحياة

f. 100 b

1. τὸ γὰρ τὰ φυτὰ τοῦ ζῆν ἀπόφασκον οὕτως, τοῦτο ἐστὶν ὅτι οὐκ αἰσθάνονται. καὶ γὰρ εἰσὶ καί τινα ζῶα γνώσεως ἐστερημένα.	فاما الذي يدفع ان يكون حيا لا حس له فقد نجد فى الحيوان ما لا معرفة له ولا عقل
2. ἀσύμφωνόν ἐστι	يسمح
3. τιθῶμεν	نضع (فى الاصل نضع)
4. κογχύλια	خراطيم الماء والاصداف
5. τὰ δὲ εἴδη τοῖς οἰκείοις ἀτόμοις ὀνόματα	فاما الانواع فلا تعطى انواعها الا اسماءها

6. τὸ γένος

لجنس (فى الاصل الحس)

7. εἰσί τε ἄλλα ἃ αὐξάνουσιν *ἐκ τῆς γῆς ἢ ἐκ δένδρων*

ومنه ما ينمو

8. τίς οὖν ἐστὶν ἡ ἀρχὴ ἡ ἐν τῇ ψυχῇ τοῦ ζῴου; τί ἄλλω εἰ μὴ τὸ εὐγενὲς ζῷον, ὃ τὸν οὐρανὸν περιοδεύει, τὸν ἥλιον, τὰ ἄστρα καὶ τοὺς πλάνητας, τὰ ἀπὸ τῆς ἐνειρμένης ἐξωτερικὰ ἀμφιβολίας, ἃ δὴ καὶ ἀπαθῆ εἰσίν; ἡ γὰρ αἴσθησις τῶν αἰσθανομένων πάθος.

فاما الذى هو ابتداء حياة هذا الحيوان
وما يخص جنس الحيوان الكريم من
الشك العظيم كالذى يجد ذلك فيما يحويه
السماء من الكواكب وغير ذلك لانه
ليس خارج السماء شىء محسوس ساس
شىء عليه وكذلك فى الشمس وفى جميع
الكواكب وذلك لانها غير واقعة تحت
الالم والحس هو الالم وانفعال فى الحس.

9. συλλογισώμεθα τοίνυν πόθεν ἂν ταύτῃ ζωή, *ἵνα ποιήσωμεν καὶ αὐτὰ αἰσθητικά*. οὐ γὰρ περιέχει ταῦτα ἓν πρᾶγμα κοινόν.

اما ذا نفس الحياة وما ذا يشبهها ما نجد
لها شيئا عاما

10. τῆς ζωῆς τῶν ζῴων κοινὴ ἐστιν *αἰτία* ἡ αἴσθησις

العام للحياة هو الحس

f. 101 a

1. τῇ ταύτης γοῦν στερήσει δεῖ ἵνα πᾶς τις ἀποχωρῇ τῶν τοιούτων ὀνομάτων, ὅτι οὐκ ἔστι μέσον. ἡ δὲ ζωὴ ἐστι μέσον.

وليس ينبغى لاحد ان يروغ عن هذه
الاشياء لانه ليس له متوسط بين المتنفس
وغير المتنفس ولا بين الحياة وعدمها
ولكن بين الحياة والمتنفس واسطة

2. *καὶ* οὐ λέγομεν

او لا نقول

3. εἰ ἔχει δὲ ψυχήν, *οὐ λέγομεν ὅτι καί τινα ἤδη ἔχει αἴσθησιν, πρᾶγμα γὰρ τὸ τὸ τρεφόμενον οὐκ ἔστιν ἄνευ ψυχῆς*

كان ذا نفس

4. ἔχει ψυχὴν	ذو نفس كاملة
5. ἀδιόριστα	فغير محدود للطبيعة
6. ἡ ποιοῦσα ἐν αὐτοῖς γεννᾶσθαι τὰς κινήσεις	المنشئة للحركات من الاماكن والشهوات
7. δεῖται (sc. *πᾶν τὸ τρεφόμενον*)	احتاج الحيوان
8. ἡ δὲ θερμότης καὶ ἡ ψυχρότης εὑρίσκεται ἐν βρώμασι ξηροῖς καὶ ὑγροῖς	لان الحر والبرد موجودان فى الغذاء الرطب والغذاء اليابس
9. καὶ ὀφείλουσι χρῆσθαι *ταύτῃ* (sc. τῇ τροφῇ) *τό ζῷον καὶ* τὸ φυτὸν τοιαύτῃ *ὁποῖόν ἐστιν ἑκάτερον αὐτῶν*	وينبغى ان يستعمل في النبات نظير ذلك

f. 101 b

1. διερευνήσωμεν οὖν	وان يفحص
2. καὶ εἴ τι ἀπολύεται ἀπ'αὐτοῦ τοῦ φυτοῦ, *ὅσον εἰς πνοὴν*	وما يتحلل منه وليس للنبات نسيم
3. ἔν τισι δὲ τῶν ζῴων ἐστὶν αὕτη ἡ ἀποθυμίασις πολλή καὶ τέως ὀλίγον ὑπνώττουσιν	وارتفاع هذا البخار فى بعض الحيوان كثير ووقت نومه طويل وارتفاعه فى بعضه قليل ووقت نومه قصير
4. τὸ ἄρρεν, ὅτε γεννᾷ, εἰς ἄλλο γεννᾷ, καὶ εἰσὶν ἄμφω κεχωρισμένα ἀπ' ἀλλήλων	من شأن الذكر ان يولد الولد فى غيره ومن شأن الانثى ان تلد من غيرها وان يكون فى كل واحد منهما معتزل عن صاحبه
5. ἐπεὶ γοῦν εὑρίσκομεν ἐντοῖς φυτοῖς ὅτι ἔχει τὰ φυτὰ γένος ἄρρεν καὶ θῆλυ	وليس يوجد فى النبات شىء من هذا

6. τραχύτερον καὶ σκληρότερον καὶ *μᾶλλον φρίσσον*	خشن صلب
7. *ἀσθενέστερον καὶ* καρπόφορον πλέον	كثيرة الثمر
8. εὑρέθη γοῦν *ἐν τοῖς φυτοῖς* πρὸ τῆς κράσεως *κρᾶσις*	فقد كان النبات موجودا قبل اختلاطه

f. 102 a

1. καὶ εὐκρασίας *καὶ* τοῦ ἀέρος	والاعتدال
2. ὅτι *ἡ ὑγρότης* τούτων ἐστὶν ἀπὸ *τῆς γῆς*	ان بزره من الهواء
3. ἔφη *πρὸς* Λεχίνεον	قال رجل يقال له القناون
4. εἰ μὴ *ἐκ τῆς φύσεως* τοῦ σπέρματος	انما ينبت فى حر البزر
5. καὶ τὸ γεννώμενον κινεῖ αὐτὸ ἑαυτὸ παραυτίκα	†والسب والمايه محرك†
6. ὡς ἐπὶ τῶν ζῴων, ὅτι καὶ *ἡ μίξις* τῶν φυτῶν ἐστιν ἐν διοικήσει τινὶ	ومن الحيوان ما يشبه النبات فى حالة من الحالات
7. *τὰ γένη καὶ* αἱ δυνάμεις τῶν γενῶν	قوتهما
8. αἳ (sc. αἱ δυνάμεις) ἦσαν πρότερον κεχωρισμέναι *καὶ προῆλθεν ἐκ τούτων* ἀμ*φοτέρων πρᾶγμά τι* ἕν· ὃ *δὴ οὐκ ἔστιν ἐν τοῖς φυτοῖς. οὐ γὰρ ὅτε μίγνυνται* τὰ *γένη, καὶ αἱ δυνάμεις* αὐτῶν *μετὰ ταῦτα γίνονται κεχωρισμέναι*	بعد ما كانا مفترقين
9. διὰ τὰς πολλὰς ἐνεργείας αὐτοῦ *καὶ διὰ* τὰς *πολλὰς* αὐτοῦ *ἐπιστήμας*	لكثرة افعاله

f. 102 b

1. κατὰ πολὺ σταθηρᾶς *καὶ* *συνεχους* καὶ μὴ *ῥαδίως* διαφθειρομένης	كثير قايم غير متصل غير منقطع
2. κρεῖττον	افضل واشرف
3. παρὰ *πᾶν ἔργον* τοῦ φυτοῦ	من النبات
4. οὐ γεννᾶται ζῷον	تولد الحيوان
5. γηράσκουσι	مرض
6. τινὰ *τῶν φυτῶν* ἔχουσί τι *ὑγρὸν*	ومن الشجر ما له صمغ
7. δεσμοὺς καὶ φλέβας καὶ *κοιλίαν*	عقد وعروق
8. ὑπὸ τὸν φλοιὸν *ἤγουν ἐντὸς τοῦ φλοιοῦ καὶ τοῦ φιτροῦ*	تحت قشوره

f. 103 a

1. καὶ φύλλα	وغير ذلك
2. λύγους, φύλλα, κλάδους, ἄνθη καὶ βλαστοὺς καὶ φλοιὸν τὸν περικυκλοῦντα τὸν καρπὸν	مثل الاصول والقضبان والورق والاغصان والزهر والفقاح والاستدارة والقشر الذى يحوى الثمار
3. *σύνθετα* εἰσὶν ὅμοια μέλεσι ζῴου	نظير لعضو من اعضاء الحيوان
4. ὅμοιός ἐστι *φυσικῶς* δέρματι ζῴου	نظير لجلد الحيوان واصل النبات نظير للحم الحيوان

5. καὶ τινὰ μὲν τῶν μερῶν διαιροῦνταί πως διὰ μερῶν ἀνομοίων, τινὰ δὲ δι' ὁμοίων	وكل جزء من هذه الاجزاء تتجزأ على جهة لاجزاء متشابهة † وتتجزأ الاجزاء غير متشابهة †
6. οἷον ὡς ἐπὶ τοῦ πηλοῦ· οὗτος γὰρ ἑνὶ τρόπῳ διαιρεῖται διὰ τῆς γῆς μόνον, καὶ ἀλλοτρόπως διὰ τῶν στοιχείων. ὡσαύτως ὁ πνεύμων καὶ ἡ σὰρξ διαιροῦνται μὲν πρώτως, καὶ εἰσὶ μέρη τούτων σὰρξ καὶ πνεύμων· ἄλλως δὲ διαιροῦνται καὶ διὰ τῶν στοιχείων· ὁμοίως καὶ αἱ τῶν φυτῶν ῥίζαι	لان الطين يتجزأ على جهة للـتراب فقط ويتجزأ على جهة للماء والتربة واللحم يتجزأ فيصير اجزاؤه لحما وهو يتجزأ على جهة اخرى للاستقصات والاصل
7. εἰς ἄλλα φύλλα	للورق
8. αὗται (sc. αἱ ἐλαίαι) γὰρ ἔχουσι φλοιὸν σάρκα *καί τι* *ὀστρακῶδες* καὶ σπέρμα καὶ *καρπὸν*	لان للزيتون اربع طبقات جلده ولحمه ونواه وبزره
9. τινὰ δὲ ἔχουσι καὶ περικαλύμματα	ومن الثمار ما هو ذو ثلثة طبقات
10. ἴσην διαθέσει ψυχῆς	مثل الحيوان

f. 103 b

1. καὶ τυχὸν οὐδὲ δυνηθείημεν διαξελθεῖν ἂν ταῦτα, μεγάλαις διαφοραῖς ἀπαριθμοῦντες τὰ μέρη τῶν φυτῶν	ولعلنا لا نسلم فى صفتنا لاجزاء النبات من الاختلاف الـكثير
2. διά *τινα* αἰτίαν	وبسببه
3. μέρη τινὰ *μὴ διωρισμένα*	اجزاء كثيرة

4. *ὡς τρίχες ἐξ ἀνθρώπων καὶ ὄνυχες. πλὴν γεννῶνται τρίχες ἢ ἐν αὐτοῖς τοῖς μέρεσιν ὅθεν ἐξέπεσον, ἢ ἐκτὸς ἐν ἄλλοις*. καὶ ἤδη φανερὸν γέγονεν ὅτι τὰ μέρη τοῦ φυτοῦ οὐκ εἰσὶ διωρισμένα, εἴτε καὶ μή, *ἀλλὰ μόνον ἀδιόριστα*	فنبت بدلها اما فوق مكانها واما اسفلها فقد صح ان اجزاء النبات غير محدودة ان كانت هذه الاجزاء هى اجزاء النبات وان كانت غير اجزائه
5. μὴ εἶναι μέρη αὐτοῦ	ليس بجزئه ومما ينبغى لنا ان لا نجعل ثمر النبات من اجزائه لان الجنين ليس هو بجزء لامه
6. *κατὰ μικρὸν* ἐκπίπτωσιν	ينتثر ويسقط
7. ἐν τῇ δυνάμει *καὶ ἐν τῇ ἀσθενείᾳ*	والقوة
8. ἀρχέγονος	صعترى
9. ἐν τῷ ὀριγάνῳ καὶ ἐν τῷ φυτῷ τῷ λεγομένῳ *ὀπιγαίς καὶ ἐν ἄλλοις*	فى السعتر والنبات المعروف باوريقانون

f. 104 a

1. *ἔστι φυτὸν τὸ ἔχον μέρη ξηρά, ἕτερον ὑγρά, καὶ τὰ τοιαῦτα*. Καὶ ἔστι τὸ ἔχον μέρη διακεκριμένα, οὔτε ὅμοια οὔτε ἴσα. Καὶ τινὰ ἔχει μέρη ὅμοια μέν, οὐκ ἴσα δέ· τινὰ ἴσα μέν, οὐχ ὅμοια δέ.	من النبات نباتا له اجزاء محدودة معروفة ومنها ما له اجزاء محدودة غير متشابهة ولا مستوية ومنها ما له اجزاء متشابهة وغير متشابهة
2. ἐκ τῆς τραχύτητος	وخشونته ولينه
3. αὐξήσει *φυσικῇ*	زيادة العدد

4. καὶ εἰσὶ μὲν ταῦτα τοιούτου τρόπου	ومنه ما لا يكون على حال
5. ἀπῃώρηται	معلق
6. τὰ λεγόμενα μαργαρῖται	المعروف † بارحسو او ما فوق †
7. καὶ τινῶν *οἱ καρποὶ καὶ* τὰ φύλλα	ومن النبات ما ورقه
8. ἀδιάκριτοὶ εἰσι· καὶ τινῶν τὰ φύλλα πρὸς ἄλληλα ὅμοια, ἄλλων δ' οὔ.	غير مستور ومن النبات ما ورقه مستور
9. τινὰ δὲ οὐ τοιούτους	مثل النبات الذى له ثلثة اغصان
10. ἐν πάσι *τοῖς δένδροις*	فى جملة النبات
11. ἀνθρώπων	الحيوان
12. ἡλικία *ἀνθρώπου*	قايمة الشجر
13. ἀπό τῆς ῥίζης *τοῦ δένδρου*	من قايمة النبات
14. οὐκ εὑρίσκονται δὲ *ταῦτα*	وليس الاغصان بموجودة
15. καὶ πάλιν *τῶν κλάδους ἐχόντων* τινὰ μὲν εἰσι διηνεκῆ, τινὰ δὲ οὐχί.	ومن النبات ما له اغصان ليست بالدايمة ابدا
16. οἱ μύκητες *καὶ τὰ ὅμοια* (Latin: fungi *et tubera*)	الكماة والفطر

f. 104 b.

1. *ταῦτα δὲ* καὶ αἱ φλέβες	والعقد والعروق
2. εἰς τὸ γεννᾶν ἐπιτήδειοι *ἄνθη, ὡς ἐπὶ τῶν ἰτεῶν.* τινὲς δὲ καὶ *ἄνθη* καὶ καρποὺς *ἐν τοῖς δένδροις, καὶ τἄλλ' ὁπόσα* γεννῶνται ἐκ σπέρματος.	التى فيها ورق النبات وكذلك الثمرة والغصن والفقاح النابت من البزور

3. θάμνοι	† ٮامسو او حبوب †
4. μέσον δένδρων *καὶ βοτάνων σμικρῶν*	بين الشجر
5. —	مثل النبات المعروف † بهار النوس †
6. αἱ κράμβαι *καὶ τὰ τοιαῦτα*	والكرنب
7. ὡς τὸ λεγόμενον λάχανον βασιλικόν. *εἰσὶ δὲ ἄλλαι αἱ λεγόμεναι ἐν ταὐτῷ βοτάναι καὶ λάχανα*	مثل البقلة المعروفة بالمؤخية لانها عشب وبقل وكذلك السلق
8. ἐν σχήματι στάχυος	على شكل نبات الحبوب † والڡاسوا †
9. καὶ τὸ φυτὸν τὸ λεγόμενον *ἡλιοσκόπιον*	† والمحكسب † والنبات المعروف † بهار السوس †
10. καὶ τὰ λοιπὰ ὅμοια *δένδρα*	والرمان فى مثل هذه الاشياء
f. 105 a	
1. πολλοὶ *καὶ μάταιοι*	كثيرة جدا
2. τοιουτοτρόπως δὲ λέγομεν *ὄχνας καὶ ἄλλα τοιαῦτα εἴδη φυτῶν*	وكذلك الحيوان ايضا منه كذلك واحسب ان كل نوع من النبات
3. τινὰ δι' οὗ, *ὡς ἰτέαι καὶ τινα εἴδη δρυῶν*	ومنه ما لا يحمل
4. ἔλαιον	الزهر
5. ἐν τῇ ἐρυθρᾷ θαλάσσῃ *καὶ τινὰ ἐν τόποις μὲν ἄλλοις* μεγάλα, ἐν ἑτέροις δὲ μικρά	فى البحر الاحمر يكون كبيرا وفى غيره يكون صغيرا
6. ἐν τόποις ξηροτάτοις, *ὡς τὰ ἐν τῇ γῇ τῶν Αἰθιόπων*	فى الصحراء

7. ἐν τόποις ὑψηλοῖς, *τινὰ δὲ χθαμαλοῖς*	على التلول
8. καὶ τινὰ μὲν ζῶσιν ἐν τόποις ὑγροῖς, τινὰ δὲ ἐν ξηροῖς, τινὰ δὲ ἐν ἑκατέροις	على البر والماء •
9. ὡς ἡ ἰτέα	مثل العرف والطرفاء والاشنه
10. πάλιν *τῶν φυτῶν τινὰ* μὲν τῇ γῇ πεπήγασι καὶ οὐ φιλοῦσι χωρίζεσθαι ἀπ' αὐτῆς· τινὰ δὲ ἐν τόποις κρείττοσι *μετατίθενται.*	وتغير النبات لا حق بالارض غير مفارق لها ومن الاماكن مكان اجود من مكان وتربة اجود من تربة

f 105 b

1. καὶ τινῶν μὲν φυτῶν τὰ φύλλα σκληρά εἰσι, τινῶν δὲ λεῖα	ومن النبات ما ورقه املس ومنه ما ورقه غليظ ومنه دقيق الورق
2. τῶν ἀμπέλων καὶ τῶν συκῶν	الكرم ومنه ما له قشر واحد مثل التين
3. ἑτέρων δὲ κατὰ πολὺ ἐσχισμένα, ὡς τὰ τῆς πεύκης	ومنه ما له قشور كثيرة كالصنوبر
4. τινὰ δὲ φυτὰ εἰσιν ὅλως φλοιὸς *μεσιτεύων*	ومن النبات ما هو بكليته قشر محض مثل † البلاس †
5. καὶ τινὰ ἔχουσι πολλοὺς κλάδους, ὡς ἡ ἀγρία μορέα, τινὰ δ' οὔ.	ومنه ما لا غصن له كالثيل ومنه ما أغصانه كثيرة مثل العليق
6. αὕτη δὲ γεννᾶται ἐκ τοῦ ἐδάφους, καὶ ἀραιῶς πρόεισιν, ὅτι ὑποκάτω πλατύνεται, καὶ ἀκολουθοῦσα μᾶλλον διακρίνεται τῷ ἡλίῳ· ὅταν γὰρ προσβάλλῃ αὐτῇ, αὐξάνει	لانه انما تنبت له شعبة واحدة ويغوص الى اسفل والى قعر كبير وكلما كبر وقرب من الشمس نما وازداد
7. καὶ λοιπῶν ἄλλων πολλῶν ἄποτοι δὲ ἄλλων φυτῶν	والتوت والاس

8. ὡς οἱ τῆς ἐλαίας, τῆς πεύκης καὶ τῆς καρύας, τινῶν δ᾽ οὔ (Latin: ut olivae succus et nucis et pinei; quidam non sunt.)	كالزيتون والحوز والصنوبر .
9. κενταυρέα	القنطوريون
10. σύνθετοι ἐκ σαρκῶν καὶ *κόκκων καὶ λεμμάτων, ὡς οἱ σικυοί.* (Latin: compositi *ex carne et osse et grano, ut pruna;* alii e carne et grano, *ut cucumeres*)	مركب من لحم ونوى مثل الإجاص والقثاء
11. τινὰ δὲ τὸ ὀστοῦν ἐντὸς καὶ τὴν σάρκα ἐκτὸς (Latin: quidam carnem foris, os intus)	ومنها ما له لحم من خارج وحب من داخل

f. 106 a

1. καὶ τινὲς καρποὶ ἡμῖν μὲν ἄβρωτοι, ἄλλοις δὲ βρώσιμοι, *ὡς ὁ ὑοσκύαμος καὶ ὁ ἐλλέβορος ἀνθρώποις μὲν δηλητήριον, τροφὴ δὲ τοῖς ὄρτυξι. πάλιν τινὲς τῶν καρπῶν εἰσὶν ἐν θήκαις, ὡς οἱ κόκκοι τοῦ κυάμου· τινὲς ἐν περικαλύμματι καὶ ἐν λέμματι οἷον ὑφάσματί τινι, ὡς ἐν σίτῳ εὑρίσκεται καὶ τοῖς λοιποῖς.*	من الثمار ثمار يأكله بعض الناس ولا يأكله بعضهم ومنه ما يأكله بعض الحيوان ولا يأكله بعض
2. οἷον ἐν *οἰκίσκοις,* ὡς αἱ βάλανοι	في قشر كالبلوط واللفاح
3. τῆς μορέας *καὶ τοῦ κεράσου*	كالتوت
4. ὡς οἱ καρποὶ *οἱ ἄγριοι*	كثمر الجبال

5. τινὰ δὲ βραδέως

ومنه ما يبطىء فى ذلك ومنه ما يتم ثماره
ومنه ما لا يتم ومنه ما يجف ثماره ومنه
ما لا ينضج

6. *τῶν φύλλων καὶ* τῶν καρ-*πῶν καὶ τῶν οἷον ἐπ' αὐτοῖς ὑφασμάτων*

الزهر والثمار

7. τινὰ δὲ εἰς λευκότητα καὶ τινὰ εἰς ἐρυθρότητα *διὰ τὴν θερμότητα τὴν ἐκκαίουσαν τὸν ἀέρα τὸν κεκραμένον μετά τοῦ προσγείου*

والى الحمرة والى البياض

8. ἄγρια

حرس †

9. τινῶν μὲν ἡ ῥίζα, τινῶν ὁ φλοιός, τινῶν τὸ ξύλον.
(Latin: aliarum radix, aliarum cortex, *quarundam flos*, quarundam lignum).

فى قشره ومنه ما له ذلك فى زهره ومنه
ما فى خشبه

καὶ ἄμπελος ἐν ἀμπέλῳ
10 *καὶ ἀμυγδαλῇ ἐν ἀμυγδαλῇ*

والكرم مع الكرم

f. 106 b

1. *τινὰ χεῖρον.* καὶ ἐκ τινῶν κακῶν σπερμάτων καλὰ δένδρα προβαίνουσιν

ومنه ما يخرج البزر الردى شجرا جيدا

2. ἐν δὲ τοῖς φοίνιξιν ἂν φύλλα ἢ ψῆνες ἢ φλοιὸς τοῦ ἄρρενος φοίνικος τοῖς φύλλοις τοῦ θήλεος συντεθείη *ἵνα πως συναφθῶσι.*

فاذا اثر فى طلعة من طلع النخل الذكر مع
دقيقه وقشره

3. ἀλλαχοῦ δὲ ἔκ τινος τούτων ἢ ἐκ πάντων συμβαίνει

ويكون طلعه ايضا دقيقا

4. —	واما بزر الاترج فان سحقه الانسان وشربه مع الخمر بعد شرب الادوية القتالة انقذه من الموت وذلك لانه يصل الى البطن ويخرج السم

f. 107 a

1. παρὰ τὴν θάλασσαν	بقرب البحر الاحمر
2. εἰς ἕτερον εἶδος	وصارا شاما
3. χοιρείας κόπρου	من البزر الحبازي
4. —	ومن النبات ما يحتاج الى الغرس ومنه ما لا يحتاج الى ذلك
5. τῇ Ῥώμῃ	فرونية وافرنسية
6. ἐκ τῶν οἰκείων ξύλων	من خشبه الاملس
7. —	ومنه ما يورق من كل مكان فيه
8. καὶ τινὰ μὲν πλήσιον τῆς γῆς, τινὰ δὲ πόρρω, τινὰ ἐν μέσῳ	ومنه ما يقرب فيه التوريق ومنه ما يتأخر فيه ومنه ما يتوسط فى ذلك
9 —	ومنه ما يختلف وقت توريقه

f. 107 b

1. *ὡς αἱ συκαί, τινὰ ἐν ἑνὶ καρποφοροῦσιν ἔτει, ἐν δὲ τῷ ἑτέρῳ ἀνακτῶνται ἑαυτά, ὡς αἱ ἐλαῖαι πολλοὺς κλάδους προβαλλόμεναι, αἷς καὶ περικαλύπτονται*	كالتين
2. *τῶν ἀγρίων καὶ τῶν κηπαίων*	البستانى

3. καὶ ταχύτερον εἰς πέπανσιν	وثماره اصغر واقل نضوجا
4. δυνηθείημεν διερευνῆσαι τούτων τὸν μυελὸν ἐρεύνῃ συνοπτικῇ	قادرون على فحص اقدر من هذا
	-
5. καὶ γνωρίσαι	نفحص
6. καὶ τὰς βοήθειαν χορηγούσας	وعن النبات الخمري الشرابي وعن النبات الطبيعي
7. —	وفي زمان دون زمانها
8. ἐρευνῆσαί τε καὶ τὰς ἰδιότητας τῶν φυτῶν, καὶ μᾶλλον τῶν ῥιζῶν· καὶ πῶς τινῶν μὲν καρποὶ μαλθάσσονται, τινῶν δ' οὔ.	ومنها ما يلين ثمارها ومنها ما لا يلين ثمارها ونفحص عن خواص ساير النبات وبخاصة عن الاصول

f. 108 a

1. καὶ πολλὰς ἄλλας διαφορὰς *καὶ πῶς τινῶν μέν οἱ καρποὶ ποιοῦσι γάλα, τινῶν δ' οὔ*	ولبعضها اختلاف كثير عظيم

D'UN PONT DE FER A LA MECQUE DANS UNE CHANSON DE GESTE DU XIVe SIÈCLE.

par Herman Dopp.

La chanson du *Bâtard de Bouillon* (1) fait suite, dans l'esprit de son auteur, un poète du XIVe siècle, à la chanson de *Baudouin de Sebourg,* troisième roi de Jérusalem, et termine avec elle le groupe des suites poétiques que reçurent alors les poèmes du cycle de la croisade. Ces œuvres nouvelles sont loin des « chansons d'Antioche » primitives (2). La forme diffère peu des unes aux autres, si ce n'est que la rime a depuis longtemps remplacé l'assonance et que la laisse s'est allongée et délayée; le vers, dans les plus anciens poèmes conservés, est déjà l'alexandrin. Les premiers trouvères avaient donné à leurs récits la forme des chansons de geste, parce que c'était la seule connue et la seule qui pût alors atteindre le grand public. Elle était d'ailleurs en rapport avec le sujet. Mais leurs chansons étaient sobres, naïves et en quelque sorte fidèles: ils avaient été témoins des événements, tel ce Richard le Pèlerin dont la *Chanson d'Antioche* ouvrit, vers 1130, le cycle de la croisade; ou ils avaient pu recueillir les témoignages des croisés, comme l'inconnu qui, continuant Richard, écrivit la *Conquête de Jérusalem* (3). De telles œuvres, et les récits antérieurs dont elles sont l'aboutissement, ont été, suivant une idée qu'affectionnait Gaston Paris, le point de départ de l'historiographie française.

---

(1) « Li Bastars de Buillon, poème du XIVème siècle, publié pour la première fois d'après le ms unique de la B.N. de Paris par Aug. Scheler... » Bruxelles, Mathieu Closson et Cie, 1877, in-8°. (Publication de l'Académie royale de Belgique).

(2) On appelait ainsi au moyen âge les poèmes relatifs à la croisade du nom des premières chansons qui doivent avoir été composées après la prise d'Antioche en 1098, mais avant celle de Jérusalem en 1099. Seul un fragment de l'une d'elles nous est conservé.

(3) Ces deux chansons de geste, dont les originaux sont perdus (sauf un fragment de la seconde), nous sont connues par un remaniement de Graindor de Douai, trouvère de la fin du XIIème siècle.

Il en va tout autrement des chansons composées dans la suite. Dès le XIIème siècle, elles cessent d'avoir rien d'historique; elles sont inventées par des trouvères qui font aux récits anciens des suites et des « préfaces », mettant sur le compte des héros de Terre-Sainte des exploits nouveaux, racontant leurs « enfances » fabuleuses, introduisant dans le cycle leurs ancêtres légendaires. L'histoire de Godefroid de Bouillon reçut de ces développements dans le *Chevalier au cygne* et dans les *Enfances Godefroi*. Les *Enfances Godefroi* racontent comment le héros de la première croisade avait émerveillé les « païens » par sa beauté. Une prédiction ayant annoncé aux Arabes qu'ils seraient battus par les fils du comte Eustache de Boulogne de la maison de Bouillon, le sultan effrayé envoie un ambassadeur en Europe avec la mission secrète de faire périr les jeunes comtes encore enfants. L'ambassadeur Cornumarant, qui est le propre fils du sultan, arrive à Boulogne, mais, étonné de la force et de la valeur intellectuelle du jeune Godefroid, il se lie d'amitié avec lui et renonce à sa mission. Le *Chevalier au cygne* est le grand-père de Godefroid de Bouillon. Voici son histoire. Une duchesse de Bouillon demandait justice à l'empereur Othon, à Nimègue, contre le duc de Saxe, Renier; mais aucun champion n'osait se présenter pour soutenir sa cause en duel judiciaire. Au dernier moment arrive un chevalier dans une barque tirée par un cygne. Il combat l'adversaire et, vainqueur, épouse la fille de la duchesse de Bouillon, Béatrix. Pendant sept ans ils vivent heureux, mais nul ne sait le secret de la naissance du chevalier: il y a défense à quiconque de le lui demander. A bout de curiosité, sa femme finit par l'interroger: au même instant apparaît le cygne qui doit l'emporter dans la barque. Après des adieux douloureux, le chevalier au cygne disparaît pour toujours. Cependant Béatrix a de lui une fille, Ida, qui épousera le comte Eustache de Boulogne et sera la mère de Godefroid de Bouillon.

Ce qu'on avait fait pour Godefroid au XIIème siècle, on le fit aussi, au XIVème, pour son frère et successeur Baudouin de Bouillon: la chanson qui nous occupe lui donne un descendant. Seulement les temps ont changé, la littérature épique en décadence s'est embourgeoisée et même, quelquefois, encanaillée. Ce descendant de Baudouin n'est qu'un bâtard, mais quel bâtard! Il s'appellera Baudouin comme son

glorieux père. Sa mère sera une princesse sarrasine convertie, sœur de cinq rois. Toutes les qualités morales qui manquent à son frère consanguin Ourri, fils légitime de Baudouin, il les aura. Autant Ourri est cruel et félon, autant le Bâtard est brave et loyal; autant l'un est détesté de tous, autant l'autre est populaire. Le Bâtard finira par percer Ourri de son couteau de chasse le jour où celui-ci lui proposera d'empoisonner leur père. Il n'est pas jusqu'au roi Arthur de Bretagne lui-même qui ne s'intéresse au Bâtard: du pays de Féérie (1) où il séjourne avec sa sœur, la fée Morgue, il lui envoie en présents son propre haubert et son destrier Blanchard, car, dit-il au roi Baudouin:

« ...sachiez de chertain, tel chevalier n'i a
Ou regne de Surie, ne jamais n'avera ».

C'est ainsi que l'histoire de Baudouin de Bouillon qui se rattachait déjà, par son grand-père, à la légende lorraine de Lohengrin, s'en va rejoindre, par son fils, la légende celtique du roi Arthur.

***

La chanson du *Bastars de Buillon* qui raconte tout cela et bien d'autres choses encore, dans ses 6559 vers, s'ouvre sur une expédition fort peu historique conduite par le roi Baudouin contre La Mecque. Il s'agissait de réduire la résistance de cinq émirs, Saudoine, Esclamart, Taillefer, Marbrun et Ector de Salorie qui gouvernaient alors en commun le royaume de La Mecque. Ces cinq rois sont cinq frères, mais une si belle famille ne s'arrête pas là: ils ont une sœur, la belle Synamonde. C'est elle qui, après la prise de la ville par Baudouin, deviendra la mère du Bâtard. Celui-ci a donné son nom à la chanson, bien que sa naissance et ses premiers exploits n'en occupent que la seconde moitié.

Dans cette prétendue campagne de La Mecque, l'attention du lecteur est attirée par une description de la ville, contenue dans les laisses 55 et 56 du poème, et qui en est l'unique morceau descriptif. Il va sans dire qu'elle est entièrement fictive. L'au-

(1) Selon la géographie fantaisiste du poète, ce « pays de Faerie » est le désert d'Egypte bordant la mer Rouge.

teur n'est certainement jamais allé en Arabie, ni même outremer; et il n'a pu trouver nulle part, au XIVème siècle, de renseignements véridiques sur la ville qu'il décrit. Pourtant certains détails de sa description sentent le déjà vu, ou le copié, et ne sauraient avoir été inventés de toutes pièces pour les besoins d'un poème, d'ailleurs diffus et médiocre, qui n'apporte rien de neuf, pas même l'idée du bâtard, car, dans la chanson précédente, l'auteur en avait déjà donné trente à Baudouin de Sebourg. La Mecque est défendue d'un côté par la mer (!), de l'autre par des remparts et par trente tours assises sur des rochers aigus. Au pied des murs coule le Jourdain (!). Un pont de fer donne accès à la ville.

Mais lisons notre poème. Les émirs entreprennent de défendre La Mecque, ils font travailler aux fossés.

vers 1344. Un pont de fer i ot moult large et estendu.
L'iauve du flun Jourdain a pardessous courru.
Dessus cheste riviere, a che pont qui fors fu, (à l'extérieur)
I avoit trente tours, le menre ot on veü
De quinses grandes lieuves et bien apercheü;
Chascune tours estoit sus un rochier agu,
Haute fu de murage de maint quaillel cornu (caillou)
Et couverte de coevre et de laton batu.

Seigneur, cheste chités qui Miekes est clamée,
Au lés vers Rochebrune, estoit avironnée
Dou flun Jourdain, c'est l'iawe qui n'est mie salée.
De Paradis terrestre est cheste iauve avalée
Et desseure cheste iawe qui est moult rade et lée (rapide et large)
Avoit un pont de fer, ch'est vérités prouvée,
Par où on va entrant en le chité leée
Par d'encoste le pont, à destre, i ot valée;
Quinse tours i avoit, chascune est bien fondée:
Otant à l'autre lé, ch'est bien chose ayérée,
Et si dit on pour vrai ch'est le plus foible entrée,
Car à l'autre lés vient la haute mer salée,
De coi la chités est autour avironnée;
En toute paiennie n'a ville si fremée. (fortifiée).

La physionomie du texte révèle un auteur flamand ou picard. On sent bien d'abord que le poète reproduit pour La Mecque le décor conventionnel et « à volonté » des villes fortes d'outremer. Les montagnes, les tours qui défendent La Mecque sont seulement plus hautes et plus merveilleuses que celles des autres villes; et cela n'est que juste. Mais le détail du pont de fer a son intérêt propre. Pas plus que le reste le trouvère ne l'a créé; ce pont de fer se retrouverait peut-être dans des chansons antérieures, élaborées, comme la nôtre, avec les données d'autres chansons déjà plus ou moins fantaisistes, ou, en fin de compte, inspirées des sources premières de documentation qu'étaient les chroniques latines de la croisade. Pour prendre la question *ab ovo*, il nous faut donc rechercher ce pont de fer dans les premiers historiens des expéditions d'outremer.

Lisons, dans l'*Histoire anonyme de la première croisade* la description d'Antioche (1), première ville de Syrie conquise par les croisés. Un double siège, d'abord des Turcs par les croisés (1097-1098), puis des croisés par Kerboga (1098), l'avait rendue célèbre au moyen âge.

« Haec urbs Antiochia scilicet valde pulchra et honorabilis, quia infra muros ejus sunt IV montanee maxime et nimis alte. In altiori quoque est castellum edificatum, mirabilis et nimis forte... Clauditur civitas duobus muris, major quoque valde est altus et mirabiliter latus magnisque lapidibus compositus, in quo sunt ordinate CCCCL turres (1) modisque omnibus est civitas formosa; ab oriente clauditur IV magnis montaneis; ab occidente secus muros urbis fluit quoddam flumen cui nomen Farfar ».

Cette description, M. Bréhier montre qu'elle est interpolée (2); mais elle est ancienne, car tous les manuscrits la reproduisent. Et ce sont déjà les montagnes, les remparts, les tours et même le fleuve (celui-ci naturellement débaptisé) qui serviront pour La Mecque. Cependant le pont de fer n'est pas

---

(1) « Histoire anonyme de la première croisade (Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum) éditée et traduite par Louis Bréhier », Paris, Champion, 1924, in-12, p. 220. (Collection des Classiques de l'histoire de France au moyen âge.)

(1) En y comprenant sans doute les tours de guet.

(2) Ibid. pp. 170-171.

encore signalé: on s'attendrait à le trouver ici, sur le Farfar, au pied des murs.

Il y avait bien un pont à Antioche, mais les historiens qui en parlent ne nous disent pas qu'il était en fer. Albert d'Aix — mais il n'y est pas allé voir (1) — lui donne l'épithète de « lapideus » (*Historiens occidentaux,* t. 4, p. 423). Un autre, Benoît Accolti d'Arezzo — mais il est du XVème siècle — dit aussi, incidemment, que c'était un pont de pierre (*ibid.,* t. 5, 2ème partie, p. 572). Dans l'*Histoire anonyme de la première croisade,* nous apprenons que ce pont était étroit (« angustus », *op. cit.*, p. 92), et qu'il reposait sur des piliers (« si forte aliquis eorum [Turcorum] voluisset reptare super pontis columnas, ..., vulneratus est a nostris undique stantibus », *ibid.*), détails qui sont répétés par Pierre Tubœuf. Or, ces piliers étaient de bois, si nous en croyons Robert le Moine qui, dans un récit plus saisissant que celui de l'anonyme, nous montre les Turcs bousculés dans le fleuve très rapide en cet endroit, qui se cramponnent aux piliers du pont: « pontis ligneas columnas amplexabantur »; des vingt-deux manuscrits qui reproduisent ce passage, vingt portent les mots « ligneas columnas », un manuscrit porte « lignei », et un « ferrei » (Voir *Historiens occidentaux,* t. 3, p. 787, note 24, et l'index des manuscrits, p. 817). *Ferrei* est vraisemblablement une rectification erronée due à un copiste qui, pour des raisons que nous verrons plus loin, pensait à un pont de fer. On a d'ailleurs discuté si Robert le Moine est ou n'est pas allé outremer, et, faute d'arguments concluants, nous ne savons pas s'il a vraiment vu le pont d'Antioche. Les autres historiens disent seulement que ce pont touchait aux remparts et qu'il joignait une porte de la ville; citons Guillaume de Tyr:

« In parte autem occidentali inferius, circa partes civitatis novissimas, ita moenibus et monti fit fluvius vicinus, ut pons, quo transitur, portae civitatis et muro continuetur » (2).

---

(1) Au début de son « Historia hierosolymitana », il nous dit ses regrets de ne pas avoir pu faire le pèlerinage de Terre-Sainte; mais tout ce qu'il racontera, il le tient, « auditu et relatione », de témoins oculaires. (Recueil des historiens des croisades, Historiens occidentaux, t. 4, p. 271.)

(2) Recueil des historiens des croisades, Historiens occidentaux, t. 1, 1ère part., p. 169.

Mais ce fleuve que l'anonyme de la première croisade appelle le Farfar (*op. cit.*, éd. Bréhier, pp. 181, 220), et qu'il devrait appeler simplement le Far, c'est l'Oronte; et en venant avec les croisés sur Antioche, à sept milles de la ville, là où le chemin d'Alep passe l'Oronte, nous trouvons un pont. Il en est parlé par notre anonyme au début de sa *Narratio quinta:* « Cum cepissemus appropinquare ad pontem Farreum » (1), « comme nous commencions à approcher du pont du Far ». Notons, c'est très important, que deux manuscrits sur trois portent « ad pontem Ferreum » (*ibid.*, p. 66, note c), et que nous ne savons pas bien si le nom du fleuve se prononçait Fer ou Far. En tous cas, pour le lecteur que n'embarrassaient pas les connaissances toponymiques, le sens de ce *pons Ferreus* était clair: c'était un pont de fer. Nous avons là un cas d'étymologie populaire. Notre trouvère du *Bâtard de Bouillon,* en adoptant ce pont de fer, ne fait que reproduire une erreur déjà commune en Orient deux bons siècles avant lui. Elle y avait été si naturelle et elle avait eu tant de force qu'elle avait passé dans le nom arabe de l'endroit: « Ce pont, dit l'éditeur des *Historiens des croisades,* dans sa notice sur la carte générale du théâtre des opérations (2), porte encore le même nom, en arabe: « *Djesr-el-Hadid* ». Il en est parlé dans la *Chronique d'Alep* par Kemal-el-Dine (*Historiens orientaux,* t. 3, pp. 582, 677, 678, 684), et par Ibn-Cheddâd dans les *Anecdotes et beaux traits du Sultan Youssef* [Saladin] (*ibid.*, t. 3, p. 115).

Or ce pont eut aussi sa célébrité au moyen âge, car il fut le théâtre de plusieurs faits importants dans l'histoire des croisades. Albert d'Aix-la-Chapelle l'appelle « pons fluvii Fernae », l'Oronte prenant chez lui le nom de *Ferna;* et, comme beaucoup d'autres, il confond ce fleuve avec le Farfar, cours d'eau qui arrose Damas — nous reviendrons dans un moment sur cette erreur. — Le nom vulgaire du « pont de fer » provient, d'après cet auteur, de quatre tours qui le défendaient et qui étaient « inattaquables par le fer ».

« Omnis igitur populus... usque ad pontem fluvii Fernae, quod dicitur Farfar, profecti sunt... Pons denique iste mira-

---

(1) Histoire anonyme de la première croisade, éd. par L. Bréhier, p. 66.

(2) Hist. occ. t. 1, 1ère part., p. XXXVI.

bili arte et antiquo opere in modum arcus formam accepit, subter quem Farfar fluvius Damasci, Ferna vulgariter dictus, cursu rapidissimo alveum perluit. In utraque pontis fronte duae prominebant turres ferro insolubiles, et ad resistendum aptissimae, in quibus Turcorum semper erat custodia » (1).

M. Bréhier a raison de qualifier cette explication d'enfantine (2). Mais le texte a néanmoins pour nous son importance, car, où qu'Albert d'Aix ait pris ces renseignements, c'est la seule description détaillée que nous connaissions du fameux pont de fer, et elle prouve une chose: c'est que ce nom ne lui venait pas de sa construction. Non, décidément, ce pont « en forme d'arche » n'était pas en fer. Il n'était même pas bardé de fer comme cet autre pont que les Sarrasins jetèrent sur le Nil pendant la cinquième croisade pour défendre le chemin du Caire. (Curieuse époque où l'on construisait des ponts là où la stratégie moderne les ferait plutôt sauter). Après la perte de Damiette en 1219, « il firent un pont sur le flum là endroit où l'aigue forche, et le covrirent tout de fer, por ce qu'il ne voloient pas que li Crestien alassent en l'autre bras dou flum por aller vers Babiloine [Le Caire]. Et por ce apeloit l'en cel pont le *Pont de Fer* » (3). Rien de semblable ici, sur l'Oronte; ou bien Albert d'Aix n'aurait pas manqué de nous le dire, lui qui semble chercher une explication.

Guillaume de Tyr, lui, sait de quoi il retourne; aussi affecte-t-il d'appeler le pont sur le Fer: *pons Ferri,* forme qu'aucun auteur ne donne avant lui (presque tous écrivent *pons Ferreus*). Et il nous explique très bien que le Fer qui arrose Antioche, c'est l'Oronte et non le Farfar qui coule à Damas. Bon nombre d'historiens de la première croisade avaient fait cette confusion qui provient de la présence en Syrie de deux fleuves presque homonymes, et d'un redoublement de la syllabe Far. Citons, par exemple, l'abréviateur de Foucher de Chartres dans ses *Gesta Francorum Iherusalem expugnantium.* Pour lui, le Far et le Farfar, ou Pharphar, ne font qu'un; il est trop heureux d'y reconnaître un fleuve dont il est parlé dans la Bible (au *second Livre des Rois,* chap. V, 12), là où Naaman, chef de l'armée royale de Syrie, à qui le

(1) Hist. occ., t. 4, p. 362.
(2) Histoire anonyme de la première croisade, p. 66, note.
(3) L'estoire d'Eracles l'empereur. Hist. occ., t. 2. p. 355-356.

prophète Elysée, pour le guérir de la lèpre, ordonne de se plonger sept fois dans le Jourdain, réplique avec mauvaise humeur que les fleuves de Damas, l'Abana et le Pharphar, valent mieux que toutes les eaux d'Israël:

« Interea exercitus Christianorum Antiochiam Syriae pervenit; transitoque Oronte fluvio, quem Parthi ita vocant, Syri quoque Farfar, Antiocheni vero Fernum, unde Naaman, princeps Syriae, Helysaeo indignans, respondit *quia meliores sunt aquae Damasci, Farfar et Abanes, quam Jordanis,* urbem Antiochiam obsidione circumdant » (1).

Guibert de Nogent, dans ses *Gesta Dei per Francos,* fait allusion au même passage de la Bible quand il désigne l'Oronte par cette périphrase: « flumen quoddam sacrae paginae non incognitum, quod Pharphar dicitur » (*Historiens occidentaux,* t. 4, p. 211); et il lui garde partout ce nom de Pharphar (*ibid.*, pp. 169, 180, 206, 214). Raoul de Caen, dans les *Gesta Tancredi* l'appelle aussi Farfar (*ibid.*, t. 3, p. 641), et le qualifie même de « Damascenus Farfar » (*ibid.*, p. 642). L'anonyme rhénan, auteur de l'*Historia et gesta ducis Gotfridi,* en donnant dans la même erreur, a le mérite de nous l'exposer clairement: « Orontes fluvius hanc [urbem Antiochiam] praeterfluens, nascitur enim in Oriente, ultra montem Galaad, in Persia [Parthia], et fluens Damascum et in Syriam, et ibi vocatur Farfar, et decurrens ad occasum montis Libani, descendit Antiochiam, et ibi Far appellatur » (*ibid.*, t. 5, 1ère partie, p. 461). Cela n'empêche pas cet auteur de l'appeler quand même Farfar sous les murs d'Antioche (*ibid.*, p. 489). Presque tous les autres historiens latins de la première croisade, sans mentionner son passage à Damas, l'appellent néanmoins Farfar, ou Pharphar, et non Far ou Fer. Ce sont: Pierre Tubœuf (*ibid.*, t. 3, pp. 47, 49), son imitateur (*ibid.*, t. 3, p. 186), Robert le Moine (*ibid.*, t. 3, p. 844), Baudri de Bourgeuil (*ibid.*, t. 4, p. 84), Hugues de Ste-Marie (*ibid.*, t. 5, 2ᵉ part. p. 365). Foucher de Chartres l'appelle « Fernus sive Orontes » (*ibid.*, t. 3, pp. 339, 342, 423, 497), et il est naturellement imité par son abréviateur, l'anonyme des *Gesta Francorum Iherusalem expugnantium,* que nous avons cité, et aussi par le compilateur qui écrivit l'*Historia nicaena vel antiochena,* sur l'ordre et sous la direction de Baudouin III (*ibid.*, t. 5, 1ère partie, pp. 85, 150, 162). Albert d'Aix,

(1) Hist. occ., t. 3, p. 497.

nous l'avons vu, fait de ce nom « Ferna » (*ibid.*, t. 4, pp. 360, 361, 386, 411, 423, 434, 448), mais il use tout aussi souvent du nom de Farfar (« Ferna quod dictur Farfar » *ibid.*, p. 362; « Ferna vel Farfar », *ibid.*, p. 372; « Farfar », *ibid.*, pp. 369, 371, 372, 383, 425, 620). Un seul auteur, mais il est du pays, Gautier, chancelier d'Antioche, appelle l'Oronte le « Far »; il écrit, en parlant du pont: « pons Faris » (*ibid.*, t. 5, 1ère partie, p. 85). L'anonyme rhénan cité plus haut avait signalé ce nom, mais ne l'employait pas.

En sa qualité d'historien le plus illustre de l'Orient chrétien, Guillaume de Tyr, né à Jérusalem vers 1127, va s'appliquer à corriger l'erreur:

« Fluvius autem, cui pons superpositus est praedictus, Orontes appellatur, verbo vulgari Fer dictus, qui ab eo loco secus Antiochiam defluens, inde ad mare descendit. De hoc quidam somniare solent quod sit Farfar, Damasci fluvius, sed compertum habemus quod errore trahuntur qui hoc asserunt. Farfar enim et Albana [les deux fleuves de Damas nommés par Naaman dans la Bible] a Libano trahentes originem, per agrum damascenum secus ipsam urbem defluentes, in Orientem properant, ubi in arenosa solitudine deficere dicuntur; Orontes vero secus Heliopolim, quae alio nomine appellatur Malbec [Baalbek], primum habens exordium, per Caesaream et praedictam Antiochiam in mare descendit mediterraneum » (1).

Le Far arrosant Antioche, et le Farfar arrosant Damas, sont donc deux fleuves distincts. Le premier est l'Oronte, aujourd'hui, de son nom arabe, le Nahr-el-Assy (2). L'autre, le Farfar, est le Barada actuel.

En résumé, l'Oronte à Antioche est appelé dans nos textes latins:

Farfar, ou *Pharphar* (Histoire anonyme de la première croisade, Pierre Tubœuf, *Tudebovus imitatus*, Baudri de Bourgueil, Raoul de Caen, Guibert de Nogent, Albert d'Aix, Robert le Moine, Hugues de Sainte-Marie, l'anonyme des

(1) Hist. occ., t. 1, 1ère part., p. 164.

(2) « La rivière rebelle ». Il avait reçu aussi le surnom d' « El-Maqloub », « le Renversé », parce que seul de tous les cours d'eau de la Syrie il coule du Sud au Nord (« Documents arméniens », t. 2, p. 249, note).

Gesta Francorum Iherusalem expugnantium, l'anonyme de l'*Historia ducis Gotfridi*, l'anonyme de l'*Historia nicaena* composée pour Baudouin III);

Fernus (Foucher de Chartres, son abréviateur des *Gesta Francorum Iherusalem expugnantium*, et l'*Historia nicaena*);

Ferna (Albert d'Aix);

Fer (une note dans un manuscrit de Pierre Tubœuf: « fluvius Orontes, vulgo Fer », *Historiens occidentaux*, t. 3, p. 34; et Guillaume de Tyr, mais celui-ci use de préférence du nom savant d'*Orontes* que donnent aussi les historiens grecs);

Far (Gautier d'Antioche et l'anonyme rhénan de l'*Historia ducis Gotfridi*).

Et dans les textes français:

le Fer, ou *li Fers*, ou *li fluns d'Elfer* (*L'estoire d'Eracles*. Savoir: «de Fer» ou «di Fers», *Historiens occidentaux*, t. 1, 1ère partie, pp. 195, 679; t. 2, pp. 849, 876, 877, 1066. « Li fluns d'Elfer », *ibid.*, t. 2, p. 751).

le Fel (*Estorie de Jerusalem et d'Antioche. Historiens occidentaux*, t. 5, 2ème partie, pp. 633 et 644). (1).

Pour le pont, au contraire, — qu'il s'agisse du pont situé à sept milles d'Antioche, ou de celui qui touche aux murs de la ville, car nos textes ne leur donnent pas d'appellations distinctes, — son nom est tiré, presque toujours, du simple Far ou Fer; il est appelé:

pons pharphareus (Guibert de Nogent, *Historiens occidentaux*, t. 4, p. 177), ou *pharpharicus* (*ibid.*, pp. 178, 180, 181, 190, 207), ou *Pharpharis* (*ibid.*, p. 229);

pons Fernae (Albert d'Aix, *Historiens occidentaux*, t. 4, pp. 360, 361, 362, 372, 434, 448); mais il écrit aussi *pons Farfar* (*ibid.*, t. 4, pp. 369, 371-372, 620);

---

(1) Le prince arménien Hayton, dans le livre qu'il a dicté : « La flor des estoires d'Orient », dit que l'Oronte est appelé « Revel » (Documents arméniens, t. 2, p. 249). Ce mot, mis pour « Rebelle », est la traduction de l'arabe « Nahr-el-Assy ».

pons Ferni fluminis (*Historia nicaena* composée pour Baudouin III, *Historiens occidentaux*, t. 5, 1ère partie, p. 162);

Pons Ferri (Guillaume de Tyr, *Historiens occidentaux*, t. 1, 2ème partie, p. 877);

Pons Faris (Gautier d'Antioche, *Historiens occidentaux*, t. 5, 1ère partie, p. 85);

mais le plus souvent *pons ferreus*, (parfois *farreus*), (*Histoire anonyme de la première croisade*, éd. Bréhier, pp. 66, 82, 114; Pierre Tubœuf, *Historiens occidentaux*, t. 3, p. 34; *Tudebovus imitatus*, *ibid.*, t. 3, pp. 185, 186; Robert le Moine, *ibid.*, t. 3, pp. 784, 771; Raoul de Caen, *ibid.*, t. 3, p. 671; Baudri de Bourgueil, *ibid.*, t. 4, pp. 40, 46, 47, 61, 78; l'anonyme rhénan de l'*Historia ducis Gotfridi*, *ibid.* t. 5, 2ème partie, pp. 459, 468; Caffaro de Caschifelone, *ibid.* t. 5, 1ère partie, pp. 51, 56; Henri de Huntingdon, *ibid.*, t. 5, 2ème partie, p. 376). (1).

Et en français: *le pont del Fer* (*Estoire d'Eracles*, *ibid.*, t. 2, p. 877).

***

Pour en revenir à notre auteur du *Bâtard de Bouillon*, une chose est sûre, c'est qu'il n'a pas fait toute cette discussion. Il a pris sans hésiter le *pontem Ferreum* des manuscrits latins, ou le *pont del Fer* des récits français pour un pont de fer. Un détail comme celui-là, pittoresque et frisant la légende, lui convenait à merveille; aussi le répète-t-il d'une laisse à l'autre de son poème. Ce pont de fer a dû faire fortune; nous sommes convaincu qu'on le retrouverait dans d'autres chan-

(1) Citons comme une curiosité le bizarre poème de Gilon de Toucy (XIIème siècle) : « Ad historiam gestorum viae nostri temporis hierosolymitanae », dont presque tous les vers contiennent des allitérations et des rimes intérieures. C'est pour les besoins de cette savante versification que le poète écrit, au vers 3 du deuxième livre : « Pons tamen in ferro fit pervius antea ferro ». (Hist. occ., t. 5, 2ème part., p. 739).

Il faudrait une majuscule au premier « ferro ». L'auteur vient de dire qu'Antioche, close de murs, est entièrement cernée par les assiégeants; « cependant le pont sur le Fer, devant la ville », permet des sorties et « livre passage au fer ».

sons. Les trouvères en oublièrent de nommer le «flum»: ils eussent été bien embarrassés.

D'autre part, ils transportaient volontiers d'un pays de légende à l'autre des décors inconnus. Comme sur un tapis magique, notre poète transporte à La Mecque les montagnes, les remparts et les tours d'Antioche, et le pont de fer, avec son « flun » naturellement, qu'il a la naïveté de confondre avec le Jourdain. Naïveté? On ne peut guère employer ce mot quand il s'agit d'un trouvère du XIVème siècle, qui n'est plus un jongleur primitif mais un homme du métier racontant délibérément des fables devant des auditeurs incapables de le contredire. N'oublions pas qu'il est aussi l'auteur du poème héroï-comique de *Baudouin de Sebourg*. Tout compte fait, c'est un plaisant et un pince-sans-rire. Ce jugement ne peut qu'être confirmé par ceux qui le soupçonnent d'avoir écrit aussi la chanson bourgeoise d'*Hugues Capet*.

THE MAMLUK CONQUEST OF CYPRUS IN THE FIFTEENTH CENTURY.(1)

by

M. Mustafa Ziada

Part I.

In April 1422, the Mamluk Sultan Barsbey stepped on to the throne of Egypt, amid the peculiar intriguing and violent wire-pulling behind the scenes, which characterised the accession of nearly all the Sultans of the Mamluk period. For many years before Barsbey's accession, the relations between Egypt and Cyprus were occasionally strained, owing to the recurrent depredations of Frankish pirates, mostly from Cyprus, on the Egyptian and Syrian Coasts (2). These were becoming serious in 1422. Thus, one night in July of that year, a batch of Frankish pirates, in two grabs (3) hailing from some Cypriot cove, surprised the port of Alexandria, and after an uneven fight that lasted all night, plundered and destroyed a merchant ship with 100,000 dinars' worth of goods. They sailed westward towards Barka, where they ravaged the coast, laying their hands on what they could, and were some days later sighted off Alexandria sailing eastwards (4). About the same time in the following year, it was rumoured in Cairo that the corsairs were going to repeat the process, and, on the strenght of the rumour, Sultan Barsbey despatched several emirs to guard the Egyptian and Syrian shores (5). The corsairs did not make an appearance, however, until June 1424, when they seized near Damietta two Muslim ships, laden with a considerable cargo, and captured more than a hundred men on board (6). Barsbey was enraged, and began to make preparations for a naval expedition to set out, not particularly to Cyprus, but merely to ascertain which of the nationals of the neighbouring countries were pirating the seas (7).

Janus of Lusignan, King of Cyprus (1399-1432), and his subjects, were directly, though not solely, concerned in these depredations, for Janus himself rashly encouraged Christian pirates to prey upon the Egyptian coasts. They were not necessarily Cypriots, but they used the numeous inlets and creeks of the Island as their base. Janus' subjects, besides, purchased the goods which the pirates pillaged, and bought the prisoners whom they brought for slave work (8). This state of affairs went on intermittently during the period between 1404 and 1414. At last, a peace was made with the ruling Mamluk Sultan, and a Cypriot envoy was expressly sent to Cairo to conduct negotiations. He brought back with him a Mamluk official to fix the terms of peace, and, besides, to buy all Egyptian captives in Cyprus (9). Janus showed remarkable friendliness towards the Egyptian envoy, and on the occasion of ransoming the 535 Muslim prisoners in Cyprus, the King accepted the sum of 10,000 dinars for the release of four hundred of them, and paid the ransom of the remaining 135, amounting to 3375 dinars from his privy purse (10). The conditions of the peace were equally gratifying to the Sultan: Janus "promised not to allow pirates to be received any more in his island, nor to send pirates into Syria; and if pirates should come, he would not give them provisions from Cyprus, and no one was to take upon imself to buy spoil" (11).

It appears, however, that the peace was not at all popular among the people of Cyprus themselves, for they too had become "accustomed to go pillaging upon the Sultan's coasts" (12). Peace with the Sultan therefore meant an irksome stoppage of plunder and booty, and thus they scoffed at the peace proclamation, which was issued at Nicosia in November 1414. To them the anxiety of the Mamluks for peace, belied fear on the part of the Sultan and his emirs. Thus once again piracy became rampant; knights and officials of high position in the King's service abetted the malefactors, "and the spoil was being bought secretly by Philip Picquigny the bailiė of Lemeso and Sir John Gasel, the commander of Aliki" (13).

Barsbey protested against such rank breach of the peace, and threatened dire reprisals, to which Janus replied in defiant terms, and even connived at the seizure by two Cypriot ships

of an Egyptian grab, which had been sent with costly gifts to the new Sultan of Turkey (14). Other causes of war by no means lacking: The insulted Sultan "resolved to avenge the people of Alexandria upon the Cypriot Efreng, who had once in 1368 seized the town", and departed with 5000 prisoners (15). He was, moreover, encouraged by one captain Fadil, a certain citizen of Ayas, who assured him of Cypriot guilt and of easy booty and enormous plunder, if only he undertook the campaign (16). To this, it might be as well to add here, was joined the encouragement of the Sultan by the Genoese as well as the Kai-Kobad prince of Alaya, although their sinister machinations did not take place until 1425, and were directed so that the Sultan might prosecute the war, to which he had already committed himself (17). Moreover, in 1422 Barsbey, the strongest of his dynasty, came to the throne and was eagerly playing for popularity during his first years. It is possible, besides, that he saw in the waging of war against the Lusignans a means of occupying his unruly emirs, and of diverting their courage and prowess, often employed against the person of the Sultan, to feats of valour in a campaign that had the semblance of a holy war (18).

Barsbey could not boast, however, that his war against Cyprus was the first of its kind in Muslim annals. As early as the first days of the lightning conquests of Islam, an expedition was sent by Muawiya, first of the Umaiyads, to the Island of Cyprus in 649. It did not result in a permanent occupation, but was merely a robber raid, on the occasion of which the town of Salamis-Constantine was destroyed (19). Yet it was classed by the annalists of the fifteenth century, as the most heroic and most successful of all attempts against the Island, the like of which was vouchsafed only to Sultan Barsbey (20). The second Muslim expedition against the Island took place in 653; and this led to the first step towards the settlement of the Faithful in the country. Muslim suzerainty was made more visible in 688, when it was agreed, between the Umaiyad Khalifa and the Emperor Justinian II, that the Cypriot tribute be divided between the two supreme powers. Under the Abbassids, successful expeditions against Cyprus took place in the reign of Harun al-Rashid and even later, but on all those occasions the permanent occupation of the Island was not thought of, and Byzantine influence was

always predominant. Centuries later, the Lusignan kingdom of Cyprus was always a handy and powerfull ally of the Crusaders against the Muslims; and it continued to be a permanent menace to the Mamluk Empire, which was founded in Egypt in the latter half of the thirteenth century. Beybars I, who is rightly considered the founder of that Empire, sent a fleet against Cyprus in 1270, which was however wrecked off Limassol, the town which was to suffer siege and rapine on each of the three expeditions of Barsbey (21).

The first of these expeditions took place in 1423. It consisted of a small flotilla of five sail in all, of which only two brigantines, with eighty Mamluks on board, were fitted out from Egypt (22). These set out from Bulak, the port of Cairo, on 7 August 1424, and were eagerly joined at Damietta by a "sallura" carrying numerous volunteers (23). They were further reinforced by two more ships from Beyrut and Sidon, which raised the total of the troops to a considerable number (24).

It is well to say here once more, that the purpose of this first expedition was to fix the responsibility for the prevalent piracy on the sea, and to make sure of the real attitude of the King of Cyprus to the daring depredations on the Egyptian and Syrian coasts. The flotilla reached the Cypriot shores at at Ras Alyak (Cape Gatto) south of Limassol, where it surprised a merchant ship, and seized its goodly cargo, after the crew had abondoned it in panic (25). Having set fire to the empty boat, the Egyptians proceeded to al-Lamsun (Limassol) "to reprove the Magistracy" for their culpable connivance at the recent outrages on the Sultan's coasts (26).

King Janus had been forewarned of the approach of the flotilla, and had made preparations for the defence of Limassol by land and sea (27). Thus on their arrival at the port of Limassol, the Mamluk ships came up against three fully armoured grabs which they, however, routed and set in flames, after having stripped them of all war tackle. Soon afterwards, the vanguard of the concentrated land forces, numbering seventy horsemen and thirty foot soldiers, headed by captain Philippe Provosto and by the bailiff of Limassol, Philippe de Picquigni, appeared on the scene. The captain met his death early in the encounter, upon which the bailiff fled, and the leaderless vanguard retreated, leaving some slain and a few

prisoners. The Egyptians cut off the head of the dead captain, and then pounced upon the neighbourhood, sacking and plundering to their fill (28). The idea of attacking the castle of Limassol was seriously mooted among them, but they soon found that it would entail a long siege, for which they were not prepared (29). In consequence, they sailed away in the direction of Kouklia, in the vicinity of old Paphos, meeting on their way two galleys from Gorhigos, one of which they set on fire, and the other they ultimately towed home, after having committed great havoc at the town of Kouklia (30).

The flotilla departed from Cyprus towards the end of September 1424, and arrived at Bulak on the 14th of the following October, with 23 prisonners and a considerable booty, which consisted of Venetian piece goods of broadcloth, cotton fabrics and furniture, as well as large jars of honey and preserved butter. Barsbey disposed of the booty "according to the law of God", said 'Aini; but on the authority of Makrizi, who had no cause to mince words for the sake of the Sultan, Barsbey was presented with 103 piece-cloth which "were sold to the merchants, and he gave nothing to the warriors (31).

Encouraged by this quick success, and informed of the real attitude of the King of Cyprus, Barsbey resolved upon a grand expedition, and in this he was supported by the people of Cairo, who now yearned for a holy-war (djihad) (32). Thus, hardly had the affairs of the last expedition been settled than he ordered, in November 1424, that new galleys be built at Bulak (33). The work was hastened and diligently supervised by the Sultan himself, who, as soon as some of the boats were launched, began in April 1425 to enlist a considerable number of soldiery, giving the general command to the emir Djerbash al Karimi, grand Chamberlain, who was also known by the name of Kashok (34). He appointed two Mukaddams of a Thousand, two Lords of the Drum, three Emirs of a Twenty, and about 400 of his own Mamluks, to whom were added ten Mamluks from each Mukaddam and two from each Emir of the Drum in Cairo. He also employed a number of retired emirs as well as naphtha throwers, swordmenders and lancers. In short, there were ready for the expedition from Egypt 600 fighters, whom the Sultan paid, and 300 whom the emirs procured (35). On June 7 the horses, to

the number of 300, were sent by land to Tripolis; and two days later all the boats of the flotilla, consisting of eight grabs, were in full trim for sailing. The Sultan rode to Bulak on that day to review the splendid array; and on the morrow his son rode to the harbour to watch the departure of the first four (36).

In spite of his preoccupation with this feverish preparation, Barsbey was not unmindful of the possibility of a retaliatory attack by the King of Cyprus on the Egyptian and Syrian coasts, and he managed in February 1424 to complete the building of a watch tower at the sea town of al-Tina near Damietta. The necessity of that tower had long been felt, but in the circumstances it was quickly built and amply garrisoned (37). A month later, a rumour was in the air that the Franks were about to make a surprise attack on the Sultan's shores, and Barsbey despatched several emirs to put the various ports of Egypt and Syria on guard (38). The rumour was not groundless, for, on hearing of what had befallen his galleys and his army at Limassol in the past year, Janus prepared four galleys for making reprisals (39). Two of them went prowling round the Syrian coast under the command of Thomas Provosto, who surprised the Syrian town of Sur in March 1425, and sailed away after a short battle which cost the garrison 50 killed. They proceeded thence to the little town of Djebel where, however, they did not fare so well (40). Finally, they steered towards the estuary of Nahr-al-Kalb in search of fresh water, but they were ambushed and had to set sail quickly, leaving the landing party to the mercy of their captors (41). But they were soon able to retaliate, for on their way to Cyprus they encountered a Muslim carrier ship, which was bound for Egypt with a cargo of oars from al-Lathikiya (Laodica). They boarded the boat and killed the crew, except for a tall Mamluk whom they captured and put in prison. He was no less a person than Captain Fadil, who had so vigorously encouraged the Sultan to invade Cyprus (42).

The other two galleys, which Janus had fitted out, were commanded by Don Palol, the Bala of the Arabic chronicles, and their mission was to waylay the Egyptian flotilla at the Egyptian sea-ports of embarkation. Bala lay in wait off the estuary of Damietta, but on sighting the flotilla of eight

brigs, which had sailed recently from Bulak, he plainly saw the futility of giving battle and sailed away (43).

The eight vessels sailed from Damietta on 7 July, 1425, and were joined first at Beyrut and then at Tripolis by many more ships, Mamluks, volunteers and camp followers. The flotilla now numbered close on forty sail — 5 men-of-war, 19 galleys, 6 horse-transports, and 12 galliots (44). Before the general order to sail from Tripolis was given, Djerbash al-Karimi, the comamnder-in-chief, sent to Janus a message of peace, enjoining him to surrender and pay homage to the sultan; but the King declared for war (45). In consequence the flotilla unfurled sail on 30 July, arrived four days later at Korbass (Karpas) on the north-east coast of Cyprus, and was in the vicinity of Famagusta on 4 August (46). There, all the horsemen and most of the foot soldiers disembarked, and pitched their tents (47). Friendly Famagusta was peacefully surrendered; its Genoese governer hoisted the Sultan's standard on the castle, and told the invaders all he knew of Cypriot preparations (48). For three days the Mamluk troops raided the country west of Famagusta, during which they were timidly followed from one village to another by a small Cypriot army. This was commanded by the King's brother, the Prince of Galilee, who managed to discomfit a scouting party of 20 Egyptians near the village of Stillus, and pushed them back to their boats, less six killed and one prisoner (49).

The flotilla then sailed towards al-Mallaha (Salt-Pans near Larnaka), having left 400 soldiers to watch for the enemy, who was still following them (50). The footsoldiers rejoined the boats in the morning at Ras al-Adjus (Cape Greco), bringing with them a whole company of thirty prisoners, whom they had surprised and captured near by, together with their leading officers, in the small hours of the morning (51). No sooner had they passed Pyla, and were in sight of Larnaka, than a Cypriot fleet of eleven sail came in sight, and without giving battle simply took to flight (52). This was only a feint, which failed to draw the Muslim flotilla to the open sea; and in consequence the Cypriot fleet returned and challenged the Muslims to battle. A hot naval fight ensued, in which the Egyptians hurled missiles from their arquebuses and bombards, and the Cypriots replied with Greek fire. But the Egyptians moved abreast, and approached their challeng-

ers with the intention of boarding their ships, and as a result the Cypriots retreated, and gave up the day. Thus were dashed the hopes of the King's brother, who had quartered himself at Aradippou, and was watching the battle from a distance (53).

The Egyptians then steered into the harbour of al-Mallaha; there they sighted a company of about 300 Cypriots, whom the prince of Galilee had sent to engage the Saracens as soon as they disembarked. They were routed, and the Muslims seized the occasion and saked the salt-Pans and the neighbouring villages including Aradippou.They ravaged much, and captured many prisoners to the number of 492 (54). Their booty was further swollen by the seizure of three munition carts, sent by the King for the assistance of al-Mallaha, which they had just laid in ruins (55). On the following day, 11 August, the Prince of the Galilee gave up the idea of engaging the Mamluks in further battle, on the advice of his consellors, whom "the King had given to the Prince, they being wise men" (56).

A couple of days later the Egyptians proceeded to al-Lamsun, where they arrived on 15 August. Their objective was the castle of the town, and they landed a company of 150 men with some Mamluks for its capture. They had no great difficulty in storming it, as they had been previously informed of an unguarded part of the wall by some escaped Muslim slaves. Thus, although its garrison fought stoutly, its surrender was a foregone conclusion. On 16 August, which coincided with the beginning of the Lesser Bairam, the Muslims triumphantly celebrated the day by hoisting the Sultan's standard on the ramparts of the hapless castle of Limassol (57).

Before the Muslims had decided on the next step, they were warned by a fugitive company of Egyptian prisoners from Piskopi that Venice had just sent aid to the Cypriots (58). This news, added to the rumour that the King of Cyprus was about to send his armies against them under a new command, spread fear in the ranks of the victorious, who were becoming tired of the war, and were perhaps eager to carry their booty into safety by going home (59). The commander-in-chief likewise deemed it opportune to depart, and issued, with the consent of the rest of the emirs, a general order to prepare for

return (60). Meanwhile the Cypriot army under the command of the Viscount of Nicosia appeared, but soon retreated after being worsted in several engagements, and the Mamluk commander-in-chief thought it high time to unfurl sail (61).

The first news from Cyprus concerning the expedition arrived Cairo on 24 August 1425, announcing the land and sea victories at the Salt-Pans. The Mamluk Capital went en fête, and the Sultan ordained that the joyful despatch be read publicly at the mosques of Amr b. al-'As and Al-Ashrafiya. Four days later, however, news came announcing the arrival of the expedition at al-Tina, which was hastily construed as meaning that the initial successes of the epedition had been reversed. The people's glee was damped, and the Sultan swore that he would immediately send a larger expedition. But the courier, who arrived from al-Tina a few days later, explained everything, and the people cheered (62). The victors entered Cairo on 9 September, and went up to the Sultan on the morrow in a triumphal procession with 1060 prisoners and a grand booty, which was carried by 170 porters, 10 camels and 4 mules (63). When all was reviewed by the Sultan, he cammanded that prisoners be publicly sold, and the booty be valued; but to his credit it must be recorded that he gave strict instructions not to separate the parents from their children or other near relatives (64). The sale was conducted by Inal al-Shishmani, Lesser Chief of the Guard, and supervised by Djakmak al-'Alai, Master of the horse, who was destined to become Sultan. On the authority of the former, the proceeds of the sale amounted to the considerable sum of 23,300 Dinars, all of which went to the state treasury after each adventurer had been paid 3½ or 7 Dinars (65).

It appears that in the wake of the victors, a Cypriot peace mission, consisting of Don Thomaso Provosto and Don Jean Podochataro, arrived in Damascus with the intention of approaching the Sultan through one Shaikh Muhammed Ibn Kodaidar, a pious man of great esteem in Syria (66). Indeed, it was rumoured in Cairo that Janus had written to the Governer of Damascus, offering to make peace with the Sultan (67). It is certain, moreover, that Shaikh Muhammed, in order to further the prospects of peace, sent his own son to Cyprus to convince the King of the necessity of mollifying the Sultan, but the King's counsellors could see nothing but a

ruse in the presence of the pious man's son, whom the King was not allowed to see, and the peace overtures were brought to a close (68).

Janus was intent upon war, and appealed to Christendom for military aid; but the response was very poor. He applied to Venice for a loan of money on ample surety, and asked for troops and crossbowmen from the Republic; but Venice declined to give any help, and even prohibited its nationals from participating privately in the campaign, thus cutting off the possibility of such private aid as had reached Cyprus from the Venetian sugar merchants during the last campaign (69). Constantinople, decrepit and senile herself, could not possibly give any material aid, but the Emperor sent a messenger to Cairo with a rich gift, to intervene on behalf of the Cypriots. Yet though the Sultan graciously accepted the present, he rejected the mediation for peace (70). Castile sent no official help; but a Castilian adventurer named Mosen Saurez, who became in later years admiral of the Cypriot fleet, joined the King's forces and fought in his ranks (71). Rhodes and the Knights of the Order of St. John, on the other hand, had vested interests in Cyprus, and the Master of the Order prided himself on being the guardian and protector of the Lusignan House. Like the Emperor of Constantinople, he failed in mediating for peace, but sent considerable help of ships, men and munitions (72). Ali of Karaman, who had suffered imprisonment in Cairo at the hands of the Egyptian Sultans, and was then on friendly terms with Cyprus, also gave aid in the form of allowing Janus to hire Karaman soldiery for the campaign (73).

Barsbey was also equally intent on war. He had intended no such hasty return as his troops had made on their own initiative, but meant a permanent conquest of Cyprus. He was further encouraged by the reports of the returning warriors, who related to him that the Cypriots "were not cunning in war", and also by some Genoese nationals in Alexandria, who, apparently on instructions from home, told the Sultan that the King of Cyprus had no forces left to set against his hardy troops. Their idea was clearly to keep Janus occupied with the Egyptians, so that he would have no time to entertain again the dream of recovering Famagusta. Barsbey was also importuned by the Kaikobad prince of 'Alaya to prosecute

the war. That prince had everything to gain by the war, for his puny principality was always threatened by the allied powers of the Lusignan and the Karaman, of whom the former held Gorhigos as a sword over his head, and the latter hemmed in his territories on land. And lastly, the news that Janus had applied to the Courts of Europe for aid, to make a concerted attack on the ports of Egypt and Syria, decided Barsbey to abandon any idea of peace, which was at best remote (74).

Barsbey prepared everything on a grand scale, to ensure success for the third expedition. He commsisioned a considerable number of Egyptian emirs, and alloted the land and sea commands, giving the former to Taghribardi al-Mahmudi, Supreme Chief of the Guard, and the latter to Inal al Djakmi, Master of the Audience, with express instructions not to infringe upon each other's sphere of command (75). The army itself numbered about 5000 men, of whom a considerable portion consisted of volunteers, who had calmoured and begged for leave to join the "holy war". Some of these, being refused on account of lack of transport, even joined without the knowledge of the Sultan as camp followers (76). Considerable contingents of Syrian Bedouins, and Mamluk solidery from Damascus, Safad, Gaza, and Tripolis, formed another feature of the army of the expedition. They arrived in Cairo, and paraded the streets amid the loud cheers of the populace; and shortly after, began to make their way to Bulak where all troops assembled ready to sail (77). On June 1st. they set out in a flotilla that consisted of about 100 vessels of all types and sizes, expecting to be joined off Rosetta by a squadron of five caracks from Alexandria. But before that took place, the flotilla met near Rosetta with a violent storm, which wrecked four ships and cost the expedition ten lives and a hundred horses, besides a considerable amount of provisions (78). The mishap nearly decided the Sultan to postpone the expedition till the next year, had it not been for the persuasion of the historian 'Aini (79). The damage was expeditiously repaired, and the flotilla went its way to rejoin the squadron of Alexandria, which had returned to its base until the repairs were completed. There, it was surprised by four Cypriot men-of-war, which had been lying in wait off the coast to repeat more successfully the attempt of the last year. But the encounter

ended in Egyptian victory, owing to the timely arrival of the greater part of the main flotilla from Rosetta (80).

The combined fleet steered directly to Cyprus this time, and cast anchor on 1st July 1426, at Livadia on the coast of Avdimu, a few miles from Limassol. The land forces disembarked and pitched their tents, while the sea troops remained aboard in full readiness and preparedness for battle in case Frankish ships appeared on the scene (81). Then a mounted detachment of the land forces set out towards the castle of Limassol, which to their astonishment they found to have been throughly repaired and fortified with a new deep moat. They attacked the walls deligently, and succeeded in scaling at one side of the rampart, thanks to the intrepid valour of their commander, Yashbak Karkash, a noted knight, who set the example and was followed by many others. The soldiers of the garrison, who had been boiling tar to pour on the attackers, were surprised and hid themselves; but they were slain to a man, and the Egyptians hoisted the Sultan's standard amid their customary shouts of "Allahu Akbar" (82). Then they proceeded with the work of levelling the castle, and for six days Limassol and its neighbourhood suffered grievously at their hands. This work was partly interrupted by the entry into the port of Limassol of a Cypriot galley which, however, took to flight at sight of two challenging Egyptian grabs. It was pursued along the shore by Egyptian horsemen, who soon descried it at anchor, and spurred their mounts towards its disembarking men, whom they put to the sword. They returned in triumph with five heads, which they suspended from the shattered walls of the castle of Limassol (84).

The sack of Limassol was deemed enough to bring Janus to his kneess, and thus before the Egyptians had taken any further steps, they sent a herald to the King summoning him to surrender (85). Three days earlier, Janus had given the order for a general march from Nicosia, and he was already at Potamia at the head of the army when the Mamluk messenger arrived; the latter was refused audience and was tortured to death (86). In consequence the land and sea forces of the invaders decided on 7 July, which was the first day of the month of Ramadan, to advance separately towards the Salt-Pans. But the former had only covered a very short distance

when they found themselves face to face with the vanguard and skirmishers of the King's army, which had arrived two days earlier at the village of Kherokitia on the river Vassilipotamo. The vanguard offered no battle, but hurried back to their headquarters with many wounded, who gave Janus painful and palpable assurance that the Egyptians were at hand (87).

Janus arranged his troops in squadrons of 100 and of 50, and gave instructions that the foot-soldiers should advance in "testudo" form.The Egyptians came very quitely over the top of the hill towards the plain,and pounced upon the Cypriots, but were repulsed and forced to retreat. The King failed to follow up his first advantage with a hot pursuit, as his army was unreasonably panic-stricken and would not advance. The greated number of the footmen abandoned their arms and fled, because they were not skilled in fighting. Confusion followed and chaos ruled, and the Mamluks, renewing the battle, won the day. They overtook and slew the King's brother, who had with singular brutality set fire to the hanging dead body of the Mamluk herald, on his return after the first attack. They also captured King Janus, as well as Mosen Saurez, near the gate of the village tower. "Then they turned back, and all those whom they found weary they slew, and the others they hacked to pieces" (88).

The troops followed the victory with the usual ravage and rapine, pillage and plunder, all over the neighbourhood. They crowned their vandalism with setting fire to the Church of the Great Cross on Mount Staurowuno (Djabal al-Salib), after which they repaired as pre-arranged to the Salt-Pans. There, they were shortly joined by the sea forces on 10 July 1426, and the naval commander received the captive King on board (89).

At that juncture,abundant evidence reached the Egyptians that though Janus was now in their hands,his other brother,the Bishop of Nicosia, was fortifying the Cypriot Capital, and arming to give them battle. In consequence the emir Taghribardi al-Mahmudi marched to the Capital, with the main part of the land army (90). Suddenly, however, but much too late to undo the disaster of Kherokitia, a huge Christian fleet appeared off Larnaka, and a great sea fight, in which two pilgrim ships were fatally involved, raged on 10 July from

dusk till dawn of the next morning (91). Under cover of darkness, the Egyptians tried to board some of the Cypriot boats, in spite of a heavy discharge of missiles, and they finally managed to capture one caravel in the morning twilight. This seems to have decided the battle, as shortly afterwards the Cypriot flotilla took to the open sea (92).

Taghribardi on the other hand reached Nicosia, from which, contrary to the alarming news, the Bishop had departed to Kerynia with the King's son and daughter, leaving Stathi Burelli as governor (93). The town offered no resistance; indeed some of its dignitaries, who spoke the language of the invaders, took torches and welcomed them into the city in the small hours of the morning of Thurdsay, 11 July (94). Elated but surprised at this strange sucess, Taghribardi betook himself to the King's palace, where he pitched his headquarters. He asked to be informed of the revenues from the royal dues, and was tactfully silenced by a handsome sum of money, with more to follow for the coffers of the Sultan. On that understanding, he issued a proclamation of safety and security, and all was well (95). On the morning of the following Friday, however, a Mamluk corps arrived from Larnaka, but as the soldiers had not heard of the general proclamation, they began to plunder the houses and the churches and the monasteries. Their raid developed into general slaughter and a fierce sword fight; and they crowned their outburst, which had already lasted two days and one night, with setting fire to the King's palace from which al-Mahmudi, their commander-in-chief, was extricated with great difficulty (96). With no more booty to loot, they all left Nicosia in chaos, and returned to the Salt-Pans.

The conquest of the island was accomplished, and the invaders had realised their highest expectations. They decided to go home, and sent a courier to announce the news, but stayed for seven days at the Salt Pans, resting and celebrating their victory (97). The Sultan and his people were indeed thirsting for news, for since the great tidings of the sack of Limassol, which had arrived in Cairo in July, and made the metropolis rejoice, nothing had been heard (98). Thus on the arrival of the courier Cairo went en fête, and the shawms and flutes and hautbois and drums of the Citadel were ordered to play for three days (99). The Sultan was radiant with

delight, and his eyes watered out of sheer joy (100). Elaborate preparations and decorations were set afoot for the reception of the victors, whose first arrrivals reached Damietta early in August (101). Cairo went out to witness the entry of the triumphal procession; and its crowds were swollen by innumerable people, who had come especially from the provinces to see the return of the conquerers, after such brief but decisive campaign (102). The crown and the royal banners of Cyprus were carried in triumph through the streets, in front of King Janus and Mosen Saurez, who were mounted on mules, and followed by a couple of thousand prisoners (103). The King was dismounted at Bab-al-Mudarradj of the Citadel, where he kissed the ground, and was then led, bareheaded and in irons, to the presence of the Sultan, who was surrounded by a brilliant Court, at the head of which sat the Sharif of Mecca himself. By a strange coincidence a splendid array of foreign envoys from Turkey, Turkhoman principalities and Tunis, as well as representatives of Syrian governers and vassals, was also present (104). Janus was ordered to kiss the ground before the Sultan, at which he fainted, but on recovery he bowed to adversity and pitifully complied (105). He was then taken aside, so that Brasbey might gloat over the parade of booty and wretched prisoners, which was followed by the march past of the units of the victors (106). Janus was then brought to the presence, and again kissed the ground; he was left standing for a long while until the Sultan had a long look at him, after which he was removed in honourable custody to the tower of the Citadel. Barsbey then bestowed the customary robes of honour on the victorious emirs, and the ceremony was at an end (107).

(To be continued).

NOTES.

1 — The subject of this essay is part of chapter IV. of my thesis, presented in October 1930, to the Department of Mediaeval History, University of Liverpool, for the Degree of Ph. D. Since then, the Chronicle of Makhairas, written in Cypriot Greek, has been edited with translation and notes by Professor R.M. Dawkins (Oxford, Clarenden Press, 1932). The edition needs no praise, and the Chronicle itself contains much new information, otherwise lacking or obscure in the sources previously drawn upon. Not only that Makhairas was an eyewitness of the battle of Kherokitia in 1426, which decided the fate of Cyprus in the Fifteenth century, but his narative showed that he was fairly in the know of inner information (See Makhairas: Op. cit. vol. 1 pp. 619, 653, 659, 665). Moreover, the Chronicle of Strambaldi, extracts of which are in M. Mas Latrie's collection of documents relating to the history of Cyprus (Op. cit. vol 1. pp. 527-544), and which the present writer had formerly utilised, is a translation into Italian of the more concise of the two existing versions of Makhairas, from which Dawkins edited his work, (Makhairas : Op. cit. vol. II. Introd. pp. 1, 5.)

For the purpose of this essay too, another contemporary source of information has been consulted. This is a part of a Chronicle written in Arabic by Sâleh Ibn Yahya, who served in one of the Sultan's expeditions against Cyprus as sea captain, and is especially enlightening on the naval side of the war. It is to be found in M. le P. Louis Sheikho: Un Dernier Echo des Croisades : Appendice à l'Histoire de Beyrouth et des émirs d'Al-Garb de Salih ibn Yahya, texte et traduction (Mélange de la Faculté Orientale, Université St. Joseph, Beyrouth, Syrie 1906, Vol. I. pp. 303-375).

2 — See below.

3 — The English equivalent to the Arabic word « غراب », meaning a certain type of war craft, is given in the Dictionary « الفوائد الدرية » as corvet. Johnson's Arabic-Persian-English Dictionary gives the English word grab for it. This is connoted in Webster's International Dictionnary thus : « Grab... a coasting vessel of light draft and broad beam, with square raking stern, and sharp bow with long overhang, used in the East. It has lateen sails and usually two masts ». Dozy (Supp. Dict. Ar.) gives the following as meaning for « غراب », : « galère... brigantin, petit vaisseau à voile et à rames pour aller en course ». Names of various other types of naval and merchant marine of Egypt occur in the Arabic chronicles of the Fifteenth century, but the exact English equivalent to some of them is not always to be found. These are طرادة. سلورة. قرقورة. جرم. بنف. شحتورة. شبنى. مركب مخروط. مركب مروس. حراقة. نقالة. غراب. حمالة. Torr's work (Ancient Ships, Cambridge, 1894) throws light on

some of these names of ships; see also Charles Bourel la Roncière : Histoire de la Marine Française (Five vols. Paris 1899-1920). The last two names in this list i.e « بنف جرم » need some special explanation. The word « بنف » occurs in the Chronicle of Sâleh ibn Yahya in the plural form as « بنوف », which M. le P. Cheikho was unable to identify. (Ibid : Op. cit. pp. 317, 350 N. 5). But with the change of the last letter « ف » into « ق », the singular form of the resulting word « بنوق » becomes strickingly similar to the English word « pink » i.e a ship with a very narrow stern. Another type of sailing craft which may also help in identifying the « بنف » of Sheikho's text is the « nef ». See Daphne Muir's historical novel : The Lost Crusade p. 91. As for the other type of boat, namely the « جرم », see Makhairas Op. cit. vol. 1. pp. 639, 651, vol. II. 218. 220. It is interesting to know too that the type of ship called in French « taforèse » meaning « vaisseau plat pour le transport de la cavalerie », is given by Dozy (op. cit.) as equivalent to the remarkably similar Arabic word « طيفور », which does not however, occur in the Egyptian Chronicles of the Fifteenth Century. The English words brigantine, brig and grab, will be used indiscriminately whenever the word « غراب » occurs.

4 — Makrizi : Sulûk, vol. IV. fol. 85A (Brit. Mus. Ms. Or 2902; Abû-l-Mahâsin : Nudjûm, vol. VI. p. 561 (ed. Popper). The Arabic Chronicles do not go beyond the word « Efreng » meaning Frankish, in designating the nationality of the pirates. According to W. Heyd (Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age, vol. II. p. 475, the Efreng corsiars on this occasion were Catalans.

5 — Abû-l-Mahâsin : Op. cit. vol. VI. p. 567; 'Aini : 'Ikd. fol. 159 B. (Bibl. Nat. Ms. Arabe 1544); Ibn Hadjar : Inba, fol. 267 A. (Brit. Mus. Ms. Rich. 7321).

6 — According to Saleh ibn Yahyâ (Sheikho : Op. cit. p. 315), the pirates of this incident were Baskawiya (Basques ?), and it was only one merchant ship which the corsairs did seize. This was laden with soap from Tripolis in Syria; and it was owned by Ahmad Ibn el-Hamim, a merchant of Damietta.

7 — Abû-l-Mahâsin : Op. cit. vol. VI. p. 580; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 96 A.; Khalil. B. Shahin : Zubdat etc. (ed. Ravaisse) p. 138.

8 — Camb. Med. Hist. vol. IV. p. 470. Strambaldi : Op. cit. p. 531. Makhairas whose Chronicle is the base of that of Strambaldi expatiates a little more on this subjsct of the pirates. He also allots a considerable share of responsibility to King Janus. Thus he writes for the year 1409 : « And the said King Janus began the war with the Saracens; and the Cypriots were pillaging them from the year 1404 after Christ onwards. And the Sultan endured it in silence for many years, for many of the emirs were not on good terms with him.... And the rulers were getting rich, and so were all the rest

from Saracen plunder . . . . . » (Op. cit. vol. I. pp. 622-23; vol. II. p. 212 note 2 to Paragraph 636.)

9 — Makhairas : Op. cit. vol. I. pp. 623, 629.

10 — Ibid : Op. cit. vol. I. p. 629; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 22A.; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 215B.

11 — Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 623.

12 — Ibid : Op. cit. vol. I. p. 629.

13 — Ibid : Op. cit. vol. I. pp. 629-31.

14 — Khalil Ibn Shahîn : Op. cit. p. 138.

15 — The only evidence that this was one of Barsbey's motives is the assertion of 'Aini, who was a personal friend of the Sultan Barsbey and in his confidence. (See 'Aini : Op. cit. fol. 168 A.)

16 — Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 101 A. Captain Fadil could not have been the Saracen slave who escaped from Cyprus to Egypt, and told the Sultan how the corsairs were ravaging his coasts, and how the Cypriots purchased the goods from them. Fâdil is identified with the tall Mamlûk who was captured by the Cypriots in 1425. (See Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 631, Strambaldi : Op. cit. p. 532.)

17 — Strambaldi : Op. cit. 535. As will be seen, the Genoese in Famagusta actually facilitated the task of the Mamluks during the various stages of their campaign in the Island of Cyprus in 1424 and 1425. Long before then, Janus had tried by war to end the hold of the Genoese over Famagusta, with the sole result that he was compelled in 1409 to sign, on the advice of the Grand Master of Rhodes, an onerous treaty, on the lines of the one which his father had signed in 1374. It was clearly in the interest of the Genoese that Janus should be kept occupied by another foe. (See Vertot : History of the Knights of Rhodes. Vol. I. pp. 308-310; Camb. Med. History. Vol. IV. p. 470; Makhairas : Op. cit. vol. I. pp. 209, 210-211.)

18 — Vertot : Op. cit. vol. I. p. 324; see also Enc. Isl. Art. Djakmak (Cakmak).

19 — Enc. Isl. Art. Cyprus.

20 — Abû-l-Mahâsin : Op. cit. Vol. VI. p. 608.

21 — Enc. Isl. Art. Cyprus.

22 — Abû-l-Mahâsin, Op. cit. Vol. VI. p. 580. Before going any further, it is necessary to point out that the story of the three expeditions against Cyprus, as given here, is based primarily upon 'Aini's version in his chronicle 'Ikd al Djumân (fols. 168 A. — 174 A. (Bibl. Nat. Ms. Ar. No. 1544). There are several other versions in Arabic, as well as that of Makhairas in Cypriot Greek and Strambaldi's in Italian.

23 — Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 87 A. Regarding the type of boat known in Arabic as « سلورة », Dozy does not go beyond « sorte de barque » in giving its meaning, but also gives a Greek equivalent.

24 — Ibn Hadjar (Op. cit. fol. 271a) confuses this puny expedition with the one which took place in the following year, and gives the number of the troops of the latter as that of the first expedition. The version of Saleh ibn Yahya (Op. cit. pp. 315-316), regarding this expedition, tallies in essential detail with the others; but it adds that three of the five ships which constituted the flottilla were fitted with 180 oars each, the other two were of a much less capacity.

25 — Khalil B. Shahin : Op. cit. p. 138; Mas Latrie (Op. cit. Docs. vol. I, p. 507, N. 1.) identified Ras Alyak with Cape Gatto south of Limassol.

26 — 'Aini and Strambaldi and Makhairas agree with Khalil B. Shahin's version as to the arrival of the expedition at Cape Gatto, and its immediate advance towards Limassol. Makrizi (Op. cit. vol. IV, fol. 97 A) and Abu-l-Mahasin (Op. cit. vol. VI. p. 882), who copied from the former and was therefore echoing his master's voice, asserted that the expedition arrived first at Famagusta and then proceeded to Limassol. This would mean that Ras Alyak should be identified, not with Cape Gatto, but Cape Elaea north of Famagusta. Ibn Hadjar (Op. cit. fol. 271A), together with a much later disciple (Author Unknown : Life of Kaitbey, fol. 59B), who copied slavishly from him, agreed with Makrizi's assertion, which would be, however, improbable considering the size of the expedition and the distance between Cape Elaea and Limassol.

27 — Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 631; Strambaldi : Op. cit. p. 531.

28 — Ibid : Op. cit. vol. I. pp. 631-33; Ibid : Op. cit. p. 531; Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI, p. 582.

29 — Khalil B. Shahin : Op. cit. p. 138.

30 — Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 633; Strambaldi : Op. cit. p. 531.

31 — Makrizi : Op. cit. vol. IV, fol. 97A. It is surprising that such a well-informed authority as Ibn Hadjar should say that the number of prisoners was 16000. This is clearly a copyist's mistake, in which Ibn Hadjar's plagiarist (see Note No. 26) could only persist. For the distribution of the booty according to the law of Islam, see Enc. Isl. Arts. Fai' and Ghanima.

32 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 582; Khalil. B. Shahin : Op. cit. p. 138.

33 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 582-583; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fols. 99B, 100B.

34 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 584. Djerbash is the Shirmash of Salih Ibn Yahya (Op. cit. p. 316), and of Aini too (Op. cit. fol. 168B.).

35 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 588.

36 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 588; Makrizi : Op. cit. vol. IV, fols. 100 B., 101 A.

37 — Ibid : Op. cit. vol. VI, p. 584; Ibid : Op. cit. vol. IV, fol. 99B.

38 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 585; Ibid. Op. cit IV. fol. 99 B.

39 — Khalil B. Shahin : Op. cit. p. 139; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 274 B.; Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 633.

40 — Strambaldi : Op. cit. p. 532; Makrizi : Op. cit. vol. IV, fols. 99B., 100A.

41 — Khaill B. Shahin : Op. cit. p. 139; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 274 B.

42 — Makrizi : Op. cit. vol. IV, fol. 100B; Strambaldi p. 532. The former authority gave Laodicea as the town, while the latter said Jazza, which Mas Latrie corrected to Lajazzo (Ayas), the native town of Captain Fadil. Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 633) mentions only this incident of all that happened to Thomas Provosto.

43 — Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 274 B. Neither Makhairas nor Strambaldi mention any thing of Dan Palol in this connection.

44 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI, p. 590; Khalil B. Shahin : Op. cit. p. 139; Salih Ibn Yahya (Op. cit. p. 317) commanded the grab from Beirut in this expedition.

45 — Strambaldi : Op. cit. p. 532. According to Salih Ibn Yahya Op. cit. p. 317), and 'Aini (Op. cit. fol. 169A) the flotilla stayed for about ten days at the harbour of Tripolis, an interval long enough for a messenger to go to Cyprus and come back. In note No. 2 on the same page in Saleh Ibn Yahya, Janus is said to have been inclined towards peace, but his brother was for war.

46 — According to Makhairas (Op. cit, vol. I. p. 633, vol. II, p. 216) the Muslim fleet first came to Khelones, on the south coast of the Carpasi Peninsula just south of Rizokarpaso.

47 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 590.

48 — Ibid : Op cit. vol. VI p. 590; Khalil ibn Shahin : Op. cit. p. 140.

49 — 'Aini : Op. cit. fol. 169 B.; Strambaldi : Op. cit. p. 533. Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 633) follows the campain very closely.

50 — Ibid : Op. cit. fol. 169 B.; Ibid : Op. cit. p. 533; Ibid : Op. cit. vol. I. p. 633-35.

51 — Khalil ibn Shahin : Op. cit. p. 140.

52 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 591; Saleh ibn Yahya : Op. cit. p. 318.

53 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 591.; Ibid : Op. cit. p. 319; Khalil ibn Shahin : Op. cit. pp. 140-141; Strambaldi : Op. cit. p. 533.

54 — 'Aini : Op. cit. fol. 169 B,; Strambaldi : Op. cit. p. 533.

55 — Ibid : Op. cit. fol. 169B; Khalil ibn Shahin : Op. cit. p. 141. The person in charge of the munition carts was called by both authorities Ayn al-Ghazal who, according

Christians and become a Mameluk to them ». According to the latter authority, « he was one of the courtiers of the lord of Cyprus »; this seems to identify him with Sir John Gasel. (See Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 631; and Mas Latrie : Docs. I. p. 509.

56 — Strambaldi : Op. cit. p. 533. According to Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 637) the Prince chafed against the appointement of the counsellors, and « found it very hard to bear that the was held in so tightly ».

57 — Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 637; 'Aini : op. cit. fol. 170A.

58 — 'Aini : Op. cit. fol. 170A.

59 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI, p. 593.

60 — Ibid : Op. cit. vol. VI, p. 593; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 102 A.

61 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 593; Strambaldi : Op. cit. p. 534; Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 637) deals at some length with this last stage of the campain. According to Saleh ibn Yahya (Op. cit. p. 319) the destination of the departing flotilla was Paphos, but the contrariness of the winds finally decided the commanders to steer homeward.

62 — Ibid : Op. cit. vol. VI pp. 590, 592; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 102A.

63 — 'Aini : Op. cit. fol. 170B; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 102B.

64 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 593; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 102B.

65 — 'Aini : Op cit. fol. 170 B; Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 593; Makrizi : Op. cit. vol. IV. fol. 102 B.

66 — Strambaldi : Op. cit. p. 534; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 573A. A short necrological notice of Shaik Muhammad, who died in June 1433, is to be found in Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 308A.

67 — Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 274 A.

68 — Ibid : Op. cit. fol. 273 A; Strambaldi : Op. cit. p. 534, and note 7. Ibn Hadjar, however, put Rabi I, 828 (January, 1425) as the month in which the Shaikh sent his son to Cyprus; it is therefore a case of choosing between Strambaldi and Ibn Hadjar; but it is probable that the latter meant Rabi I, 829 (January 1426). This peace move is dealt with at great length in Makhairas, but the date of it is not mentioned. (Op. cit. vol. I. pp. 639-49; vol. II. pp. 218-19). A letter which the Shaikh had given to his son, to hand to King Janus and which the king was never allowed to see, is preserved in Makhairas too. The son, however, went back to his father with an answer from King Janus. Its main points are that the King defies the Sultan; the kings' army is as good as the Sultan's; that if the Catalans have pillaged in Syria, he is not to blame; that the Cypriots have a right to buy and sell where they please, especially with other Chistians.

69 — See Mas. Latrie : Op. cit. Docs. vol. I. pp. 516-517.

70 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 599; Makrizi : Op. cit. vol. IV., fol. 107 B.

71 — Pero Tafur : Travels (ed. Letts) p. 65. Mosen Saurez is called « the nephew of the Lord of the Catalans », by the Egyptian annalists.

72 — Vertot : Op. cit. Vol. I. pp. 324, 325; 'Aini : Op. cit. fol. 171A; Makhairas : Op. cit. Vol. I. p. 667.

73 — 'Aini : Op. cit. fol. 171 A; Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 606.

74 — Khalil B. Shahin : Op. cit. p. 142; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 278; Makhairas : Op. cit. vol. I. pp. 651-53; Strambaldi : Op. cit. p. 535.

75 — Ibid : Op. cit. p. 142; Ibid : Op. cit. fol. 278B. The would be Sultan Ina (The beardless) joined that expedition; he was then only a Lord of the Drum.

76 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. Vol. VI. p. 600.

77 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 599.

78 — Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 278 B.

79 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 775. But Ibn Hadjar (Op. cit. fol. 278 B), who was no friend of 'Aini, said it was Badr-al-Din B. Muzhir who advised the Sultan not to be discouraged. Saleh ibn Yahya (Op. cit. p. 321) was expected to join this expedition too with a transport from Beyrut, but the contrariness of the winds at Damietta delayed his ship till after the general departure.

80 — Salih Ibn Yahya : Op. cit. p. 321. Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 278 B. The latter authority added that as soon as the Alexandria squadron had left the port to join the main fleet off Rosetta, some resident Franks succeeded in informing the Cypriot squadron of the fact, and the latter thereupon sailed into the harbour of Alexandria to do their worst. But the storm which had upset the Egyptian plan, had also confounded the calculations of the Frank spies in Alexandria. Of the flotilla from the day it sailed from Bulak, Abu-l-Mahasin gives a slightly different version (see Ibid : Op. cit. vol. VI, pp. 601-603).

81 — 'Aini : Op. cit. fol. 171 B; Strambaldi : Op cit. p. 535.

82 — Ibid : Op. cit. fol. 171 B; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 278 B; Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 653.

83 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI, pp. 604-605. The same authority gives the date of storming the castle as 3 July.

84 — 'Aini : Op. cit. fol. 172 A.

85 — Khalil ibn Shahin : Op. cit. p. 142; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 278 B; Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 653-55) mentions three envoys, the third of whom, a Cypriot villager, was entrusted with a letter to Janus, the text of which is also in Makhairas, vol. I. pp. 655-57).

86 — Ibid : Op. cit. p. 142; Ibid : Op. cit. fol. 278 B; Strambaldi : Op. cit. p. 533-36; Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 657.

87 — 'Aini : Op. cit. fol. 172 A; Strambaldi : Op. cit. p. 536-537; Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 657-658.

88 — Ibid : Op. cit. vol. 172 A; Ibid : Op. cit. pp. 537-538; Ibid : Ibid : Op. cit. vol. I. pp. 657-67. The two Cypriot accounts are sober and detailed, whereas the account of 'Aini is bombastic and engerally vague. See also Cobham : Bishop Graziani's Chronicle, p. 11. The number of slain on both sides must have been great. Abu-l-Mahasin (Op. cit. vol. VI. p. 607) said, on the authority of eyewitnesses, that the Christians left 2000; Khalil Ibn Shahin (Op. cit. p. 143) estimated them at 6000. Well might 'Aini (Op. cit. fol. 172 B.) say boastfully that the number of their slain was incalculable « many others were wounded and non was unhurt save those whose predestined hour had not arrived ». Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 657-667) was in charge of the wine during this campaign, his narrative is full of essential details, but he is also most clear on the causes of the defeat of King Janus.

89 — 'Aini : Op. cit. fol. 172 B. According to Khalil Ibn Shahin Op. cit. 143) and Ibn Hadjar (Op. cit. fol. 279 A) the Mamluks carried the Great Cross with them to Larnaka. Félix Fabri : Wanderings (ed. A. Stewart), (vol. I. p. 192, 195-197) gave a graphic account of the Great Crose which he saw in Cyprus in 1488.

90 — 'Aini : Op. cit. fol. 173 B.

91 — Ibid : Op. cit. fols. 173B-174A; Strambaldi : Op. cit. p. 539.

92 — Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 279 A. Makhairas (Op. cit. vol. I. p. 667, vol. II. p. 227) relates that no sea fight took place, for when the Muslims sighted the Chrsitian ships, the Mamluk commander « forced the King to write a letter to the fleet to order it to retire; and they played the coward and retired, taking the King's pay and doing nothing for it ». He mentions, however, (Op. cit. vol. I. p. 671) that the King's ships came back after being dismissed, causing much alarm to the victors.

93 — Makhairas : Op. cit. vol. I. p. 667-69; Strambaldi : Op. cit. p. 540.

94 — Ibid : Op. cit. vol. I. p. 669-71; Ibid : Op. cit. p. 540.

95 — Ibid : Op. cit. vol. I. p. 671; Ibid : Op. cit p. 540; 'Aini : Op. cit. fol. 173 A.

96 — Ibid : Op. cit. vol. 1. p. 671-73; Ibid : Op. cit. p. 541; Ibid Op. cit. 173 A. It is comforting that 'Aini condemned these atrocities in an emphatic way.

97 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 608.

98 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 603.

99 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 604.

100 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 609.

101 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 611.

102 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 612. It happened in that year that the building of the Ashrafiya Madrassa (School) was completed, and the Sultan saw fit to have the crown of Cyprus suspended on the porch, in commemoration of his victory. Ibn Ayas (Badai' (ed. Cairo) vol. II. p. 18) who lived to 1522, wrote that « up to now it was still hanging on the gate of that school ». A much later writer added that Barsbey paid the expenses of building this school « out of the Cypriot booty in that year ».

103 — A graphic description of the procession is in Abu-l-Mahasin (Op. cit. vol. VI. p. 612-613). As for the number of prisoners it is difficult to obtain a clear estimate. Acocrding to Abu-l-Mahasin (Op. cit. vol. VI. p. 613) they numbered about 1000, besides those who were carried by the volunteers into their districts without permission of the Commander in Chief. Ibn Hadjar (Op. cit. fol. 279 A) estimated them at 37000 prisoners; and Khalil Ibn Shahin (Op. cit. p. 144) at 36000.

104 — Abu-l-Mahasin : Op. cit. vol. VI. p. 613-614; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 279B.

105 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 614; Ibid : Op. cit. fol. 279 B.

106 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 614.

107 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 615.

108 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 616; Ibn Hadjar : Op. cit. fol. 289 A.

109 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 616-617; Pero Tafur : Op. cit. pp. 67, 70.

110 — Ibid : Op. cit. vol. VI. p. 617.

THE MISSIONS OF ALI EFFENDI IN PARIS AND OF SEDKI EFFENDI IN LONDON. 1797 — 1811

A CONTRIBUTION TO THE STUDY OF THE WESTERNISATION OF OTTOMAN INSTITUTIONS.

by Shafik Ghorbal

If the importance of diplomatic missions is to be measured solely by results, the embassies of Ali Effendi and Sedki Effendi to Paris and London respectively do not deserve to be rescued from the oblivion into which they have fallen. The first of the two ambassadors, Ali, was a helpless spectator of the new orientation of French policy which led to Bonaparte's invasion of Egypt in 1798; and, when it later suited the French government to allow him to show any initiative, he committed his court to a diplomatic act, which placed the Porte in serious difficulties. Nor was his colleague, Sedki, more fortunate in London. His residence in that capital extended from 1803 to 1811, a period of great importance in the development of Anglo-Turkish relations. England was then the ally of Turkey and had contributed to the discomfiture of the French venture for the possession of Egypt. The two allies, however, were not able to agree on any scheme of government for that province. Eastern affairs, moreover, were soon merged in the all-engrossing problem of Napoleon's

(*) « Authorities » : The main source of information is the official correspondence preserved in the Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris, and the Public Record Office, London. Specific references to the papers will be made in the footnotes.

The mission of Ali Effendi has been excellently studied by Maurice Herbette in his work, « Une ambassade turque sous le Directoire », Paris 1902. It is based throughout on first-hand material.

The various episodes touched by the embassies are dealt with in the present writer's « Beginnings of the Egyptian Question », (London 1928) and in other works, to which specific references will be made in the footnotes.

attempt to dominate Europe. Sedki's share in these mighty events was quite insignificant, and a series of personal misfortunes added a note of tragedy to his residence in England.

Taken, however, as a part of the revolution in Ottoman history that began during the second half of the eighteenth century and had been going on ever since, these two missions are worthy of study. They were, in fact, among the first intimations that Turkey had determined to face West. They also illustrate the inner story of the process of Westernisation: its inception and setbacks.

Ottoman institutions began to show definite signs of failure in the seventeenth century. Two ways of reform suggested themselves. At first, some statesmen were of opinion that the Ottoman system was inherently sound and that all that was needed for the health and vigour of the body politic was stern suppression of the abuses that had been allowed to creep in and impair the efficiency of the machinery of the state (1). Various sultans and viziers tried this way of reform. It was clear, however, that however ruthless was the extirpation of mutinous soldiers and dishonest officials, the relief was only temporary and the decline of Ottoman power was not stopped. It became evident that the root of the evil lay deeper and that the machinery of government had ceased to work because it was hopelessly beyond repair. The example of Russia and some of the sultan's own Christian subjects emphasised the necessity of adopting some of the ways of the West in order to be able to withstand the impact of the West. The westernising sultans, beginning with Selim III, were, on the whole, chary in their borrowings from the civilisation of Europe. It was not until a later period that the Ottoman Turks, or at any rate their rulers, were obliged to admit that Western civilisation was one and indivisible and that once the system of borrowing had started there was

---

(1) The most notable exponent of this view of Turkish reform was Koçi Beg. He was the trusted adviser of Sultan Murad IV, for whom he composed the famous treatise known as « Risâle-i Koci Beg ». It is with the aid of this treatise that Rambaud made his careful analysis of the decadence of Turkey. See the « Histoire Générale » of Lavisse and Rambaud, volume 5, pp. 880-887. For editions of the Risâle see Encyclopaedia of Islam under Koci Beg.

nothing for it but to proceed to the fullest extent (2).

It is noteworthy that most European observers of the Ottoman Empire in the process of shedding its old skin did not take the pains to study it objectively. Some of them, struck by the incongruity of Oriental and Occidental features treated the whole affair as a joke on the part of wayward despots. Others condemned what they regarded as blind imitation, which would not lead to one thing or another. But the most distorted view is that of those observers who denied the sincerity of the leaders of the movement and considered it as mere eye-wash, as mere playing on the credulity of European opinion. Eye-wash indeed! Selim III paid for his innovations by losing first his throne and then his life. And what of the grim tragedy of the destruction of the Janissaries, of the burdens imposed on the Fellaheen of Egypt and the peasantry of Anatolia, of the acute "malaise" suffered by oriental society for the last hundred years ?

The proper way to obtain a clear view of the whole movement seems to be only possible by the impassionate detailed study of its several aspects and incidents. This article deals with the attempt to introduce certain Western methods into the diplomatic service of the Porte.

The first change in the old system dates from the early years of the eighteenth century, when, as a result of the disastrous war of 1682-1699, the Porte recognised that the days when it could dictate terms to the vanquished were over and that it had to obtain by negotiation the least onerous terms possible. It had, therefore, to turn to its Christian subjects for assistance. They were learned in the languages and usages of the West, and more versed in Western ways than their masters. Certain diplomatic and administrative high offices of State became thus open to them for the first time. In this way began the fortunes — and misfortunes — of the Hypselantes, the Callimachis, the Mourouzes.

The next step, which resulted in the missions, two of which form the subject of this article, was even more revolu-

---

(2) A clear and balanced study of the movement may be found in Toynbee and Kirkwood's « Turkey » (London, 1926), the first three chapters, and also in Toynbee's « Survey of International Affairs for 1925 » (London and Oxford, 1927) pp. 67-81.

tionary. It implied, in some measure, that the Turkish Empire had come to take a more liberal view of the nature of its relations with Christendom. The old relations were conceived to be necessarily those of enmity tempered by the conclusion of temporary agreements, which, strictly speaking, were rather truces than treaties of peace. Such agreements were justified on the grounds of practical expediency. One of their objects, for example ,was to grant the subjects of the Christian powers such terms as to enable them to reside in the territories of the sultan (3). It was as a result of these arrangements that the Powers maintained permanent diplomatic and consular representation in Turkey. In spite of this, however, certain of them, notably Austria and Russia persisted in viewing their relations with the Ottoman Empire as essentially those of enmity (4). It was only in the Congress of Paris (1856) that the participant powers "declared the sublime Porte admitted to participate in the advantages of the Public Law and System (concert) of Europe'' (5).

The ancient practice of the Porte was to send extraordinary embassies for specific objects, to conclude a treaty, to notify the accession of a new sultan. Such were, for instance, the embassies sent to France in 1581, 1618, 1669, 1721 and 1742. We are told that the ambassadors in these days were instructed to submit on their return full reports embody-

---

(3) Most of the works dealing with the Capitulations discuss this point. See, for example, Pierre Arminjon, « Etrangers et Protégés dans l'Empire Ottoman », (Paris, 1903) vol. 1, pp. 9-16.

(4) The representative of Russia in Constantinople had the title of « envoy » and that of Austria the title of « Internuncio ». On the significance of the latter title, Sammarco has a useful note in his « Il regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani inediti », (Cairo, 1930) vol. 1, p. 1, note 1. He writes. « È noto che internunzio è il titolo specifico dell' ambasciatore, temporaneo e di secondo grado, inviato dalla Santa Sede presso quelle Potenze che par la loro scarsa importanza non richiedono la presenza stabile d'un ambasciatore di primo grado, detto nunzio. Col nome d'internunzio fu anche designato il rappresentante austriaco presso la Porta, perché, a ben considerare, fra l'Austria e la Turchia non fu mai concluso un vero trattoto di pace, ma solamente furono stabilite delle tregue; e però sua Maestà Apostolica d'Austria non aveva nello stato infedele un agente diplomatico permanente ».

(5) Article 7 of the Treaty of Paris. As a logical result, the Congress discussed the question of the Capitulations. It came, however, to no conclusion. See Férand-Giraud, « De la Juridiction française dans les Echelles du Levant et de Barbarie », 2nd edition (Paris 1860) vol. 1, pp. 54-57.

ing their observations. Such reports might have been instructive, but as the ambassadors lacked the necessary means of study and their residence abroad was short their accounts were not of great value. The best of suck accounts, according to D'Ohsson, is that of Mehemet Effendi, ambassador to the Court of France in 1721 (6).

It was Sultan Selim III who began the system of permanent diplomatic representation abroad. In one account of his scheme, his object is stated to have been the formation of a quadruple or quintuple alliance for the specific purpose of guaranteeing the integrity of his Empire (7). This statement, however, does not correspond to the facts. The well-informed D'Ohsson has a different version. He writes :

> « La Porte se résolut enfin en 1793 à établir des missions permanentes auprès des cours de Paris, Vienne, Londres et Berlin. Elle avait l'intention d'en entretenir une également auprès d'une cinquième puissance (Russia), qui éluda adroitement sa proposition. D'après le plan adopté, huit ou dix jeunes Othomans devaient être attachés à chacune de ces ambassades, et pourvus des moyens nécessaires pour s'instruire dans les langues, les sciences et les arts de l'Europe » (8).

Actually, however, the scheme was not executed all at once, and no attempt was ever made to carry out the educational policy described by D'Ohsson. Selim began by appointing a resident minister in London. He was Yusuf 'Agah Effendi (9); and as his mission was the first of its kind, the Turkish historian Djevdet Pasha thought fit to publish in extenso 'Agah's report on his reception at the court of St. James (10). Later on, Selim thought of extending his plan. Russia, however, refused to receive an Ottoman minister. Austria was not so decided in her refusal and later on consent-

---

(6) D'Ohsson, « Tableau de l'Empire Ottoman » (Paris, 1820) vol. 3, p. 461.

(7) An undated report by Codrika, the Greek dragoman of Ali Effendi, Archives Min. Eff. E. Turquie, Suppléments, vol. 23.

(8) D'Ohsson, op. cit. vol. 3, p. 463.

(9) Djevdet, « Tarikh » (Constantinople 1286 A.H.) vol. VI, p. 142. Under the year 1209 A.H. (1794-1795).

(10) Djevdet, op. cit. vol. 6, pp. 290-298.

ed. Prussia accepted ont of indifference (11). It is worthy of note that France was not included in the scheme, undoubtedly because of the revolutionary nature and acts of the Republic. The Directory deeply resented the omission. "Il éprouvait", writes M. Herbette, "avec tout bon républicain français, un sentiment pénible en constatant que la Turquie entretenait un ambassadeur auprès de son ennemie la plus acharnée, l'Angleterre; qu'elle en avait désigné un pour Berlin et qu'elle en offrait à Saint-Pétersbourg et à Vienne. Etait-il possible de supposer dans ces conditions, que la France, l'alliée séculaire de la Sublime Porte, fût moins privilègiée et ne fallait-il pas mettre tout en œuvre pour rétablir un juste équilibre" ? The representations of the French ambassador in Constantinople, Verninac, had their effect. On the 2 September 1796 he announced to his government the decision of the Porte to appoint an ambassador for Paris (12). Three ambassadors were finally chosen for Vienna, Paris and Berlin and a fourth, Ismail Farakh Effendi, to replace 'Agah in London. The Porte, recognising the hardships of prolonged residence abroad, fixed the normal duration of each mission at three years (13).

It is not difficult to realise the extreme dislike which the Turks of the time felt for living in Christian lands. It is related that one of the dignitaries of the Divan on his way to attend the Congress held at Jassy in 1792 arranged that a servant should precede him by a day's journey to drive away the pigs from the villages through which his master would pass (14). The same personage held that the mere idea of a Moslem going to live for years amongst Christians made him shudder (15). It was thus that the Turks of these days "envisageaient l'ambassade la plus honorable comme une disgrâce secrète puisque le devoir de leur charge et le service de leur gouvernement les mettaient en contradiction avec le principe de leur religion en les obligeant à vivre avec des impies, à communiquer avec eux, à demeurer dans leur pays, à manger à table avec eux et à leur rendre les honneurs du salut et

(11) Codrika, above-cited report (note, 7).
(12) Herbette, op. cit. pp. 6, 8.
(13) Djevdet, op. cit. vol. 6, p. 214. (Events of 1211 A.H. 1796-1797.)

de la préséance'' (16). Service abroad meant also being far from the "fountain of honour'', meant oblivion and might spell disgrace.

This helps to make clear the choice of Ali Effendi, an inoffensive official in the Divan, for the exalted post of ambassador first for Berlin and eventually for Paris. The Reis Effendi, Ratib, with whom lay the immediate direction of foreign policy, wishing to be unpleasant to one Osman Effendi, who was Ali's brother-in-law and a personal enemy of the Reis, decided to send Ali abroad (17). Osman would thus be obliged to cultivate the favour of the chief of his relative. The fall of Ratib, however, meant some improvement in Ali's prospects, for the new Reis Effendi transferred Ali to the more important mission in Paris. All this is rather typical of the way in which Selim's ideas were carried out in practice.

Thus began the embassy of Ali Effendi to the French Republic, an embassy that his Greek interpreter, Codrika, succinctly described as "la plus bizarre des ambassades'' (18). Ali's progress from Marseilles to Paris was triumphal, and his reception by government and people left nothing to be desired. The welcome was no doubt sincere but there was an oddness and a comicality in the whole affair which every one enjoyed. The beginnings were almost like a certain scene from the "Bourgeois gentilhomme'' (19).

As soon, however, as the ambassador could find leisure from continued festivity, he started to carry out the instructions of his government. His object was no less than to obtain for Turkish subjects the same privileges which Frenchmen enjoyed in the territories of the sultan. Talleyrand, the minister for foreign affairs, managed to elude the issue, and Ali did not insist and confined his exertions to routine transactions (20). The rest of his time was taken up by vexations within his own household and with tradesmen (21).

In the meantime, the French government, in spite of being in full relations of peace with Turkey, decided to send

(16) Codrika, above-cited report (note 7).
(17) Idem. Herbette, op. cit. p. 11, spells the name Osman as Orman.
(18) Codrika, above-cited report (note 7).
(19) Herbette, op. cit. chapters IV, V, VI.
(20) Herbette, op. cit. pp. 190-198.
(21) Idem. pp. 199, 259-262.

an army to conquer Egypt. Ali was not able to get a clear statement as to the objects of the military preparations in the ports of France (22).

The Porte retorted to the invasion of Egypt by declaring war on France and proceeded to intern Ruffin, French chargé d'affaires in Constantinople. Ali became, until 1801, a virtual prisoner in Paris (23). During that period, France had yet another constitutional change. The Directory was replaced by the Consulate and Bonaparte, as First Consul, placed himself at the head of affairs, and Talleyrand resumed his old post as foreign minister. The years 1801 and 1802 were filled by complicated negotiations for general peace and it suited the interests of French diplomacy to bring Ali out of his retirement and give him a part in the work. To make the action of Ali clear, it may be stated briefly that the diplomacy of the First Consul was directed to detach Turkey from her allies, England and Russia, by persuading her to enter into separate negotiations with France and prevent her from participation in the Congress held at Amiens for the conclusion of the definitive treaty of peace between England and France (24).

To attain this object, French diplomacy adopted two measures. The first was to sign, on 10th October 1801, a convention with the Russian plenipotentiary, Morkoff, the third article of which arranged for Russian mediation between France and Turkey (25). This would separate Russia from England and would thus weaken the insistence of the latter on Turkey's participation in the Congress of Amiens. The other measure was to take advantage of Ali's inexperience and make him sign preliminaries of peace. This would further complicate the situation and face both Russia and, England with direct Franco-Turkish negotiations as an accomplished fact. The Preliminaries of Peace signed by Ali and Talleyrand on the 9th October 1801 stipulated, among other things, the

---

(22) Idem. p. 225.

(23) See on this period of Ali's residence in Paris Herbette, op. cit. ch. IX

(24) See for detailed treatment of this episode, Ghorbal, op. cit. ch. IX.

(25) This convention may be seen in Martens, « Traités de la Russie », vol. 13 pp. 266-7.

evacuation of Egypt by French troops. It was now some months since Belliard had capitulated in Cairo and Menou in Alexandrie. The preliminaries also extended to France the privileges of the most favoured nation treatment (26).

How did Ali lend himself to this trickery ? Ever since the outbreak of war between the Republic and the Porte, he had been instructed on more than one occasion to declare that no grounds of hostility would remain once Egypt was restored to her sovereign, the Septinsular Republic recognised, the claims of war - sufferers satisfied, and the old treaties renewed. These were, in reality, general instructions, but Ali, apparently, did not formalise and behaved as if they were full powers to make peace. The French negotiator, naturally, did not take on himself to enlighten him. His own interpreter, Codrika, played the game of France and helped to fool him. Once this was accomplished, Codrika mysteriously disappeared, partly no doubt to escape his master's anger after the discovery of the trickery but partly also to render Ali helpless for further action once the act of October 1801 was signed. An official of the French ministry of foreign affairs, referring to Codrika's rôle in 1801, stated that the Greek had "trahi son ambassade pour servir la France" (27). This of Codrika, but what of Ali ? An English diplomat wrote of him, "Ali can be considered in no other light than that of an instrument of France whose subserviency was limited only by the smallness of his mental capacity" (28). The Russian Morkoff wrote that Ali "était tout à fait livré à la France" (29). These estimates, however, are rather unfair. The truth of the matter was as a Frenchman expressed it: "En outre que ses lumières sont peu capables de porter le jour nulle part, il était timide comme tous les agents othomans dans leurs rapports dont ils ne se dissimulent jamais les dan-

(26) De Testa, « Recueil des Traités de la Porte Ottomane », vol. 1, p. 495.

(27) On Codrika's disappearance, Ghorbal, op. cit. p. 151. The French official's statement is written on a memorandum submitted by Codrika in 1806 on the Eastern Question, see Driault, « La Politique Orientale de Napoléon », p. 378. Codrika definitely settled in France and became « secrétaire interprète » in the Ministry of Foreign Affairs, dying in 1827. Herbette op. cit. p. 16, note 1.

(28) Jackson to Hawkesbury, 20 Feb. 1802, F.O. France, 61.

(29) Morkoff to Kotschubey, 20 March-1 April, 1802. Sbornik vol. 70, p. 387.

gers pour leurs têtes, surtout lorsque se trouvant hors de portée de la scène très mobile de leur ministère ils ne peuvent juger l'accueil qu'ils recevront'' (30).

The act of Ali cost the Porte immense trouble. Torn between the insistence of France on confirming the Preliminaries and following them up by a treaty of peace, the demand of Russia for the fulfilment of her acquired right of mediation and the fulminations of England against the Turk's ingratitude, it took the Divan all its proverbial dexterity and almost exhausted its resources of procrastination to extricate itself. The final outcome was a Franco-Turkish treaty negotiated in Paris by a special plenipotentiary, Ghalib Effendi (31). Ali was thus disgraced and recalled. In 1809 he was overtaken by the Turkish fate and beheaded (32). During the period under review, his post in Paris was filled first by Halet Effendi and later by Mouhib Effendi (33). They shared with their predeccessor the same lack of weight both in Paris and with their own government. As in the days of Ali, the Porte continued to prosecute its affairs either in Constantinople with the agents of France or by the dispatch of special missions to the French court (34).

The story of the Turkish embassy in London ran on similar lines. Ismail Farakh, who succeeded 'Agah in England did not have the slightest share in the formation of the Anglo-Turkish alliance, which resulted from the French invasion of Egypt. One or two examples of his communica-

---

(30) Descorches to Bonaparte, 29 messidor VIII (17 July 1800), Archives Nationales, AF. IV. 1688.

(31) Signed on 25 June 1802. De Testa, « Recueil », vol 2, p. 146.

(32) Latour-Maubourg to Champangy, 13 July 1809. Arch. Eff. E-Turquie, 219.

(33) Halet received from the French Government a gold snuff-box and the sum of 40000 francs to persuade the Porte to recognise Napoleon's imperial title : Napoleon to Talleyrand, 30 July 1804, « Correspondance », vol. 9, No. 7884. A few months later Halet was again asking for a loan : Jaubert to Napoleon, 25 January 1805, Arch. Nat. AF. IV. 1688.

Mouhib has left an account of his embassy. A confused French translation of it has been published by Bareilles, Paris 1920.

(34) E.g. the mission of Vehid Effendi to French headquarters in Poland in March 1807. Ghorbal, op. cit. p. 257.

tions with the Foreign Office may suffice. On the 21st October 1798 he sent a note to Lord Grenville in which he expressed his satisfaction at the news of Nelson's victory in the Bay of Abukir and of the Porte's declaration of war on France and concluded by praising the conduct of Spencer Smith, the English chargé d'affaires at Constantinople (35). On another occasion, he transmitted to the Foreign Office a note from the Reis Effendi pressing the British Government to consent to the withdrawal of the French from Egypt (36). Shortly afterwards, he took his departure from London and the mission was left in charge of a Greek (37).

In the meantine, a British force, in collaboration with the Turkish army, had succeeded in forcing the evacuation of Egypt. England and Turkey thus found themselves confronted with the problem of the future government of that province and, in particular, with the question of the Mamelukes (38). The Porte attempted to solve the difficulty in its simple way, namely by the extirpation of the Mamelukes. It was foiled in this, however, by the intervention of the British army-commanders. Several attempts were made later to reconcile British and Turkish views, but without any result. It was evident that the Ottoman authorities were only waiting for the evacuation of Alexandria by the British troops to carry matters in their own way. They played, therefore, for delay. Hence the mission of Sedki Effendi to London (39). The British ambassador, Lord Elgin, saw that this mission amounted to a refusal on the part of the Porte to make another solution of the Mameluke problem other than that of expelling them from Egypt (40). He tried to dissuade the Turks from sending Sedki, but, though the Reis Effendi "was brought to see the absurdity of it", the Divan persisted in its decision (41). Sedki, however, was not sent for the business of the Beys only; he was also instructed to arrange for the evacuation of Alexandria. Elgin does not mention this latter object, but it is expressly stated by Djevdet Pasha and

(35) F.O. 78-20.
(36) Reis Effendi to Ismail, 5 March 1800. F.O. 78-28.
(37) His name was Aziropolo.
(38) On the whole question see Ghorbal, op. ci. ch. X.
(39, 41) Elgin to Hawkesbury, 16 November 1802, F.O. 78-36.
(40) Elgin to Hawkesbury, 30 November 1802, F.O. 78-36.

is also clear in the minister's opening communication with the Foreign Office (42).

Of Sedki Effendi, Elgin wrote that "he has not hitherto filled any high office in the government but has long enjoyed the confidence of the Vizier, who employed him in situations of trust during the whole course of the war of Egypt" (43). On his arrival in London, he announced to the Foreign Office that he had been instructed to treat of the evacuation of Alexandria and of the affairs of the Beys. As regards the first object, he was pleased to find that the British government had, of its own accord, anticipated the wish of the Sultan. He expressed his hope that the second object would soon be settled by the Porte (44).

Having delivered himself of this message, we lose sight of Sedki Effendi. Save for occasional notes regarding affairs of navigation and kindred matters, his residence in London did not in the least affect Anglo-Turkish relations in the critical years from 1803 to 1811. The period began with a great struggle for influence in Constantinople between England and Russia on the one hand and France on the other. At first, the allies had the upper hand, so much so that the Porte refused to recognise Napoleon's new title of Emperor. The victory of Austerlitz, however, changed the situation in favour of France. This was followed by Russia occupying the Danubian Principalities, which led to war with Turkey. England, to support the only ally left in the struggle against Napoleon, sent a fleet through the Dardanelles to support the action of her ambassador. On the failure of this demonstration, a British force occupied Alexandria.

In all these stirring events, Sedki had no share. Indeed his personal affairs and difficulties loom in the official correspondence almost as large as his contribution to the public business of his country. When he first arrived in London, he took his residence with one Archer Orle at No. 7. Upper Berkeley St. Portman Square. At that address, he soon married an Englishwoman. Several children were born to him, but they all died except one daughter, who was born about

(42) Djevdet, op. cit. vol. 7, p. 162. (Events of 1217 A.H. 1802-1803.)

(43) Elgin to Hawkesbury, 30 Nov. 1802, F.O. 78-36.

(44) Note dated 4 March 1803, F.O. 78-[illegible]

1805 and who survived her father (45). His affairs were, apparently, in great confusion. His Greek dragoman, Duc, wrote on 5 February 1808 to Huskisson, then secretary of the Treasury, complaining that for the last two years, Sedki had taken to drink, "pour faire passer l'hypocondrie", he said; that his average daily consumption had steadily risen to two bottles of 'eau de vie', that he had lost all sense of decorum so far as to expose himself at the windows in the company of prostitutes, whom he allowed to "eat up" the advances made to him by the English government, while the members of his suite were left destitute (46). Huskisson proposed to Canning, then Foreign Secretary, "to send home this "stupid drunkard". Sedki was as anxious to depart. He asked Hammond, the permanent under-secretary, to advance him £ 2000 to pay his debts and travelling expenses (47).

Having actually started on the journey home, the unfortunate diplomat was ordered back to the scene of his misery. The Treaty of Tilsit had made a great change in eastern affairs. Russia was now the ally of France and there was no reason for the continuation of enmity between England and Turkey. The Divan realised this but was kept back from responding to English advances by fear of France. Under pressure of Ali Pasha of the Epirus, who was then trying to secure himself against the menaces of Russia and France, the Porte decided to resume negotiations with England. An agent, whom Ali Pasha was sending to London on his own affairs, was commissioned to carry the Porte's overtures in the form of instructions to Sedki. The agent fell in with him off the coast of Spain and both came up to London in July 1808 (48).

---

(45) The petition of Mary Sedki (the widow of the ambassador) to Lord Castlereagh, 24 Nov. 1819. F.O. 78-93. Curiously, she states Sedki's arrival in London and her own marriage to have taken place in 1802. Sedki did not, however, arrive till early in 1803. She also states that his death took place in October 1811. It was announced in a despatch to Constantinople dated 1st April 1811 (F.O. 78-73).

(46) Duc to Huskisson, 5 Feb. 1808. F.O. 78-62.

(47) Sedky to Hammond, 17 Feb. 1808, F.O. 78-62.

(48) The circumstances under which Sedki came back are explained in Canning to Adair, 20 Aug. 1808, F.O. 78-60 and Sedki to Canning », 11 July 1808, F.O. 78-62.

Sedki announced to Canning on 22nd July 1808 that he was instructed to convey the following demands: the restoration of amity and the renewal of the treaty of 1675, the guarantee of the integrity of the Ottoman Empire, the restoration of Ottoman territories, warships and merchantmen seized by England (49). Canning replied that he was gratified at the sentiments of the Porte and informed the ambassador that a special envoy [Sir Robert Adair] had been sent to Constantinople equipped with full powers and instructions to settle all differences and that as Sedki had no full powers it would not serve any useful purpose to discuss the points raised in his note (50).

Two years later, the Ottoman government decided to recall Sedki and entrust the mission to a Greek, one Ramadani, whom Stratford Canning, then chargé d'affaires at Constantinople, described as a creature of Mourouzes. Stratford Canning objected to this arrangement as "improper and lacking of respect to England. The Austrians felt the same objection to a similar arrangement proposed for Vienna. These objections seem to have had some effect, for the Porte declared that the Greeks in Vienna and London would be in charge of the missions only ad interim (51). Before Sedki could be released, however, he died in London in March 1811 (52).

---

(49) Sedki to Canning, 22 July 1808, F.O. 78-62.

(50) Canning to Sedki, 5 Aug. 1808, F.O 78-62.

(51) S. Canning to Wellesley, 14 October 1810, F.O. 78-10. Same to same, 23 June 1811, F.O. 78-74.

(52) Wellesley announced Sedki's death in a despatch to S. Canning dated 1st April 1811, F.O. 78-73. He informed him that the Prince Regent ordered that every mark of respect be paid to the deceased and that the burial was done conformably to the directions of the Algerian « ambassador » (sic). Wellesley charged Sir Robert Liston, ambassador-designate to the Porte, to arrange the affairs of the widow and child. According to her statement, Liston dealt with her very harshly. He sent the girl to a « home » and for eight years, she was not allowed to see her mother. He promised that on his arrival at Constantinople he would see what the Porte, and Sedki's relatives would do for his dependents. But, apparently, did nothing, thoug the widow believed that her husband was not penniless and had, on his deathbed, assured her that she would be provided for. Petition to Castlereagh, 24 Nov. 1819, F.O. 78-93.

The appointment of Greek chargés d'affaires in London and elsewhere was an admission on the part of the Porte of the failure of those early permanent embassies. The causes of the failure are not far to seek. As in many of the schemes of Selim and his successors, the conception was excellent but the execution was faulty. It was not that there was any lack of capable Turkish diplomats. Indeed so long as the Porte expected its agents to carry out the duties of a special mission under definite instructions, they answered the purpose quite successfully. Between 1793 and 1811, hawever, Selim set them to do what they were not then ready for. Ignorant as they then were, of foreign languages, cut off from the society in which they lived by great differences of usage and outlook, unprepared by their system of instruction to be able to comprehend what was going on, it was impossible for them to perform the duties of resident ministers. For how could they, situated as they were, cultivate personal relationships of amity and mutual understanding or follow closely changes in public opinion or have a clear grasp of the needs and resources of the countries, in which they resided ? The venture was certainly premature. The results might perhaps have turned out better if persons of more weight than the Alis and Sedkis had been appointed. For this, however, Selim was not entirely to blame. It was not easy to send influential men to what was then virtual exile.

One feature of the episode is noteworthy. When a government has decided on some measure, one is reasonably entitled to expect that government to take the trouble to make a success of it. In the present case, the Porte began the system of permanent representation alroad. We would expect to see the Turkish government change its methods so as to allow her agents abroad a measure of activity that would justify their existence and give them more experience. We would expect the Porte to maintain them in conditions of comfort and independence. Nothing of this, as we have seen, took place. This contradiction, so puzzling to the Western observer, recurs again and again in the history of the Westernisation movement. It arose, however, out of the fact that the Westernisers did not always fully grasp all the implications of their schemes and had to carry out their policy through agents, who, were either determined on thwarting their masters or

not sufficiently enthusiastic to put their heart into the work. Another generation had to pass before a new system of education, born out of further contact with the West, had placed at the disposal of the Porte for diplomatic service abroad the Reshids, Aalis and Fuads.

NOTES

PRELIMINARY EXAMINATION OF A MANUSCRIPT LIFE OF MAHOMET.

by Walt: Taylor

There has appeared in the library of the University of Egypt, as part of the Prince Hilmy Library, an English manuscript with the title 'An Account of the Life of Mahomet', undated and unsigned, bearing the name Garrott on the fly-leaf. The hand-writing is that of the middle or second half of the seventeenth century.

The manuscript is in folio, eight inches by twelve, bound in white vellum; and consists of 169 pages. It is a volume on hand-made paper; one side of the folio is watermarked PB, and the other side a shield with three St. Andrew's crosses, supported by lions, surmounted by a crown; and underneath HG. The book was bound as a volume before being written in, as can be seen from sheet 57/8, which has no corresponding half of the folio, but which is firmly sewn. The missing page could not have been torn out since the book was written, because the margins which were drawn by the scribe have blotted across on to (unnumbered) pp. 170-171, and correspond exactly, as they would not do had the missing sheet been removed after the lines were made.

Several copies of this manuscript are known or have been referred to. One of them had the good fortune to come into the hands of a Moslem, who set about editing it, collected subscriptions towards printing it, and at last published it as 'An Account of the Rise and Progress of Mahometanism with the Life of Mahomet and a Vindication of him and his Religion from the Calumnies of the Christians' by Dr. Henry Stubbe M.A. from a manuscript copied by Charles Hornby of Pipe Office, in 1705 with some variations and additions, edited, with an introduction and appendix by Hafiz Mahmud Khan Shairani. (London, Luzac & Co., 1911).

Three copies of this manuscript are in the British Museum. The first is scattered in Nos. 1709 and 1786 of the Sloane MSS. It is anonymous, and is described as 'chiefly taken from Pocock and Hottinger'. The second is Harl. MSS. 1876, attributed by Mr. Wanley to Dr. Stubbes — on what evidence is not stated. The third is Harl. MSS. 6189, described as anonymous, and is dated 7th. July 1718.

Two other copies have appeared on the market but cannot now be traced. From the description of them in booksellers' lists it is clear that neither of them is our copy. Both are attributed to Dr. Stubbe. One of these, one possessed by the Rev. John Disney and sold by Sotheby to Thomas Rodd (Senior) for four shillings in 1817, is probably the original, since it contained letters by Stubbes concerning it. Since 1817 its history is unknown.

The existing manuscripts have never been collated; but from a comparison of their declared contents it is clear that ours is the earliest copy now known, since its chapter-division is the simplest; and the Introduction comes last. In later copies it was placed first.

Our copy cannot be the original. The most convincing proof of this is that wherever the author wrote down a Greek word there is a blank in our manuscript. The scribe apparently understood Latin, but not Greek. It is rather surprising that a scribe should not know the Greek alphabet well enough to copy out a few words. Obviously he was no professional scribe. It is likely that he was an older man than Stubbe, since the handwriting is one which was fashionable earlier than the time of the manuscript; and since he writes for only a short time before becoming tired. It is a Stuart scholar's hand, comparable, for example, to that of Ben Jonson rather than to that of John Dryden: not at all a contemporary hand.

The corrections in the manuscript point to the fact that it was copied from another manuscript, or from notes. They are not corrections made as an afterthought by an author, but are copyists' mistakes necessitated by a misreading of uncommon words by an intelligent copyist who immediately realised that the word he had written did not make sense. This careful correction of words, and the fact that he did not attempt to copy the Greek which he did not understand, indicate that the

copyist has given us a painstaking reproduction of the original — the most careful reproduction which is known at present. We can write in the Greek from other manuscripts, written up by writers who knew Greek but had less respect for the English.

In Shairani's edition we have not Stubbe's original work. The edition is from a manuscript copied by Hornby in 1705 'with some variations and additions'. Stubbe's original four chapters are re-arranged into ten, and are amplified not so much by new material as by an expansion of the sentences to clarify the meaning to a quick reader. Stubbe's English, judged from our manuscript, was terse, and his reasoning close, like that of a scholar rather than of a man of letters. Hornby also displaced whole pages to make the narrative of the book more logical. And it must be confessed that Hornby's version is the more readable for this re-arrangement. It is not more scholarly; as can be seen where he quotes from 'St. Jerom Sozomen'. There was no such person. Our manuscript quite intelligibly says 'St. Jerome and Zozomen'.

But we have not even Hornby's version in its entirety. Shairani has bowdlerised and edited it. In the Introduction (p.xii) he says that some passages have been omitted 'because they militate against modern canons of taste, or because they break the continuity of the text'. He has also eliminated passages which Hornby unconsciously repeated when re-arranging and re-writing the book, and some inconsistencies. Where these cuts are made he does not indicate, except that there are (as on p. 92) dots to show the omission of a word which is not usually printed, but which would not offend any student of the period during which the book was written. And there is a growing tendency in modern writing to mention the functions of the human body as openly as did the writers of the Restoration Period.

The spelling of Hornby is apparently retained, though about this and about punctuation Shairani is silent. And here we must mention another virtue of our manuscript: it can be read as an example of the calligraphy, diction, spelling and punctuation of late seventeenth century English by those who are not interested in the state of oriental studies in Europe at that time, nor in problems of authorship. The rapid develop-

ment of English prose from the time of Milton to the time of Swift has received too little attention, largely because manuscripts are buried in libraries, while in modern editions the spelling and punctuation, if not the actual diction, are modernised. At the time of our manuscript punctuation was rhetorical, not grammatical; and spelling was not standardised. The reading of the manuscript therefore gives a fair idea of how English was spoken at the time.

But the true virtue of the work is its scholarship, and in the originality of its outlook. It is the first work in English which gives a sympathetic account of the Prophet. Due praise was given to him later by Gibbon and Carlyle; but in the seventeenth century he was still regarded as an impostor. Bedwell's translation of the forgery *Mohammedis Imposturae* had appeared in 1636; and Pococke, in spite of his enthusiasm for oriental studies, was out of sympathy with Mahomet. Oriental studies in England were suffering from their monopoly by clerks in holy orders: both Bedwell and Pococke were priests. Naturally enough it has always been the clergy who have upheld the attack on Islam: Mandeville the traveller, Stubbe the doctor, Gibbon the man of private means and Carlyle the professional writer have always stood apart from their more narrowly religious contemporaries. Stubbe certainly took a new point of view. He found that the groundless complaints made by Christians against Islam could be made with more justice against the Christians themselves; and prefaced his praise of Mahomet by a long attack on the abuses of the early Church and the unscrupulousness of the Early Fathers.

It is not supposed that he knew much Arabic, though he may have attended those Arabic lectures which Pococke gave at Oxford on Wednesday mornings at eight in Lent and during the vacations, attendance at which was compulsory for all bachelors. Stubbe had a reputation at Oxford for his learning, but no mention is made of his Arabic studies. He would, almost as a matter of course, know Hebrew; but apparently relied on Christian sources and translations for his *Account*. The Christian sources and translations were all condemnations of Mahomet and Islam; and for Stubbe to select from them enough material to form a sympathetic account of the Prophet was an achievement which could only have been done by one

practised as he was in literary, political and philosophical polemics.

His life was as stormy as the times he lived in. He was born in 1631 or 1632 in Lincolnshire, and taken as an infant to Ireland. At the outbreak of the Civil War in Ireland in 1641 his parents rushed back to Liverpool, and thence to London. In London, while still a boy at Westminster School, he received the patronage of Sir Henry Vane, which enabled him to go to Oxford (1650). As soon as he took his bachelor's degree he went to serve in the Parliamentary army in Scotland (1653-55), returning to take his master's degree in 1656. Then he was appointed Second Keeper of the Bodleian Library. where he had leisure to write a series of books and pamphlets against the clergy, the universities, the Church, and anything else which savoured of Royalism, until the Dean of Christchurch dismissed him in 1659 for writing a 'pestilent book'. He then retired to Stratford-on-Avon where he practised as a physician. He took the Oath of Allegiance at the Restoration; but the King thought him safer outside the country, and rewarded his allegiance by giving him a medical appointment in Jamaica, where he lived from 1661 to 1665. Returning to England he practised medicine again at Stratford, then at Warwick, then at Bath until he was arrested and thrown into prison in 1673 for publishing a denunciation of the Duke of York's marriage with Princess Mary of Modena. In 1676 he was accidentally drowned near Bath, thrown from his horse which stumbled as he was fording a river on the way to see a patient.

His friend Anthony a Wood wrote of him saying that he was 'the most noted Latin and Grecian of his age, a singular mathematician and thoroughly read in all political matters, councils, ecclesiastical and profane histories, accounted a very good physician. Lacking in sobriety and discretion, he made his learning cheap and mercenary to every ordinary and ignorant fellow, and therefore became a ridicule, and undervalued by sober and knowing scholars and others too'. We can well believe this estimate of his character. It tallies with that description of him quoted by Shairani, which says that he had a very retentive memory, a voluble tongue and a big and commanding voice, and was very seldom known to hesitate either in public dispute or private discourse.

It would be interesting to know why the book was never published. The probable reason is that it was still unfinished at the time of his death. It was in a crude and unliterary form: the only parts which have literary value are the purely imaginary speeches of Ali to the Arabs, converting them to Islam. Here Stubbe was giving rein to his own natural oratory. Shairani recognises in them 'the fire of Arab eloquence'. It would be easy for Stubbe to identify himself with Ali.

A certain amount of mystery still surrounds our manuscript. Why does it not carry the author's name ? The formal word 'Finis' is written at the end, but the text leads up to no suitable conclusion: indeed in Hornby's version the last words of our manuscript occur in the middle of a paragraph, (p. 163 § 4), actually in the middle of a sentence. The librarians of the late Prince Hilmy are equally silent. From their catalogue not only do we learn nothing about its authorship, or how the book came into the library, but the book is not even mentioned. It should be regarded as one of the treasures of the library: not the least of his princely gifts to the University of Egypt.

INTERNATIONAL CONGRESS OF PREHISTORIC AND PROTOHISTORIC SCIENCES.

Report by Mustafa Amer

The Congress of prehistoric studies which met in London on the 1st. August, 1932, was the first fully representative gathering of its kind to take place in any country since the Great War. The majority of European Governments sent official delegates, and many learned institutions and universities, including the University of Egypt, were separately represented.

Prior to the War, there existed the International Congress of Prehistoric Anthropology and Archaeology; its XIVth Session was held at Geneva in 1912, when it was decided to hold the following Session at Madrid in 1916. This Meeting was prevented by the War. But a growing desire for the resumption of such meetings led to a conference of leading representatives of prehistoric studies being held at Berne in May, 1931, where it was decided to found a new International Congress of Prehistoric and Protohistoric Sciences, which should include all those studies which contribute to their development, namely, Geology, Palaeontology of Plants and Animals, Anthropology, Ethnography, Folklore, Archaeology, etc., in so far as they help to throw new light on Prehistory and Protohistory.

The new Congress is governed by a Permanent Council, consisting of one or two representatives of each country; these members were, in the first instance, nominated by the Conference at Berne; the vacancies for the future to be filled by the Council subject to confirmation by the Congress. At a Meeting held in Paris on the 18th October, 1931, Professor Mustafa Amer was elected to represent Egypt.

The Congress will normally meet once in four years, and it was at the Berne Conference that it was decided to hold the

first session in London, where no Prehistoric Congress was held since 1868. A distinguished British Archaeologist, Sir Charles Peers, President of the Society of Antiquaries and Chief Inspector of Ancient Monuments under H.M. Office of Works, was selected as the inaugural President; and other British archaeologists presided over the various sections into which the studies embraced by the Congress were grouped.

The origin and evolution of prehistoric man formed the subject of Section I. under Sir Arthur Woodward. The Palaeolithic and Mesolithic periods were discussed by Section II. under Mr. Reginald Smith of the British Museum. Section III. covered the Neolithic, Bronze, and Early Iron ages in the Ancient World, under the joint presidency of Professor H.J. Fleure, Professor J.L. Myres, and Mr. Sidney Smith of the British Museum; while Section IV. dealt with the same periods outside the ancient world, under the direction of Dr. H. S. Harrison and Professor C. G. Seligman. Finally, Section V. dealt with the transition from Prehistory to History, and it fell to the lot of Mr. E.T. Leeds to supervise discussions on the contacts of the Celtic and Teutonic worlds with Graeco-Roman civilisation, and the history and archaeology of the European Dark Ages.

The opening meeting, with a presidential address on "The Beginnings of Prehistoric Studies in Britain", was fixed for Monday, 1st. August, and in the evening a Government reception took place at Lancaster House, where the Keeper of the London Museum displayed an exhibition representative of recent work in the archaeology of Great Britain. Sectional meetings for the reading of papers took place at King's College, but Miss Gertrude Caton-Thompson arranged an exhibition illustrating her work on the prehistory of the Kharga Oases, for a special meeting at Bedford College. Other collections were arranged for the inspection of the Congress in the British Museum, and the Royal College of Surgeons. Worth mentioning is the display by the Ordnance Survey of instructive aerial photographs taken for archaeological purposes. These photographs, described in a special catalogue, are largely unpublished, and the selection is designed to show both the importance of opening this new method of surveying ancient sites, and the principal new discoveries which it has made available. Thus, neolithic camps, ancient circles, etc., which

are hardly visible to the naked eye, can be seen clearly despite the later tracks and cultivations which obliterate them for the observer on the ground. Photography, calling aviation to its aid, has revealed many sites which could hardly have been traced on the ground. It is to be hoped that the time will soon come when it will be possible to apply the same methods to the field of archaeological research in Egypt.

Six hundred and fifty-four members were registered, and one hundred and sixty-eight communications were accepted. Many of these were of special interest, dealing as they were with recent researches and studies, not only in Europe, but also in Egypt, Africa and the Near East. The Communications relating to Egypt were four in number:—

1. The Excavations of the Egyptian University at Maadi near Cairo (1930-31 and 1932), by Professor Mustafa Amer, official representative of the Egyptian University.
2. The Neolithic Site of Merimde Beni-Selame and its relation to the neolithic culture of Western Europe, by Professor Oswald Menghin.
3. Recent work on Palaeolithic Man in the Nile Valley, by Dr. K. S. Sandford.
4. The Prehistory of the Kharga Oases by Miss G. Caton-Thompson.

Important Communications on Africa, included work done by Dr. L.S.B. Leakey in Tanganyika and Uganda, and by the French scholars in North Africa. Of special interest were the following:—

1. Dr. L.S.B. Leakey: The Age of Homo Sapiens in East and Central Africa.
2. M.C. Burkitt and E.J. Wayland: The Magosian Industry of Uganda.
3. Prof. M. Boule and Prof. H.V. Vallois: Les Hommes Fossiles d'Afalou bou Rhummel (Algérie).
4. R. Vaufrey: Les plissements Acheuleo-Mousteriens des Alluvions de Gafsa.
5. M. Reygass: Le Tardenoisien dans l'Afrique du Nord.

From Palestine, Syria and Irak new discoveries, some of great importance, were also communicated to the Congress. Mr. Theodore McCoun announced the discovery of a Mousterian Cemetery in Mt. Carmel, and Miss D. Garrod, a new Mesolithic industry — the Natufian of Palestine. Human remains, both from Palestine and Irak formed the subject of discussions led by Sir Arthur Keith. There was also an important discussion on painted pottery in the Near East, as well as important papers on the chronology of the early graves at Ur by Dr. C.L. Woolley, and on the prehistoric cultures of Nineveh by Mr. E.L. Mallowan.

The week's session in London was followed by excursions at the week-end centering on Oxford and Cambridge, and a further week in Wiltshire to visit Stonehenge, Windmill Hill, Avebury and Salisbury. From London a short visit was also paid to the implement-bearing gravels at Swanscombe, Kent.

At its concluding meeting, the Congress formed special Committees for the study of the civilisation of the Western Mediterranean, and of the relations between the Aegean world and the Balkano-Danubian countries. It recommended a scheme for an international vocabulary of technical terms used in prehistoric archaeology, and invited the Organising Committee of the next session to prepare a concise statement of the different systems of classification suggested by the different schools of prehistorians.

The second session of the Congress will be held at Oslo in 1935.

TWO SEASONS' DIGGING IN THE PREHISTORIC SITE AT MAADI

by Mustafa Amer

The excavations carried out by the Egyptian University during the last two years, in the Cairo region, have revealed an absolutely new prehistoric culture for Egypt. About ten kilometres to the south of the Capital, and on a small ridge in the desert near the edge of the cultivated land lies the prehistoric site at Maadi, extending about 1,500 metres from west to east, and nearly 100 metres from north to south. Of this area, more than 6,000 square metres have been systematically excavated down to the virgin-soil; this includes two long trial trenches, one near the centre of the settlement, and extending from north to south, and the other running in its most easterly portion in an east-west direction. The thickness of the layers varies from twenty centimetres to a little more than one metre; the finds of the different layers being absolutely identical, neither the flint industry, nor the pottery revealing any change from one layer to another.

The results achieved concerning the stationary finds are extremely interesting. In the deepest layers, foundations of old huts, and various types of cellar-holes, mortars and hearths, together with huge store-pots standing in their original position, have been found. The huts possess more or less an oval plan. Near the entrance, which is placed on the southern side, are usually seen the store-pots and the hearths Remainders of the old house-posts, as well as of the wattling which formed the walls, have been found in situ, some of the posts being in a very good state of preservation.

As regards the general plan of the settlement, it seems that the central line of the long-stretched village was occupied by the houses of that archaic community, while both the northern and the southern portions were set aside for storage purposes. Cellar-holes were found in abundance in the south

while in the north, a store-place furnished with a great number of huge pots was discovered. In some of these pots, many interesting finds were revealed, including a quantity of genuine resin, the botanical source of which has not yet been identified, and some cooked material, which is very likely animal flesh, or something of that nature. Another big quantity of black material found stored in a hollow, dug in the virgin-soil, has been identified as resin, which has been strongly heated in order to obtain the volatile oil (turpentine) and, in consequence, has been fully carbonized. In its outward appearence, this material looks very much like bitumen.

Of great interest is the discovery of burials of foetuses, of an age ranging from four to nine months before birth. Four such interments were recognised in simple hollows in the ground, and four in pots; most probably all were within the house areas. The same custom, it must be noted, still survives in certain parts of Egypt. Real burials of adults, however, do not, so far as one knows, exist in the settlement; the cemetery, doubtless, lies at no great distance from it. Nevertheless, fragments of human bones, including a piece of a skull, and a lower jaw were found in the layers.

The yield of the small finds was exceedingly rich. More than one hundred and sixty pots of different shapes and sizes, were collected, their height ranging from a few centimetres to over one metre, while both the form and the colour varied greatly. Two types, however, predominate, and give Maadi a character of its own. On the one hand, there is the red base-ring ware, which is a new species of pottery for Egypt; and on the other, there is the black-polished ware, the most common species of which is the broad-ovate type with a narrow mouth furnished with a rim-lip, and with a base, so small, that the pots can hardly be made to stand upright. The Maadi pottery is, indeed, quite distinctive in character, and reveals the independence of the prehistoric culture of the settlement. Besides, some peculiar, but rare ceramic products appear, the most notable being two wavy-handled pots, some vases with imprinted neck decoration, bowls, cups, barrel — and bird-shaped vessels, as well as painted pottery. Of the latter, only fragments have been found, showing slight relations to the well-known Upper Egyptian wares. In most cases, they represent quite new types. The most important piece of

painted pottery we possess is a small sculpture representing the head of an animal, believed to be a camel.

Of stone vessels, numerous specimens, of various shapes, have been unearthed. Some are of limestone, and some of basalt, but of the latter we possess only two complete vessels. Other objects made of stone include millstones, grind-stones, grinders, polishers, pierced balls and discs and palettes. Some of the palettes are of indurated limestone, and some are of flint, both types, being a new class in Egypt. Of the usual slate palettes known, only a few fragments have been found, showing, no doubt, some connections with Upper Egypt.

As for the flint, the industry of Maadi is based on the flake-technique, and shows characteristic marks as yet unknown in the making of flint in Egypt. Thousands of specimens, of different shapes, colours and sizes, have been collected; some being of extraordinary beauty. They include flakes, blades, knives, scrapers, scratchers, saws, borers and cores. A few rare pieces, however, show excellent surface flaking; these include saws, arrow-heads, lance-heads, and a piece of a highly finished fish-tail knife of the type known in Upper Egypt.

Ornaments, too, are not lacking. They include beads of alabaster, gypsum and bones, together with Nile and Red Sea shells. A lump of red ochre, an ochre crayon, and a small pot containing some powdered red material, have also been found.

Weaving seems to have been known as shown by the existence of small pieces of woven material, as well as numerous perforated limestone balls and discs, which probably served the purpose of spindle-whorls. There have also been discovered traces of copper ore, but only two good implements of that metal, viz: a fish-hook, and an awl with a bone handle have been found. A piece of manganese ore was also unearthed; both this metal and the copper most likely came from the Peninsula of Sinai.

The prehistoric people of Maadi lived by agriculture, cattle-breeding and fishing. Big quantities of grain, in a carbonized state, and bones of oxen, sheep, goats, pigs, reptiles and fish, have been found. Quite peculiar is a huge bone found

fixed upright in the soil; it probably belongs to a Hippopotamus.

...

The Maadi culture as revealed by the excavations possesses an entirely independent character. It is all the more important because the prehistory of Lower Egypt is as yet little known. This is especially true of the late Neolithic, for the cultures of Beni-Selame and the Fayum evidently belong to a very early stage of that period. The gap is now partly filled up by Maadi, whose culture as all the evidence goes to show, must have flourished at a time not far remote from the beginning of the Dynastic period.

NOTE ON A VISIT TO THE IMPERIAL PORPHYRY QUARRIES AT GEBEL DOKHAN.

by C. H. O. Scaife.

The quarries of imperial porphyry at Gebel Dokhan in the eastern desert of Egypt have been visited several times since they were discovered by Burton in 1823. But the travellers who have been there have been unable to spend more than four or five days in the locality. I visited it for the first time in the winter of 1931-32, and returned this year in the hope that a longer examination would make it possible to amplify former accounts of the remains. I spent twelve days in the wady Me'mil, wherein the ruins of the station are, but this was not time enough thoroughly to explore it and the hills to east and west of it from which the stone was quarried; nor is there sufficient time before the appearance of this number of the bulletin to prepare the information gathered for publication.

This includes plans and measurements of the fort and village in wady Me'mil and of the village at the quarry on the eastern mountain (*Lykobetus of* Schweinfurth's map); also of the well-preserved station at the foot of the south-western spur of G. Dokhan which is described, with a drawing of the doorway to the cistern but without a plan, by Hume and Barron in the Geological Survey of Egypt, 1902. It appears that the plan of the fort in wady Me'mil and that of the first station on the Kainopolis-Myos Hormos road, now called El Heita which are given by O. Schneider, from Dr. G. Schweinfurth's notes, in his treatise *Uber den Roten Porphyr der Alten,* 1887, are very incomplete.

Copies of a small dedicatory inscription to Isis, and of a temple of Isis were brought back, and a dedicatory inscription on the face of the western mountain quarry was found and copied.

I submitted these inscriptions to my colleague, Mr. A.H.M. Jones, and he finds that the small dedication to Isis

was published as number 44 in Letronne's *Recueil des Inscriptions Grecques et Latines de l'Egypte,* Paris 1842. 1848, whence it has been copied and republished, but with some errors, as number 1258 in I.G.R.R., vol. 1. He finds, also, that the temple inscription was published by Couyat-Barthou, (*Bull. Inst. Fr. d'Arch. du Caire, VII* (1909), pp. 15-33), but with a misreading of the date which was emmended conjecturally by Lesquier in *L'Armée Romaine d'Egypte,* Cairo, 1918, p. 493, app. 1, number 16. Lesquiers' conjecture proves to be wrong, and Mr. Jones finds that the date as now corrected advance the praefecture of Marcus Rutilius Lupus, under whom the temple was dedicated, by more than a year from the earliest date hitherto known, that is to say from February-March, A.D. 114, to January 28, 113.

The burial-ground of the station is on a slope immediately north of the fort; but, though there are remains of what appear to be small temple-tombs, no inscriptions were visible.

Officials of the Mines' Department visited the locality of the quarries last November and the winter before, and have, I believe, carefully surveyed the neighbourhood. Unfortunately I have not yet been able to consult them, so that I do not know if they have any information which may be of archaeological interest. It is to be regretted that in repairing the road up to the quarry-face on the western mountain in order to bring down the blocks of imperial porphyry desired by His Majesty King Fuad last November, a very large number of the stone butts constructed anciently to hold winches for the lowering of the stone, should, often, have been more than half demolished. The first heavy rain-storm, and it cannot be delayed for more than another year or two, will inevitably undo most of this repair, and the half-ruined butts, which had remained in almost perfect condition for more than fifteen hundred years, will now rapidly follow it into dissolution.

I hope to be able to publish the plans, and details of the inscriptions as copied this year, in the next number of the bulletin, together with any other matter of interest which study of the notes made on this occasion may provide.

NOTICES OF RECENT PUBLICATIONS

by Members of the Staff of the Faculty

Publications in European Languages:

Jean-Marie Carré: *Voyageurs et écrivains français en Egypte*, 2 vol. in-8° de 300 pages environ chacun, illustrés de 90 gravures hors textes. (Publication de l'Institut français d'archéologie orientale. Tirage limité à 500 exemplaires).

Ce magnifique ouvrage développe le sujet des conférences, si familières au public du Caire, que M. Jean-Marie Carré a faites trois années de suite sous les auspices de l'Université égyptienne. Le tome premier passe d'abord en revue les voyageurs français (explorateurs, missionnaires, savants) qui se sont succédés en Egypte depuis le XVIème siècle jusqu'à la fin du XVIIIème. M. Carré montre comment ces voyages de « découverte » ont préparé les travaux scientifiques d'un Volney, d'un Vivant Denon et de l'expédition Bonaparte. Ainsi explorée au point de vue géographique et révélée à l'érudition, l'Egypte va, pendant la période de renaissance qui commence avec Méhémet Ali, élargir considérablement sa place dans la littérature française et devenir le champ d'observation d'écrivains de plus en plus nombreux. Ici, il fallait se restreindre et choisir. Après un exposé en quelque sorte panoramique qui embrasse trois siècles, le tableau se découpe et se concentre autour de certaines œuvres et de certains écrivains. Mais le choix fait par M. Carré est large et abondant; ce sont: Chateaubriand, Champollion, Joseph Michaud, Prisse d'Avennes, un méconnu sur lequel M. Carré attire aujourd'hui l'attention.

Cette enquête à la fois historique et critique, biographique et littéraire, se poursuit dans le tome II, où l'on se trouve en compagnie des « voyageurs littéraires au lendemain du romantisme »: Nerval, J.-J. Ampère, Marmier, Flaubert, Maxime du Camp. Puis c'est Théophile Gautier et l'importance considérable de son inspiration égyptienne. Enfin, avec des savants comme Barthélemy-Saint-Hilaire, Mariette et Renan, le ro-

mancier Edmond About, et les invités du khédive Ismaïl qui participèrent à l'inauguration du canal de Suez; parmi ces derniers, le peintre Eugène Fromentin.

Chaque chapitre est suivi de la bibliographie correspondante.

« Avec M. Jean-Marie Carré, a-t-on dit, on accomplit un double voyage, l'un à travers l'Egypte, l'autre à travers la littérature française, et il faut espérer que cette suggestive étude contribuera, à sa façon, à resserrer les relations intellectuelles entre l'Egypte et la France ».

Ajoutons que les admirables illustrations de l'ouvrage se composent de reproductions de gravures anciennes des XVIème, XVIIème et XVIIIème siècles, et de tableaux de peintres français du XIXème. Plusieurs sont tirés de collections particulières, et certains ont figuré récemment au Caire dans une exposition rétrospective de la peinture française en Egypte.

Herman DOPP.

Herman Dopp: *La Contrefaçon des livres français en Belgique*, 1815-1852. In.-8°, VII+250 pp. Librairie Universitaire, 10-12, Rue de la Monnaie, Louvain, 1932.

M. H. Dopp, Maître de Conférences à la Faculté des Lettres de l'Université Egyptienne, vient de publier une très intéressante étude sur « La Contrefaçon des livres français en Belgique ».

Après avoir précisé le sens du mot contrefaçon, qui n'implique pas, en librairie, l'idée d'une imitation frauduleuse mais seulement d'une reproduction non autorisée par l'auteur ou ses ayant droits, M. Dopp divise l'histoire de cette industrie en trois périodes:

La première, sous le régime hollandais, va de 1815 à 1830. C'est la période d'organisation. Bruxelles voit s'ouvrir un grand nombre d'imprimeries qui reproduisent les livres français.

La deuxième période, de 1830 à 1845, est l'âge d'or de la contrefaçon. De grandes sociétés de librairie se fondent à Bruxelles; elles exportent de grandes quantités de livres dans le monde entier.

La troisième période, de 1845 à 1852, est le déclin de la contrefaçon, définitivement supprimée par la convention franco-belge du 22 Août 1852.

Nous tirerons de cette étude des enseignements multiples. Il n'est pas sans intérêt d'apprendre que la propriété de la pensée qui nous paraît aujourd'hui d'une légitimité indiscutable n'a été reconnue par la jurisprudence internationale qu'au milieu du XIXème siècle. D'autre part, et contrairement à un préjugé assez généralement accrédité, le choix des contrefacteurs ne s'est pas porté sur les œuvres libertines ou révolutionnaires interdites dans leur pays d'origine; seul l'intérêt commercial les a guidés et ce sont les livres à succès, d'une vente assurée, qui furent ainsi réédités. Enfin, conclusion qui dépasse singulièrement les limites d'une simple étude bibliographique, la contrefaçon a été utile à la pensée française: les éditeurs belges, en effet, mieux organisés et plus habiles que leurs confrères de France ont fait connaître à la grande masse des lecteurs étrangers des œuvres françaises qui, sans la contrefaçon, n'auraient peut-être jamais franchi nos frontières.

Cet important ouvrage sera suivi d'un catalogue des ouvrages contrefaits, qui rendra certainement de grands services aux bibliophiles.

P. M. MASSIAS.

Publications in Arabic:

N.B. — Fuller Notices appear in the Arabic section of this Number:

Abd el Wahhab Azzam: *Al Shahnameh,* Cairo, 1932. A critical edition of Bondari's old translation into Arabic.

Hassan Ibrahim Hassan: *The Fatimids in Egypt,* Cairo 1932, A study of the rise, progress and decline of Fatimid power based on original and specially on manuscript sources.

Ahmad Amin: *Duha-l Islam*, Cairo 1933. Continues the author's "Fadjr-l Islam" and is mainly concerned with a critical study of the intellectual life of the Moslems betwen 132 and 232 AH.

Taha Hussein and Abdel Hamid al-Abbady: *Kitab Nakd al Shi'r* by 'Abi al Faradj Kudàmà, Cairo 1933. A critical edition of the manuscript original preserved in the Escurial.